غبكت العجيبة





المشروع القومي للترجمة

تأليف : فيلكس

ترجمة : عبد الله عبد الرا

مراجعة : شوقى عطا الله الجمل

589

المشروع القومى للترجمة

تمبكت العجيبة

تـألـيـف : فيلكس ديبوا

ترجـمـة : عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مراجعة وتقديم : شوقى عطا الله الجمل



٢٠٠٣



المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٨٩

- تمبكت العجيبة .

- فيلكس ديبوا .

- عبد الله عبد الرازق إبراهيم .

- شوقى عطاالله الجمل .

- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كتاب :

Tombouctou la Mystérieus

PAR

FÉLIX DUBOIS

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opere House , El Gezira, Cairo

Tel : 73528084 Fax : 7358084

المحتويات

تقديم المراجع

"تمبكت" موضوع هذا الكتاب مدينة تقع على مسافة اثنى عشر ميلاً من نهر النيجر - ويرجح أن تأسيسها يرجع إلى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) من قبل الطوارق - وقد اختلف نطق اسمها ، ففى بعض المراجع تكتب (طونبوكتو) وفى بعضها (تنبكت) ، وهو الاسم الذى أطلقه عليها المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن عبد الله السعدى فى كتابه تاريخ السودان ، ويذكر أنه يعنى المدينة العريقة فى القدم والحضارة . وذكر أنها كانت ملتقى العلماء والزعماء والصالحين ، ومحط التجار والمثقفين ، كما ذكرها محمود كعت فى تاريخ الفتاش بهذا الاسم، وقد كثر ذكرها فى كتاب وصف أفريقيا للحسن بن الوزان .

وتمبكت - كما يتضح بجلاء من الخريطة - تقع فى مكان إستراتيجى مهم، ولذا ازدهرت ، ووفد عليها العلماء والفقهاء من مختلف البلاد العربية والإسلامية من فاس ، وفزان ، وسوس ، ومصر .

وفى ظل ملوك مالى وسنغى تمتعت تمبكت بمركز ممتاز إلى أن سقطت فى أيدى المغاربة فى أواخر القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى أثناء حملة المنصور السعدى على بلاد السودان الغربى (٩٩٩هـ) .

ولموقع المدينة وتحكمها فى طرق الصحراء الكبرى التجارية والطرق النهرية ، ولاهتمام الحكام بها ، أصبحت الحاضرة الثقافية للسودان الغربى ، واشتهرت بكثرة مساجدها وجوامعها ، ومن أهمها مسجد جنجور الذى بناه المهندس الغرناطى الطويجن ، كذلك جامع سنكورى الذى أصبح بمثابة جامعة علمية تشع منها الثقافة الإسلامية فى غرب أفريقيا ، حتى إنه أصبح فى الشهرة ينافس جامع القرويين ، وجامع الزيتونة .

وقد تأثرت الحركة الثقافية فى تمبكت فى هذه الفترة بعدة عوامل منها :

١ - الحضارة الإسلامية العربية التى وجدت طريقها إلى غرب أفريقيا منذ أن وصل الإسلام إلى شمال القارة وإلى المغرب الأقصى خاصة ، وكانت هناك عدة طرق تربط بلاد شمال أفريقيا الإسلامية بتمبكت وغيرها من حواضر غرب القارة .

٢ - وأسهمت هذه الحضارة الإسلامية مساهمة فعالة فى التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى تمبكت والجهات المحيطة بها .

٣ - وقد توافد على تمبكت عدد كبير من العلماء والفقهاء من المغرب ومن غيرها من البلاد الإسلامية - كما برز فيها من مواطنيها عدد كبير - منهم من سجلوا أسماءهم فى سجل العلماء الذين أثروا الحياة الثقافية والدينية فى العالم العربى وتركوا لنا تراثًا فى العديد من العلوم هو جزء من تراثنا الإسلامى والعربى .

٤ – على أن انتشار الإسلام واعتناق أعداد كبيرة من مواطنى تمبكت وغيرها للإسلام ترتب عليه انتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وحرص الكثيرون على تعلمها خاصةً بعد أن أجمع أغلب أئمة المسلمين على عدم جواز ترجمة القرآن الكريم وعدم جواز قراءته بغير العربية .

٥ – وارتبط ازدهار الثقافة الإسلامية فى تمبكت بانتشار الطرق الصوفية خاصةً التيجانية والقادرية وما انبثق منهما من طرق فرعية أخرى .

٦ – وظهر فى تمبكت – وما ارتبط بها من حواضر غرب أفريقيا – مصلحون سعوا لمحاربة البدع والعادات السيئة .

٧ – ولعبت التجارة بالذات دوراً مهماً فى نشر الإسلام وعلوم الدين واللغة ، فالتجارة والعلم فى تمبكت والمناطق المحيطة صنوان لايفترقان ؛ إذ أسهمت التجارة فى نشر الإسلام ومبادئه وعلومه وأسهم الإسلام فى ازدهارها ونمو التبادل التجارى .

٨ – وتأثرت الثقافة والفن بالتراث الذى ظهرت معالمه فى مدارس تمبكت ومساجدها بالثقافة المغربية والفن المغربى .

٩ – وقد حاول بعض سلاطين سلطنة مالى بالذات تقليد الحكام الذين اشتهروا فى المشرق والمغرب العربى بتشجيع العلماء والإغداق عليهم ، فالسلطان أسكيا محمد (١٤٩٣ – ١٥٢٨) شجع العديد

من العلماء على الحضور إلى تمبكت وأغدق عليهم المال والهبات وأقام كثيرون منهم بها ، وكان وجود هؤلاء بهذه البلاد نواة لنهضة ثقافية ودينية كبرى .

١٠ – وأثر الغزو المغربى للسودان فى الحركة الثقافية والفكرية ، ومنذ ١٥٩١ بدأ صراع بين السياسيين والعسكريين من جهة وبين الطبقة المثقفة من جهة أخرى .

وبعد أن غزا المغرب بلاد السودان الغربى لحقت بعلماء تمبكت ضربة أخرى شبيهة بما لحق بعلماء تمبكت فى عهد منسى على الذى أعمل السيف فى علماء السودان الغربى خشيةً منهم ، فلما غزا المغرب السودان الغربى فى أواخر القرن السادس عشر اتهم علماء عائلة (أقيت) بالذات الصنهاجية بإثارة القلاقل للجيش المغربى وتحريض الناس على مقاومة الغزاة ، فقام قائد الجيش المغربى بنقل علماء تمبكت إلى مراكش وجمعت كتبهم وتحفهم وودائعهم من دورهم وأُرسلت إلى المغرب . وقد أسهم هؤلاء العلماء المهجرون فى فترة وجودهم بالمغرب فى الحياة الثقافية هناك .

وأهم العلوم التى ازدهرت فى تمبكت فى هذا العصر:

(أ) علوم الشريعة (ب) علم التاريخ (ج) الرحلات

(د) التراجم (هـ) الآداب

ومن علماء تمبكت الذين اشتهروا بمؤلفاتهم:

١ - عبد الرحمن السعدى: تاريخ السودان (نشره هوادس - باريس ١٩٨٩)

٢ - محمود كعت: تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش ، (نشره هوادس ، ودولافوس ، باريس ١٩١٣) .

٣ - أحمد بابا التمبكتى: نيل الابتهاج بتطريز الديباج .

- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج .

- اللبيب فى شرح مختصر خليل .

وقد تبارى علماء تمبكت فى اقتناء المكتبات فى بيوتهم . وقد اشتهرت أسرة أقيت بمكتباتها ، وقد قدر أحمد بابا التمبكتى مكتبته التى استولى عليها المغاربة بعد الغزو المغربى بألف وستمائة مجلد ، وذكر أنها أقل مكتبات أسرته ، وقد ذكر أن محمد بن محمود أقيت كانت مكتبته بمثابة خزانة عامة يستعير منها الطلبة والقراء . والكثير من هذه المكتبات احتوت مخطوطات كان العلماء وغيرهم يكلفون النساخ بنسخها من الكتب الأصلية .

شوقى عطا الله الجمل



مقدمة المترجم

مؤلف هذا الكتاب هو (فيلكس ديبوا) فرنسى الجنسية ، قام بجولة فى المنطقة قرب ختام القرن التاسع عشر ، وتكبد الكثير من المشاق ، وكان قبل رحلته قد اطلع على العديد من المؤلفات التى كتبت عن تمبكت وشهرتها التجارية وموقعها الإستراتيجى وعن مساجدها وجوامعها خاصةً جامع سنكورى الذى أصبح جامعة شهيرة إبان ازدهار هذه المدينة الإسلامية ، وازدهار الحياة العمرانية فيها فى عهد منسى موسى الذى حكم دولة مالى منذ عام ٧٢١ هـ حتى عام ٨٣٧ هـ (١٣٢١ - ١٣٧٣ م) .

اطلع على جهود المهندس الغرناطى إسحاق بن الطويجن الذى أشرف على بناء العديد من المبانى وكان متأثراً بالفن المعمارى المصرى والأندلسى .

وحين زار ديبوا المنطقة كانت قد افتقدت الكثير من عظمتها واندثر الكثير من مبانيها ، ولم تكن تمبكت فى أزهى أيامها التى اشتهرت بها فى نهاية عهد سلاطين سنغى العظام من أمثال أسكيا الهادى محمد ، وأسكيا داود الذى توفى عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨م وانتقلت تمبكت

إلى حكم المغرب بعد أن غزاها القائد جودر عام ١٥٩٠ وضمها إلى أملاك سلطان مراكش ، وظلت خاضعة للمغرب حتى عام ١٧٥٠ ، وفى ذلك العهد عمت المظالم ، وشدد الطوارق غاراتهم وامتلكوها عام ١٧٩٢ ثم استولى عليها الفولة عام ١٨٢٧ .

وعلى الرغم من اتصال تمبكت بالأوروبيين منذ القرن الخامس عشر - حين كان لها تعامل مع الثغور الإيطالية ، خاصةً (فلورنسة) عن طريق قادش وطرابلس ، وكانت تخرج منها أو تمر بها طرق كثيرة من القوافل نذكر منها أربعة طرق : الطريق الذى يقصد مصر ماراً بكانم وجاو ، والثانى الذى يقصد تونس ماراً بحجار ، والثالث الذى يقصد مراكش ماراً بسجلماسة وتوات ، والرابع يقصد السودان ماراً بمالى - فقد انقطعت الصلة بين تمبكت وأوروبا منذ القرن السادس عشر، لذا قال الأوروبيون عنها إنها مدينة اكتنفتها الأسرار ، وقد حاول بعض الرحالة من أمثال ليينج زيارتها وكشف أسرارها ورؤية ما تبقى من هذا الصرح الكبير الذى كتب الكثيرون عن ثراء أهله وثقافتهم العلمية ، وتمدنهم ، لكن ليينج دفع حياته ثمناً لهذه المغامرة .

أما بارث فقد نجح فى الوصول إليها عام ١٨٥٣ وكتب عنها كثيراً بعد أن اطلع على العديد من المخطوطات العربية المتعلقة بها .

وفى السنوات الأخيرة جاءت رحلة ديبوا التى نشرت وقائعها وترجمت إلى عدة لغات ، ونشرت الطبعة الإنجليزية فى نيويورك فى عام ١٨٩٠ .

ومن هنا تأتى أهمية ترجمة هذه الملاحظات والانطباعات التى كانت تنطق فى وقت من الأوقات بعظمة الحضارة الإسلامية وآثارها فى غرب أفريقيا . خاصةً أن هذا الرحالة وغيره من الرحالة الأجانب ، أشاروا إلى العديد من المخطوطات والمراجع العربية التى فقد الكثير منها سواء بسبب الإهمال أو الحروب أو غيرها مما تعرضت له المنطقة بسبب الغزو الاستعمارى الأوروبى .

وهنا لابد من وقفة للإشارة إلى أنه على الرغم من الأهمية البالغة للملاحظات الدقيقة والإشارات المتعددة والدراسة التحليلية المتعمقة التى تميز بها ديبوا فى عرضه المتوسع والشيق لمختلف نواحى الحياة للمنطقة التى زارها فإن المؤلف لم يستطع – ولم يكن فى مقدوره – أن يتخلص من النظرة الاستعمارية التى انحرفت عن ذكر الحقيقة المجردة وتغاضت عن مساوئ الاستعمار الأوروبى للمنطقة وما أحدثه فيها وصورته بأنه كان البوابة التى فتحت أعين الوطنيين للحضارة الأوروبية ونقلتهم من ظلام العصور الوسطى ، وفى سبيل تأكيد هذه الادعاءات غير الحقيقية ، نسى المؤلف أو تناسى ما أداه الإسلام والمصلحون الإسلاميون من رسالة ، وما كانت عليه هذه البلاد من حضارة برزت معالمها فى مختلف نواحى الحياة سواء فى نظم الحكم أو فى المبانى والمؤسسات أو فى مجال العلم والتعليم أو فى المكتبات التى اشتهرت بها والتى لم يكن يخلو بيت أحد علمائها – وما أكثرهم – منها ، والمخطوطات التى رغم فقد الكثير منها بسبب الغزو الأوروبى ونقل

العديد منها إلى مكتبات الإسكوريال بمدريد أو المكتبة الوطنية فى باريس أو غيرها من المكتبات فى الدول الأوروبية أو غير الأوروبية ، مازال الباقى منها فى مكتبات ومحفوظات دول غرب أفريقيا ، يشهد بالماضى المشرق الذى كانت عليه هذه البلاد فى ظل الحضارة الإسلامية .

وإن كان هذا الانحراف عن قول الحقيقة كاملة لايقلل بحال من الأحوال من أهمية هذا الجهد الضخم المتمثل فى كتابات هؤلاء الرحالة وأمثالهم .

وقد أشرنا فى هوامش هذه الترجمة إلى بعض هذه الاتجاهات غير الحقيقية .

عبد الله عبد الرازق إبراهيم

الفصل الأول

من باريس إلى النيجر

الرحلة من باريس إلى النيجر ليست بنفس بساطة الرحلة من مدينة نيس مثلاً إلى الجزائر ، فأنت تستيقظ بعد ستة أسابيع على ظهر مركب على نهر النيجر بعد أن تكون قد رحت في نومٍ عميقٍ داخل عربة سكة حديد عند مغادرتك باريس ، وترسو بك السفينة في مدخل دولة السنغال التي خضعت لفرنسا لعدة قرون ، ومع ذلك فإنها تعرف للجماهير العامة من خلال درجة حرارة هي أربعون درجة ستزيد حسب الحرارة في السنغال ، ورغم هذا فإن هذه الأفكار ليست دقيقة ، فهل تصدق أنك ستظل لعدة شهور مرتديًا معطفك الواسع في الصباح والمساء حيث تسجل أدنى درجات الحرارة حسب المرصد المحلي ٤٢° وليست أربعين درجة في داكار ، وهي أحد موانى السنغال وأجمل ميناء على الساحل الغربي للقارة الأفريقية ؟ لم نستطع السفر بالقطار إلى مدينة سانت لويس عاصمة المستعمرة مائة وسبعين ميلاً من الطريق الذي تخترقه السكك الحديدية ، وهي أفضل ما شيده الأوربيون في أفريقيا الزنجية

منذ عام ١٨٨٢ ، ولقد ظهرت بصمات الحضارة على هذه الأرض الخصبة البكر ، وفى سانت لويس ومدينة روفيسك **Rufisk** – وهى مدينة تجارية مهمة فى خليج داكار – تستطيع أن تجد الشوارع وهى مضاءة بالكهرباء ، كما أن الانتخابات التشريعية العامة تتم بشكل حماسى ، فضلاً عن الانتخابات البلدية والعامة ، ولا يقل الحماس عن سباق الخيول والمراهنات .

وتبدأ بشكل منتظم خدمة صغيرة من البواخر التى تبحر مرتين فى الأسبوع من ميناء سانت لويس إلى السودان ، والخدمة على ظهر هذه البواخر مريحة وغالية ، وتستطيع أن تلعب البوكر مثلما يحدث على ظهر أى سفينة بخارية ضخمة ، كما أنك تشاهد ولمدة ثمانية أيام شواطئ نهر السنغال بشكل رتيب ، وبعد هذا يأتى الصباح إلى أن تصل إلى شاطئ مكسور عند جذع شجرة ضخمة وهذه هى مدينة كايس **Kayes** التى تعد العاصمة الحقيقية وميناء السودان (الغربى) .

ومن جانب آخر فإن الأمر يحتاج إلى حل لمشكلة صعبة ، وهى كيف تكون مدينة وسط المستنقعات ، ومستنقع وسط مدينة ؟ إن هذه الطريقة الشاذة لبناء مدينة تجعلك تفكر لحظة أنك قد وصلت إلى نهاية العالم ، لكنك تعود إلى صوابك عندما تشاهد أسلاك التلغراف وهى تعبر الشارع أو عندما تسمع صوت القاطرات البخارية ، ويواصل خط السكك الحديد الطريق من السنغال إلى النيجر ، وسوف يعبر المسافر فى يوم ما حتى (باماكو) بسهولة حتى إننا يمكننا الوصول إليها بعد أسبوعين من إقلاعنا من باريس إلى النيجر .

ويمتد خط السكك الحديد فى الوقت الحاضر حوالى مائة وثمانية من إجمالى ثلاثمائة وواحد وأربعين ميلاً تفصل كايس عن باماكو -Bam mako ، وطوال الثمانية والسبعين ميلاً الأولى يكون الطريق عادياً ومفتوحًا للحركة التجارية ، كما أن إدارته وصيانته تحت إشراف المهندسين العسكريين ، ووصول القطارات منتظم إلى نهاية الطريقين ولعل الغلطة الوحيدة هى توقف القطارات فى مدينة بافولاباBafoulaba حيث يتحد فرعا بافنج Bafing وباكوى Bakoy ليشكلا نهر السنغال ، وبعدها يجب أن تكيف نفسك على مسافة مائة وثلاثين ميلاً حتى مدينة ديوبابا Dioubaba .

لقد التحقت بقافلتى التى كانت قد سبقت قبلى وتنتظر فى مدينة ديوبابا ، وجمعت الأمتعة والحمالين وحصانًا من هناك وبدأت مغامرة غريبة ، فلقد كنت مضطربًا وأنا أمتطى حصانًا أبيض اللون فى ذلك الجزء المبكر من الرحلة ، وأقول مضطربًا لأننى - دون شك - لم أقم بشراء مثل هذا الشىء ، كما أن الإدارة الاستعمارية قد وضعت هذا تحت تصرفى بكل رقة ، حصان أبيض ، يا لها من ورطة ، حظ سيئ كما يعرف كل إنسان أنه حظ سيئ طوال الرحلة ، وكيف أتجنب مثل هذا الحظ السيئ إن العناية الإلهية قد جاءت لإنقاذى بإحدى الوسائل السرية التى لا يعرفها إلا الله وحده .

ومن حسن الحظ أننى وجدت فى مدينة (كايس) أن قماش السرج قد فقد ، وحاولت شراء سرج آخر من كل المحلات ، لكن دون جدوى ،

وفى هذه المناطق إن الشىء الوحيد الذى تجده أو تحتاج إليه أو تعتمد عليه هو نفسك أنت ، وكان علىَّ أن أعتمد على إحدى البطاطين التى يبيعونها للزنوج ، واخترت واحدة حمراء اللون ورخيصة الثمن ، لكنها رخوة على ظهر الحصان الذى كان قد وصل إلى مدينة (بأفولابا) على ظهر عربة ، ونظراً لأنها لا تستطيع حمله أبعد من ذلك ، وبالطريقة نفسها فإننى أرسلته عن طريق البر إلى (ديوبابا) ، بينما استفدت من خط السكة الحديد الصغير وذلك حتى إنفاذى ثمانية وعشرين ميلاً من الطريق البرى على ظهر الخيول التى نجد منها بالمئات ، وعند الليل دخل القطار الصغير السرداب الذى يحفظ به الأعشاب فى ديوبابا Dioubaba والتى تستخدم كمحطة وحجرة انتظار ، وكان الناس جميعًا فى نوم عميق ، كما أن حصانى كان يرعى العشب فى أمان ولا يوجد شىء غير عادى ، ولكن عندما بدأت فى صباح اليوم التالى امتطيت حصانى لأول مرة. ماذا أرى .. حصانا قرمزى اللون ؟ ! تخيل فرحتى . إنها بكل وضوح يد العناية الإلهية التى رتبت كل هذه الخطوات وساعدتنى بالبطانية الزنجية ، وقد أصبحت الآن كامل الثقة طوال بقية الرحلة .

إن المغامرة لن تتوقف هنا ؛ لأنه رغم التنظيف المستمر وغسيل الخيل ، فإنه أصبح مستحيلاً عودة الفرس إلى لونه الأصلى ، والصبغة التى لا توافق البطاطين أصبحت مناسبة للأفراس ، ولقد كان حصانى مثار إعجاب الأهالى فى كل القرى التى مررنا بها ، وكما يقولون إن هؤلاء الناس البيض يستطيعون صنع أفراس ذات لون قرمزى .

يكفينا هذا عن الحصان ، دعنا نستعرض معداتى ، أولاً يوجد بين هذه الأمتعة المعطف وكبير الخدم ، لأن وظائف عديدة تتراكم فى السودان تحت مسمى الجرسون البسيط ، إنه رجل أسود غليظ الشفاه ، يرتدى قبعة أوروبية من القش "وصدير" أبيض مع زراير من الجلد اللامع ، وبنطلونًا قصيرًا ، ينتهى بشرائح بيضاء وزرقاء ضيقة ، حافى القدمين وعارى الساقين ، وهو أحد الباقين على قيد الحياة من بعثة الكابتن بونير Bonnier ويحمل اسم خادم الكابتن نيجوت Nigotte ، وكان سيده هو الضابط الوحيد الذى هرب من الطوارق ليموت بعد فترة قصيرة من وصولى ، ويقول الدكتور إنه ممرض ممتاز ، وبناء على هذا فقد قمت بتعيينه وتشغيله معى ، وعندى فكرة أنه إذا تركت عظامى فى الصحراء ؛ فإنها تكون على الأقل فى أيدٍ أمينة ، وباختصار إنه شخص ممتاز ويعتمد عليه تمامًا .

لا يوجد شىء مثير أو تاريخى حول الطباخ ، وهو سبب سعادتى عدا تلك اللحظات المميتة التى أصيب فيها باليأس ، وقد قمت بتشغيله فوراً وعندما سألته : هل تعرف الطبخ ؟ أجاب على الفور مؤكدًا أنه يستطيع طبخ أى شىء ، كما أشار إلى أنه يستطيع القيام بالطلاء ، وفعلاً ، إنه يستطيع سلق البيض ، وأنا أقوم ببقية الأشياء .

أما الشخص الثالث والأخير فى مهمتى فهو سايس الخيل ، وهو رجل هادئ له لحية وملامح سامية ، يقود حصانى عندما نبدأ الرحلة ، ويمسك باللجام ثم يختفى بقية الرحلة ويظهر مرة ثانية فى نهايتها

ليمسك باللجام ويختفى ثانيةً ومعه الحيوان ، ولم يقل لى كلمة واحدة ولم أقل له كلمة واحدة ، بل ولم أعرف مجرد اسمه ، إنه لغز ، وشخص غامض .

بالإضافة إلى هذه الدائرة الثلاثية ، يوجد اثنان وعشرون من الأهالى الذين يرتدون ملابس رسمية نادرة مثل ندرة الجوخ ، لكن تختلف طريقة حلق الشعر ، فالبعض يرسل شعره مثل الحصير ، أما رأس البعض الآخر فهى عارية تماما مثل حلاقة الذقن ، وبعضهم يحتفظ بجزء من الشعر فى الوسط ، وبعضهم مثل كلب البحر ، ونادراً ما نجد اختلافاً كبيراً فى ألوان الجلد، حيث نجد اللون الأسود والأبيض واللون البنى وغيرها من الألوان المختلفة تماماً .

لقد وضعنا حمولة مائة سلة وحقيبة على رءوس الحمالين ، وبالتالى تستطيع أن تتصور حجم هذه المعدات الضرورية لإنجاز رحلة بسرعة ويسر فى بلاد السودان .

وبعد أن استفدنا من كل وسائل المواصلات منذ مغادرة باريس لإنجاز هذه الرحلة بسهولة ، يجد المسافر نفسه وجهًا لوجه مع أكثر الأمور بدائية وهو الطريق ، وأضيف أن الطرق الأفريقية ، شىء غامض ولا تتفق مع الطرق الأوروبية إلا فى الاسم ، حيث تجد التربة الصلبة والجسور غير المعروفة ، والآن تجد أيضًا روح المسافر الأفريقى الذى يعيش حياة حقيقية ، الحياة الوحيدة ، حياة الأعشاب .

ولكن ما الذى يجعل هذه الحياة مسلية لكل الذين مارسوها من الضابط مباشرةً من الأكاديمية العسكرية حتى الجندى العادى أو رجل المدفعية القادم حديثًا من مدرسة القرية ، أو من الطبقة الأرستقراطية ذات الأصول الملكية إلى أستاذ البلاغة ؟ إنها تجذب الجميع على حدٍ سواء ، حيث يصبح حامل القلم الوزارى موظفًا استعماريًا ، وكذا المهندس والفنان ورجل التجارة والذى يشرف على مصنع .

إن سحرها لا يمكن أن نشرحه للرجل المقيم حيث يصعب التحليل؛ لأنها لطيفة كلما توغلنا ، فالطعام متشابه والماء متشابه ، والنوم على وتيرة واحدة ، كما أن صحتك غالبًا ما تكون فى وضع متقلب . إن الحرارة والتعب هما الشيئان الوحيدان اللذان يسموان فى النوع ، إلا إن قلبك دائمًا ممتلئ بالرضا ، وحيث إنه من الصعب التغلب على هذه المتاعب ، فإننا نجعل الساعات التى نقضيها بين الأعشاب سعيدة ، وهذا يكون من خلال الأحاسيس التى نشعر بها والصور المدهشة التى تصاحبنا .

إنه امتزاج الجانب البشرى مع حياة الغابة الحرة وحياة السهول التى امتدت عبر آلاف وآلاف السنين ، والحقيقة إنك تتأمل فى هذه الحياة مع قرون من الحضارة التى تجرى فى عروقك .

وأيضًا فإن هناك شيئًا ما فى الطريقة التى يعبر بها هؤلاء السكان عن أفكارهم . إنك تجد نفسك أمام عمالقة يستطيعون وضعك

بين الأصابع ، ويتحدثون إليك بكل تواضع ، تحيةً من العبد الفقير إلى الله .

وفى قريةٍ أخرى تجد هيكلاً لرئيس عجوز يرحب تمامًا بوصولك ووجودك أو حتى زيارتك ، وعندما تقف بالقرب منه وتلمس قدميه ؛ فإنه يواصل قراءته فى كتاب القرآن الكريم ، حتى تتوقع سماع صوت رمح عبر الهواء أو سماع صوت بندقية ، وبعد ذلك تقوم إحدى الزنجيات بإيقاف الحصان وهى تنطق بكلمات غير مفهومة وتعطيك حفنة من الجذور السكرية وهى تبتسم مسرورة ، لأن هذه الابتسامة تعيد ذكرى الحقيقة عن هؤلاء المساكين أمثال رينيه كاليه Ren' Caillie ومنجو بارك Mungo Park ، وهما من السابقين لك فى هذا الجزء من أفريقيا ، وتم إنقاذهم من الموت جوعًا ، ولذا فأنت تتوقع أن تقدم إليك بعض النباتات المطبوخة ، ولكى تشبع رغبتها فإنك تتذوق بعضاً مما قدمته ، وتواصل طريقك بعد أن تأخذ البطاطا التى تشبه (المارون جلاسيه) ، وهنا تعود بالذاكرة إلى وطنك وحقيقة الجليد الذى يتساقط ، بينما أنت تُعانى شدة الحرارة منذ طلوع النهار .

إن الحياة وسط الأعشاب تعنى قطعانًا من طيور غينيا وهى تجرى وسط العشب الكثيف غير مبالية بالرجال الرياضيين ، كما تعنى أيضًا رائحة غريبة وخانقة تحيط بك ، وعند غروب الشمس يتغير لون السماء وبشكل غريب لم يكن موجوداً من قبل ، والليالى! ففى إحدى الليالى أقمنا معسكرنا فى الأكواخ المحيطة بقرية فسيحة ، وأشعل رجالى

النيـران فـى الهـواء الطلق ، وأحـدث الضـوء قـوسًـا من النور الأحـمـر والذهبى فى الظلام ، حيث أقمنا رقصًا للباليه .

إننى أقـدم لك جزءًا – ولو بسيطًا – لـهذه المناظر غـير المتوقـعة ، وكذا الأحاسيس التى أمتعتنى ، ولكنك لا تستطيع أن تتذوق طعم الحياة وأنت تجلس على كرسى له مسندان .

تقع مـدينة (ديوبابا) وهـى آخر الرحلة فى قلب منطقة جبلية ومنظر يُغرى ، كما أن مناظرها الطبيعية تحقق دخلاً معقولاً فى أوروبا ، ونهر باكوى Bakoy ينكسر فى عدة شلالات صخرية تصل إلى بعض المئات من اليـاردات وهى مملوءة بالتيـارات الشـديدة ، وتحـيط بجوانب النهر أعداد من الأشجار الضخمة ، ويوجد عدد من المهندسين الذين يعملون فى خطوط التلغراف والسكك الحديدية ، وهم سعـداء ، ويقـولون إنهم متزوجون حسب عادة أهل البلاد ، ويكمل هذا المجتمع فرس النهر الصغير ويسمى بيبى Bibi ، وقد تم صيده مؤخرًا وصار مستأنسًا ويذهبون إلى شاطئ النهر للتسلية وهم ينادون على بيبى الذى يختفى بسرعة ، ثم ينظر إليهم بعينيه الصغيرتين السوداوين وبعدها يجرى إلى أعلى لاحتضانه .

إن الطريق من ديوبابا إلى باماكو يتجه من الشرق إلى الغرب عبر سلسلة جبال فوتاجالون، التى تفصل حوض السنغال عن حوض النيجر، إنه مملوء بالصور التى تذكرك بغابة فونتين بيولو Fontaino Bleou كما أن المياه غزيرة لدرجة أنك تنام كل ليلة على صوت الشلالات أو سقوط المياه ، وإننى لا أعرف شيئًا أكثر من هذا الطريق إلى السودان .

إنك ترى حياة المستعمرين ذهاباً وإياباً عبر هذا الطريق من يوم لآخر ، كما أنه يعكس صورة تلك الحياة التى تقوم فى المرتفعات الأوروبية، قبل أيام عربات النقل ، وبعيداً عن قطاع الطرق ، قطعنا مسافة طويلة منذ السيطرة على السودان قبل ذلك بعشر سنوات ، وبعدئذ يعسكر المسافرون على هذا الطريق ومعهم الحراس ليلاً وكأنهم فى أرض العدو ، واليوم أصبح الطريق آمناً مثل شامب إليزيه Champ Elysees ولا توجد وسائل نقل كثيرة من العربات ، ولكن تكثر الدواب ، كما توجد جماعات من الحمالين الذين يحملون حقائب الرحالة إلى أماكن وصولهم ، فضلاً عن أحمال وأكياس من الشعير، ويعودون بعد أن يتخلصوا من حمولتهم وهم يرقصون على طول الطريق على صوت الناى أو الطبل مثل الأطفال الذين يخرجون من المدارس.

ويوجد أيضاً المسافرون الوطنيون التجار مع خدمهم من العبيد وزوجاتهم وأطفالهم ، والكل يسوق الحمير المحملة بالملح واللؤلؤ وخلافه .

إن اللقاء بين الأوروبيين ممتع على وجه الخصوص حيث يتم تبادل التحيات والألقاب ، وأحاديث طويلة بين شخصين لم يتقابلا من قبل طوال حياتهما ، فضلاً عن أخبار الداخل عن أماكن سيذهبون إليها أو لا يذهبون إليها ، وتستطيع أن تتبادل آلاف الخدمات البسيطة ، وفوق كل هذا الوقت، لأن الساعات فى هذه الأجواء لا تعطيك الزمن المطلوب ، والشىء الوحيد الذى تتأكد منه أن الساعات لا تعطيك الزمن حتى بشكل تقريبى ، وبعد ذلك يعطى الواحد للآخر ظهره بعد أن يتمنى له كل الخير ويواصل رحلته .

والأوروبيون الذين تلتقى بهم غالبًا ما يكونون موظفين رسميين حكوميين أو ضباطًا أو جنودًا ، والبعض منهم يعود إلى فرنسا لقضاء إجازة بعد قضاء عام أو عام ونصف عام فى الخدمة ، بينما يصل الآخرون ليحلوا محلهم .

وأحيانًا تمر على عربة إسعاف يدوية تظهر منها رأس مريض ، وإذا كنت طيب القلب ولديك الكثير من المواد التموينية ؛ فإنه من السهل أن تقدم بعضًا منها .

ومن سوء الحظ أن التجار يقدمون القليل فى هذه المقابلات ، ولكن لماذا؟ إن الإجابة تجدها فى الطريق نفسه وفى جماعات الحمالين الذين تقابلهم بشكل مستمر ، لأن رأس الرجل تعد وسيلة محدودة لدرجة أنك لا تستطيع السماح بالسفر إلى مسافة طويلة ، ولماذا لا تستخدم العربات إذن ؟ إن التقرير الذى قدمناه عن طرق السودان يقدم الإجابة على هذا السؤال ؛ لأنها توجد فقط بالاسم ، ويعرف قسم التزويد (المفوضية) شيئًا ما عن كل هذا ؛ لأن القلاع التى أقمناها فى ممتلكاتنا النيجيرية يجب أن تكون مزودة بالطعام ، ويعيش الأوروبيون فيها وحولهم قوات من السود لحفظ النظام ، وتمدين سكانه وتنظيمه وإعدادهم للعمل بين سكان الإقليم ، ومن الطبيعى أن تزود هذه الحاميات بالمؤن المطلوبة مثل زجاجات النبيذ ، وعلب حديدية من الدقيق والقهوة والسكر واللحم المملح والأسلحة والذخائر والملابس والمعدات وغيرها ، وحتى تنقل هذه المخازن إلى النهر – وهو وسيلة النقل السهلة –

تقوم الدائرة الحكومية بإحضار عربات تمتلكها لوضع هذه السلع عليها، ولو قدرت الوقت والمشاق والنفقات لاحتاج الأمر إلى مجلدات لسردها .

ويقابل الإنسان هذه السلع وهى تناضل بكل مشقة مع هذه الطرق الوعرة التى يتقدمها رجال المدفعية ، ومعهم طبيب بيطرى ، ولك أن تتخيل حالة هذه البغال التعسة التى تقطع ما بين عشرة واثنى عشر ميلاً فى اليوم ، وتوجد معسكرات كل عشرة أو اثنى عشر ميلاً ، وهى عبارة عن أكواخ من القش للرجال وأحواش للحيوانات ، وتستطيع أن تتبع سير هذه الوسائل من خلال بقايا قطع من الأوراق تتركها العربات خلفها ، وتمتلئ هذه الحصون بالحمالين الذين ينتظرون دورهم فى النقل، ويتساوى قلق الأوروبيين والوطنيين على مد خط السكة الحديدية من ديوبابا إلى باماكو بكل شغف .

وأخيراً فيما وراء كوندو (وهو حصنٌ ثالث مهجور تماماً) تصل إلى الخط الفاصل بين السنغال والنيجر ، وإلى حدٍّ ما نجد الأرض متنوعة تعود بنا إلى ذكريات سويسرا ، لكن دون أن نُعطى انطباعًا بخصوبة التربة نفسها ، ولكن خلال الخمسة والعشرين ميلاً الباقية من الطريق تتزايد العيون والنهيرات فى كل خطوة ، وتتخلل الزراعة دون توقف ، الحقول ذات الحياة الفضية خلال الجزء الباقى من الطريق ، ووسط هذا الوادى الجميل لجبال كاتى Kati العظيمة يسير مجرى من الماء بين حافتين صخريتين ، والتى تنفصل فجأة وتنتشر على شكل مروحة لتختفى على الشواطئ البعيدة لنهر النيجر .

وعندما اقتربت من النهر العظيم انتابنى قدر معين من العواطف ؛ لأننى منذ أربع سنوات كنت قد بدأت الذهاب إلى النيجر ، ولكنى فشلت فى الوصول إليه .

وكان رفيقى الكابتن فيدهرب Faidherbe قد بدأ محاولته الثالثة للوصول إلى هذا الفرع من غرب أفريقيا ، وفى محاولته الأولى تابع بعثة فلاترز Flaters على طول طريق النيجر الجنوبى ، وفى المحاولة الثانية بدأ من حدود غينيا البرتغالية ، لكن الحرب بين الأهالى منعته من تكملة الرحلة ، وفى المرة الثالثة بدأ من بنتى Benty ، وميلاكورى Mellacor'ee بصحبه النقاش أدريان ماريا Adrien Marie ، ولكنه وجد مقاومة من قوات المجاهد سامورى على بعد خمسة وعشرين ميلاً من شواطئه ، ومات منذ عامين دون أن يرى النهر [١] .

لقد تملكتنى ذكريات حظى السيئ وازدادت هذه المشاعر فى كل مرحلة من الرحلة ، وكانت عندى فكرة أن بعضًا من سوء الحظ سوف يلاحقنى ، واعتقدت أننى لن أشاهد النيجر بشكل مؤكد ، والآن بعد مضاعفة مراحل الرحلة مع الأيام الخمسة الأخيرة – وكان قلقى كبيرًا لرؤية النهر ، وكان حصانى قد بدأ يتخبط فى المنطقة الصخرية المنحدرة نحو النهر – نزلت من على ظهر الحصان وساد بى قلق جديد ، وأفترض أنها وهم آخر كبير تقدمنا إليه! لقد اتسع الممر الضيق فجأة حيث اتسعت جوانبه الصخرية يمينًا ويسارًا وجنوبًا مثل فتحة الباب ، وقال خادمى التاريخى : "يوجد الديوليبا Dioliba هناك" ، وكان يقولها بهدوء

وكأنما يعلن بشرى «استعدوا للطعام» ، إنه منظر خلاب ومؤثر من أعالى الطريق الذى لا يزال يلتصق بالتل ، وحيث يوجد أفق واسع تحت أقدامى ، ينساب فى أشعة الشمس عند الغروب فى هذا الجو الاستوائى الخلاب وهى تسطع على وادٍ من الألوان الفضية والذهبية والخضراء يحيط بها خط من الظلام ، إنه مجرد بخار ، حلم بنهر فى وادى الأحلام، والخط الأسود من التلال التى ينساب منها تقريبًا لا يمكن رؤيتها "الله أكبر" - كما يقولون هنا - إننى لم أستطع أن أرفع عينى عن هذه البانوراما العظيمة التى تمتد أمامى .

والآن حدث ما توقعت فلقد نزلت عن حصانى وتركته يمرح بين هذه الأشجار على طول الطريق الذى يمتد عبر الوادى ، وتوقف أمام لافتة سوداء تحمل كتابة بالحروف البيضاء باسم "محطة سكة حديد باماكو" .

الفصل الثانى

النيجر

نهر النيجر بتلك الآفاق الضبابية الواسعة يشبه محيطًا داخليًا أكثر منه نهرًا ، وعلى ضفافه التى يصعب رؤية الأرض عندها يجد الرحالة نفسه ، وقد دخل فى أحلام ممتدة ، تخيف عابر النهر بلا نهاية ، ومياهه تتكسر على شواطئه ذات الأمواج المتواصلة مثل شواطئ البحر المتوسط، وعندما تزداد سرعة الرياح القادمة من الصحراء فإنها تجعل أمواجه تتكسر فى سباق عظيم يؤدى إلى دوار البحر الذى يقنع الرحالة أن نهر النيجر يشبه المحيطات .

أما شواطئه فإنها لا تقل عن أمواجه وتشبه شواطئ المحيط ، ومن حينٍ لآخر ترتفع فقط فى شكل صخور مثل كوليكورا **Koulikora** فتعيد للذاكرة أمواج المحيط الأطلنطى التى تتكون من طمى الصحراء لكنها تتشكل من الصخور الحمراء المجاورة للشاطئ .

ومثله مثل المحيطات يضم نهر النيجر البحارة الذين ليسوا مجرد رجال بحر مؤقتين ، لكن يوجد سكان مقيمون يخدمون النهر بشكل متكامل ، يعيشون منَ أجله وله فقط ، وهم يسمون السمنوس **Somnos** أو البوص **Bosos** وليسوا من سكان الدول النيجيرية ، لكنهم كانوا من أوائل هجرات الشعوب الكبرى التى عاشت فى أفريقيا الغربية عبر القرون ، ويرتبط تاريخهم بأسطورة يحكيها السكان القدامى ، وعلى استعداد دائمًا لسردها ، فيقولون إن أجدادنا جاءوا من جبال الشرق العظيمة، هل يقصدون بذلك جبال إثيوبيا؟ وهل جاءوا من المناطق النائية المرتفعة المحيطة بأعالى النيل ؟ لا توجد لديهم أية فكرة ، ولا يوجد فى ملامحهم ما يشير إلى الأشكال والأنماط الملحوظة فى أفريقيا الشرقية ، كما أن بشرتهم الآن سوداء مثل بشرة الأهالى فى السودان ، إن الشىء الوحيد المؤكد من أسطورتهم هو أنهم حتى فى الأزمنة الأولى هم شعب يحب الماء ويعيش بجواره ، إنهم يقومون بالإبحار والصيد من أجل ملك البلاد الذى يرتبطون به ظاهريًا ، وحتى الآن فإن السودانيين لا يعتبرونهم من القبائل الحرة ، وعلى هذا فإنهم يبحرون ويصطادون السمك على قواربهم فى النهر إلى أن طلب منهم الملك بناء المنازل والجسور ، وهذه مهمة بعيدة عن طبيعتهم ، وإن عمل العبيد حسب أفكارهم لا يتفق مع طبيعتهم ، ولكى ينتقموا من ملكهم قدموا إليه هدية عبارة عن سلحفاة سامة أكلها ومات ، فى الوقت الذى هربوا فيه بقواربهم حاملين كل أمتعتهم معهم حتى لا يتعقبهم أحد ، وساروا مع مجرى عدة أنهار حتى وصلوا إلى النيجر الذى ينساب نحو الشمال حسب اعتقادهم .

لقد عاشوا هناك حتى يومنا هذا على ضفافه وعلى روافده فى قرى تشبه الأكواخ المقامة على سواحل أوروبا ، وهم يشكلون السكان الوحيدين فى هذه المجتمعات ، ويشغلون أحياء بعيدة فى المدن والقرى ، وهذا يؤكد حقيقة أن السكان الحاليين ينتمون تمامًا للنهر ، وقد زاد هذا من حبى لهم وإعطائى معلومات كسبتها خلال تلك الأيام التى عشتها معهم ، وفى قواربهم المصنوعة من تجويف الأشجار يقف رجل يتبع تعليمات آخر يقوم بالتجديف ، وبهدوء وبدون أى حركة يتقدمون فى النهر حتى يستطيعون صيد بعض الأسماك من بين المياه والأمواج ، إن رجل بوصا ليس صياد سمك فقط ، بل إنه بحار على نهر النيجر ، ولقد وجدته يمارس جهودًا جبارة فى هذا المجال ، ويتحمل الكثير مثل بحارة المحيطات .

ويعمل البحارة السبعة أو الثمانية فى قارب واحد ليلاً ونهارًا بشكل منتظم على المجاديف عندما تكون المياه عميقة ، ويقفون عندما يتحسسون القاع ، وهم يجدفون بفروع أشجار البامبو الطويلة ، وكان هذا التبديل بينهم هو فترة الراحة الوحيدة التى يُسمح لهم بها ، فضلاً عن بعض اللحظات أثناء تناول الوجبات ، ولكن ما هذه الوجبات؟ إنها عبارة عن حفنة قليلة من حبوب الشعير غير المطبوخة أو المطحونة فقط ومبللة بالماء ، وهذا يُعد كافيًا لهم ، وأحيانا عندما يتأخر طلوع القمر نجد أحدهم يغنى ويردد الآخرون خلفه بشكل جماعى ، ويزداد صوت الغناء وهم يرددون بسرعة بعض الألفاظ ، وطوال الأيام

الستة أو السبعة من رحلتنا كنا نقضى فترات من الراحة ونحن نجلس فى قاع المركب ، ولم يضايقنا سوى صوت التجديف المستمر ، هل يستطيع أحد من أى جنس أن يقدم نموذجًا من التحمل كهذا ؟ وكان الضحك بسيطًا وكذلك الدردشة فى الأيام الأخيرة وكان يتخلله من حين لآخر تدخين التبغ المسحوق الذى يضايق أنوفنا وأفواهنا ، وكانت هذه هى العلامات الوحيدة من التعب غير العادى الذى ظهر علينا ، ولم تكن هذه الجهود من دافع الحب لكن من أجل رجل لم يروه من قبل حتى عدة لحظات قبل بدء الرحلة ، وهم يعرفون أنهم سيفارقونه عندما يصلون إلى الأماكن التى يتجهون إليها ، وعلاوة على ذلك فإن شوقى إليهم كان بلا حدود ، فليس للوقت قيمة أو معنى عندهم ، وهم لا يعرفون حتى أعمارهم، كما أن حياتهم مجرد طريق أحيانًا طويل وأحيانًا قصير ولكن – على أى حال – لا يؤدى إلى أى شىء .

وفى الأيام الأولى كان علىَّ أن أعلمهم النظام وأهددهم قليلاً ، وعندما لا يجدى التحذير أقوم بتوجيه بعض الضربات إليهم ، وحيث إنهم يشعرون بنوع من العدالة ، بين كل الشعوب البدائية ، فإنهم تحملوا كل هذا عن طيب خاطر ، ومع آثار الضربات على أجسادهم السمراء كانوا يحتجون بنوع من الضحك بينما ينساب القارب بسرعة متزايدة مع أصوات "التارا تارا بوصا" .

إننى أدين لهم بشىء آخر حيث إننى وحيدٌ بينهم ، وبعيدٌ مسيرة عدة أيام عن الرجل الأبيض، وأسيرٌ بين مناطق مجهولة وأحيانا معادية ،

ولم أشعر يوماً ما أن حياتى مهددة . هل كان هذا يعود فى المقام الأول إلى سيادة الرجل الأبيض؟ وهو اقتناعٌ صار مؤكداً لدى أى إنسان يتجول عبر هذه الدول التى يرتادها الإنسان لأول مرة ، أو يكون هذا الشعور بالأمان نابعًا من التصرفات اليومية التى تمارس أمامى ، والتحيات التى يتم تبادلها مع أناس لا تعرفهم فى هذه القوارب ، والروح الطيبة السائدة بين هؤلاء الناس؟ إن الصيادين من أهالى بوصا يقدمون لرجالى نصيبًا مما يصطادونه من السمك الطازج الجميل ، وما أن نتقدم لأخذ هذه الهدايا حتى نشعر بالامتنان نحوهم وهم يهتفون "تارا تارا بوصا" . أليس من المدهش أن تكون الساعات التى نقضيها فى هذه المناطق الشاسعة من النيجر ممتعة بالنسبة لى ؟ أو ليست هذه الساعات من أمتع أيام حياتى وأنا أشاهد مجموعتى تسعى من أجل سعادتى ؟ وسيظل هؤلاء الناس يذكروننى بالحرية والهواء الطلق بعيداً عن آلاف الآلام التى وضعها الجنس البشرى بحجة التقدم ، وإن ذكراهم ستكون رؤية لأقوام يعيشون حياة بدائية لا يعرفون الخير من الشر وبدون قوانين أو أى جهد فى حياة هادئة مستقيمة وطيبة .

وباختصار إنها هروب من حياة الزيف والفساد الذى فرضته المدنية على قلب الإنسان ، وتحقيق الحلم الذى راود عقول الفلاسفة ، لكن لم يتحقق منه شىء . إن هذا القارب الجميل الذى لا مثيل له ، والذى يجعلك محظوظًا لأنه سريع ، ولا يمكن أن تنال المتعة بعيداً عنه ، إنه قارب يجمع بين جمال القوارب الأوروبية بكل صفاتها حيث يمتاز

بالاتساع والعرض وقاعه المسطح ، وهناك على سطحه توجد فجوة أستخدمها مكانًا للنوم وحجرة للطعام والمذاكرة بل وإعداد ملابسى ، وعلاوة على ذلك فقد كان أثاثى الوحيد قطعة صغيرة يمكن فتحها لتكون سريرًا لى ، فضلاً عن طاولة ومكتب ودولاب وبعض السلال والزجاجات ، وهناك أيضًا صندوق طويل مملوء بالتراب يعمل كموقد ومطبخ ، ويُنقل إلى الإمام والخلف حسب اتجاه الرياح ، وفى المساحة الباقية من سطح المركب يتوزع الرجال السبعة ومعهم خروفان لتزويدنا بالطعام وبعض الدجاج الذى يصدر أصواتًا متقطعة ، وإلى جانب كل هذا لابد من توفير مكان لوقود المطبخ .

إن نهر النيجر يقدم لنا مهرجانًا من العظمة والتنوع لا يستطيع أغنى تجار السكر تقديمه ، ومياه النهر الزرقاء مثل مياه البحر المتوسط قد تحولت إلى لون رمادى مثل بحر الشمال North sea ثم تتحول إلى مياه خضراء مثل المحيط العظيم .

وتوجد مناظر شاعرية حيث يقوم السكان بغسل أدوات الطبخ وتنظيف أطفالهم فى هذه المياه ، ويفقد الفن قيمته لأن هذه المناظر المتغيرة تلفت الانتباه إلى أجسامهم البرونزية التى تتحول إلى لون ذهبى مع أشعة الشمس البراقة .

وهنا وهناك يلعب الأطفال وقد مدوا أجسامهم ورءوسهم وأطرافهم النحيلة ، ومن حين لآخر يقطعون اللعب ويجرون بالقرب من شواطئ

النهر لمشاهدة الرجل الأبيض وهو يمر عليهم ويحيونه تحية عسكرية ، وليس هناك شيء أكثر مرحاً من هذه المخلوقات العارية التى ترفع إحدى ذراعيها بالتحية ، وإذا ابتسمت فإنهم يردون التحية بابتسامة عريضة ، وعلى الشفاه ضحكة لطيفة حتى فى أحلك الظروف ، وهى ضرورية فى حياتهم مثل الطعام والماء ، إنها لحظات السعادة بين هذه الشعوب التى تجهل الآلام الخلقية والجسمانية التى يعانيها الإنسان المتحضر .

ويقوم الصياد برد التحية بشكل عسكرى ، ويبدو أن هذا النوع من التحية هو الشىء الوحيد الذى قدمته حضارتنا لهم ، إنهم أرواح مسكينة ، وعندما يكتمل جمعنا يتوقف الضحك .

لقد مررت بين مدينة (سيجو) والمناطق المحيطة بمدينة (تمبكت) حيث القطعان المدهشة من الثيران والخيول والماعز والأغنام ، وهذه الخيول شبيهة بالخيول العربية ، وأيضاً نجد الأغنام العجيبة حيث يكثر الصوف عليها ، وتصل أعدادها إلى الألوف التى واجهتنا فى السير ، وفى أحد الأيام كنت أسير بين بحيرة ديبو Lake Debo و سارافارا Sarafara حيث وجدت نوعًا جديداً من الأغنام بالقرب من وادٍ واسعٍ وتوجد غابة بعيدة، وفجأة وعند غروب الشمس وجدت أربعة أسود سوداء تسير فى شكل طابور هندى وهى تتقدم ببطء وخطوات حادة ، ثم توقفت وهى ترفع رأسها عندما سمعت صوت المجاديف ، وبعد أن ألقت نظرة نحونا وهى تسير بالنظام نفسه ، اختفت ببطء داخل الغابة الخضراء .

وكان المنظر مؤثراً حيث البندقية دائماً فى يدى لكن إطلاقها سوف يثير عائلات فرس النهر التى تخرج رأسها من الماء عند المساء والتى تستريح فى الشمس طوال النهار .

أما أصناف الدواجن فهى رخيصة جداً خاصةً البط البرى الذى أصطاده فى وقت الفراغ وأعده للطعام مشوياً أو محمراً ، وتوجد أعداد ضخمة من طيور النيجر التى تسير جماعات على شواطئ النهر بألوانها البيضاء مثل الثلج ، وأجسادها النحيفة وعنقها الطويل وأرجلها النحيلة وهى تقف وسط الأعشاب الخضراء ، والتى يمكن أن يصطادها الإنسان بسهولة .

إن ثقة هذه الطيور الجذابة عظيمة ؛ لأن الأهالى يكرهون لحومها ويجهلون قيمة ريشها ، وبالتالى لا يقومون بصيدها ، وتوجد أنواع أخرى من الطيور ذات الريش عظيم القيمة ، وتوجد أيضاً ألوان مختلفة من الطيور ، وفى منطقة توليماندو **Toulimandio** تتشكل شواطئ البحيرة من غابات مرتفعة ذات المناظر الجميلة وهى داكنة وعميقة مثل القطيفة ، وتظهر الجبال من مسافات بعيدة وهى آخر سلسلة جبال فوتاجالون ، ولولا هذه الأجزاء غير المعتادة من النهر والشمس الرائعة ، فإننا لا نجد شيئاً خاصا عن هذه المناطق الاستوائية .

وبالتدريج تختفى هذه الغابات الطويلة حيث نجد قاع النهر وقد أحاطت به جذوع الأشجار التى تكونت نتيجة الفيضانات والتى تتدلى على مياه النهر .

وفى نيامينا وسيجو وسانساندنج تختفى الغابات لتترك المجال لسهول واسعة صالحة للزراعة وتربية الماشية التى تمتد إلى أبعد من مرمى البصر حتى تصل إلى بحيرة ديبو Debo التى تعد حوضًا ضخمًا من المياه بجانب النهر ، فضلاً عن تلين مرتفعين يحرسان مدخلها ، وبعد المرور عليها دخلنا فى مجرى واسع ممتد أمامنا فى كل مكان ولا يمكن مشاهدة شواطئه مثل البحيرات فى سويسرا .

وينتظر الرحالة وراء بحيرة ديبو منظراً غير متوقع ألا وهو أرض واسعة مثلما نجد فى نورماندى أو إنجلترا ، بل وتمتد إلى قلب أفريقيا الاستوائية حيث المراعى الخضراء الكثيفة .

كل هذه التغيرات بعد المرور على سارافارا ، حيث تصل إلى أطراف الغابة الاستوائية التى تظهر أمام قاربنا ، وأرى أيضًا بعض المناظر مثل التى أشاهدها فى مصر أو سوريا ، وتوجد أشجار النخيل والزيتون الأخضر القادم من فلسطين ، فضلاً عن الشجيرات المنخفضة الكثيفة التى تذكرنا بأشجار التين فى منطقة جوديا Judea ، ولقد مررنا على الكول هادج El Qual Hadj حيث توجد مساحات واسعة من الخضرة ، وتتواجد القرى قليلة السكان على شواطئ النهر لكنها متناثرة فى أماكن بعيدة حسب فيضان النهر ، وكانت مظاهر الحياة الوحيدة تخرج من النيران المنبعثة من القرى التى تنشر أعمدة من الدخان فى السماء دون أن تشهد شيئا حيًا سواء من الناس أو الحيوانات على الشواطئ .

إن جواً من الغموض يغلف المشهد ، حيث تجد فجأة حقيقة هؤلاء الطوارق الذين لا يزالون أسيادها المسيطرين عليها .

وأخيراً نجد على حدود (تمبكت) تلالاً رملية تعترض مناطق الخصوبة ، وتظهر مناطق بيضاء على النهر وتزداد حتى تصل إلى الصحراء نفسها ، وهذه مناظر مختلفة ، وهنا يظهر عامل آخر من التغير فى هذه المناطق المرتفعة بجوار النهر ، وبعد أن اخترقنا هذا الطريق بعد عدة شهور نجد أنفسنا فى نهر مختلف تماماً ، حيث تبحر وسط سهول وتمر بين شواطئ يصل ارتفاعها ست وعشرين قدماً ، وهناك نجد امتدادات واسعة من الحياة التى تعطى انطباعاً بأننا فى بحر ، حيث الشواطئ الرملية المسطحة وقت المد والجزر المنخفض ، وفى مدينة (تمبكت) ينساب النهر فى فروع سريعة تعترضها صخور فى القاع ، أما المدن والقرى الواقعة على الشاطئ ، والمنازل القريبة فهى محاطة بأعشاب مرتفعة حيث نباتات التبغ ، وتمتد الحدائق الصغيرة على الشواطئ ، بينما نجد أمام مدينة سيجو Segu بقايا المحار ciysterbedr الذى ينتشر على سطح المياه المنخفضة ، وتتبع كل هذه التأثيرات من بحيرة ديبو فى موبتى Mopti حيث ينضم إلى النهر فرع آخر مهم هو فرع بانى Bani ، ففى شهر ديسمبر تصبح الأنهار كتلة واسعة من المياه التى تندفع ناحية الشمال ، وتغمر السهول كلها بالمياه إلى عمق معين ، وعلى اليمين من بحيرة ديبو نجد مساحة واسعة تمتد إلى فرع كولى كولى Koli Koli الذى صار امتداداً للنيجر ، وينتظر

الرحالة هنا مفاجأة كبرى ، لأنها عبارة عن بحر من الحشائش ، كيف يثيرك هذا ويثير زملائى فى القارب؟

وفى الحقيقة فإن هذا شىء واحد ، لأنه ليس أرضًا أو مياهًا لكنه خليط غريب من الاثنين معًا دون أن يكون مستنقعًا ، لأن المياه ليست راكدة ، ولا توجد رائحة كريهة فى الجو ، وعلى عمق ستة إلى ثمانية أقدام تبرز الحشائش الطويلة الكثيفة والخضراء وتغطى مساحات كبيرة من الحقول ، ولقد انخدعت إحدى الأغنام التابعة لنا ودخلت فى هذه الحقول لكنها لقيت نهايتها هناك ولم تعد .

وبين الشواطئ توجد الحشائش التى تحفها وتحيط بفرع كولى كولى الذى يمتد وينتشر بعد كل هذه المياه ، كما أن حدود بحيرة كورنز krienza ليست معروفة بشكل قاطع ، وعندما كنا نعبر هذه المنطقة أشار رجال البوصا إلى أن هذه الأماكن كثيرة التعاريج والالتواء فى مجرى كولى كولى ، ويقولون إن الرحلة سوف تهون عندما نعبر هذا البحر الأخضر وهو تغيير يناسبنى تمامًا ، ولم يعد التجديف ممكنًا حيث ينحنى الرجال بكل ثقل على المجاديف ليدفعوا القارب بكل قوة عبر هذه الحشائش التى تتفرق أمام القارب ولم تعد بعد فوق المياه ، وكانت أشجار الزنبق تزين المكان بألوانها الصفراء والبيضاء .

وليس من الإنصاف وسط هذه الصور الباهتة ألا نجد ساعات من المرح التى نسيت أن أحكى عنها فى هذه الليالى على نهر النيجر ، كما

إن لحظات الغروب على النهر تعد من أمتع أوقات الحياة ، حيث تكثر القوارب بالقرب من القرى لإحضار الفواكه من الحقول ، ويهرع السكان لإحضارها للأسواق ، وخلف هذه المناطق الهادئة تسبح حيوانات فرس النهر التى تلعب بحرية فى النهر حتى قدوم الليل ، ثم تأتى إلى الشاطئ بحثًا عن الغذاء ، كما أن الأشجار الضخمة على شواطئ النهر تصبح بيضاء اللون بسبب انتشار حيوانات العقاب وكأنها مغطاة بالثلج .

لقد وصلت الآن إلى قريةٍ ، وفرشت الملاءة على بعض الحشائش بالقرب من شاطئ النهر ، وكان الطعام يعد لى بشكل منتظم ، وكان الأطفال يحضرون لى وكلهم شغف لرؤية الرجل الأبيض وهم يتقدمون شاعرين بشيء من الخوف الذى يحسه الزنجى تجاه الرجل الأبيض ، وكنت أغريهم ببعض الحلوى والسكر ، وبعد ذلك يحضر رجال القرية البارزون ويقدمون التحية ويقدمون الهدايا من اللبن والبيض والدواجن ، وبعد تقديم واجب الضيافة أقدم لهم بعض الأشياء الغالية مثل التبغ والملح .

وعندما يحل الظلام تُشعل النيران ويحضر الرجال الغليون ومواد النشوق وبعضًا من جوز الكولا ، ويبدأ الحوار والدردشة ، وحيث إننى استمتع بالمناظر الجميلة طوال النهار فإن الليل يكشف لى الكثير عن أفكار وروح هذه الأوطان وتاريخها والكثير من الأشياء التى أراها وتحتاج إلى شرح ، وفوق كل شيء كنت أستمتع بسماع القصص التقليدية عن أول ظهور للرجل الأبيض فى هذه الأجزاء ، وكان

"منجوبارك" أول رحالة أوروبى يرتاد النيجر ، ولابد أن نتذكره بكل احترام، وكنت أسمع من حين لآخر ما بين مدينة نيامينا Nyamina وكابارا Khalara عن بونس با Bonci Ba (صاحب اللحية الكبرى) وهو اسم أطلقته عليه القبائل النيجرية ، لكنى لم أجد أثراً لرحالتنا رينيه كاليه Rene حتى فى تمبكت نفسها ، كما أن رحلة بارث التى لم تتم فى هذه المناطق معروفة بين السكان الذين شاهدوه أو سمعوا عنه فى تمبكت ، وكان الرجال ذوُ الجباه المجعدة والشعر الأبيض هم أفضل المؤرخين بالنسبة لى حيث يعيدون الحديث عن ذكريات الماضى ورخائه والتجارة الكبرى فى وادى النيجر .

لقد حكوا لى عن الحروب المدمرة والغزاة الجبابرة فى القرن الحالى، وتحدثوا عن الشيخ أحمدو ملك الفولانى العظيم الذى حوّل رخاء هذه المناطق إلى البؤس والدمار(٢) .

لقد كانت تمبكت هى القضية الأساسية لكل تساؤلاتى ، إنها مقر ذكرياتهم فى فترة الشباب ، وكانوا يتحدثون عنها بكل حماس وسخرية، بل والضحك حول هذه الذكريات المرحة ، هذا بالإضافة إلى الذكريات الواضحة عن جمال نساء المدينة .

وفى قرى "البوصا" يشكل النيجر محور حديثنا حيث كانوا يقصون علىّ الأساطير وحكايات العمالقة ، فعلى حافة بحيرة ديبو Debo أخبرونى عن كنز من الذهب مدفون وسط التلال والتى قام رينيه كاليه

بتنصير اسمه وأطلق عليه اسم مونت سانت شارلز Mont st Charles والذى يسمونه هم مونت سوربا Mount Sorba ، ولم يتم الكشف عن الكنز حتى يومنا هذا ، كما أنهم يشيرون إلى مدينة كبيرة تقع على بحيرة تسمى جيودو Guido وهى مركز لإمبراطورية قوية اختفت مع عاصمتها .

وأخيراً فإن النيجر بهذه الضخامة يضم الكثير من القراصنة الذين يجدون المأوى لهم فى سيبى Sibi وهى قرية كبيرة على تل مرتفع على النيجر الأسود Black Niger حيث تمر عليها الآن القوارب المحملة بمنتجات دولة ماسينا وفارينتكا Farinanka وكان زعيم القراصنة – وهو القاضى على – قد راودته فكرة مد سلسلة حديدية عبر النهر لكى يمنع هروب هذه القوارب التى يقوم بسلبها حسب هواه .

أما سكان بوصا – الذين يعيشون على بعد مسافة ثمانمائة ميل من الساحل – فإنهم لا يعرفون شيئًا عن البحر أو أى جزء من مخارجه، والسؤال حول شكل النهر فيما وراء المناطق التى يعرفونها لا يهمهم كثيراً ، ولقد حاولت فى بعض المرات فى أثناء حديثى أن أثير عقولهم حول هذه النقطة ، وبعد أن حاولت فى أحد الأحياء القبض على أحد رجال البوصا الأذكياء ، وطلبت أن يعدد لى المدن التى يعرفها أو التى سمع عنها فيما وراء النيجر، أشار إلى سارافارا وكابرا وجاو ثم توقف، حسنًا وماذا بعد ذلك ؟ ما شكل النهر وما مصيره؟ عاد وفكر وقال : "فيما وراء ذلك يقوم السمك بابتلاع هذه الأشياء" .

وعندما وجدت قرية غنية بالمعلومات والقدرة على سردها توقفت لكى أجدد الحديث ، وعموماً كنت ألجأ إلى النهر ليلاً لاستنشاق الهواء المنعش المفيد هناك . وعلى بعد مسافة كانت النيران المشتعلة على حافة النهر العظيم توحى بحفلات الأهالى ، وعندما يقترب الإنسان منها يسمع أصوات الطبول ، والتصفيق بالأيدى الذى يصاحب هذه الأعمال ، وفى أماكن أخرى كان الرعى فى الحقول المهجورة ، وكانت أصوات فرس النهر تزعجنا ، وفى شهر مارس كانت الحرائق الكبرى تغطى الشواطئ ، إنها طريقة الرجل الأسود فى تنظيف وإعداد حقوله قبل فترة بذر البذور حيث يدمر الحشائش الطويلة والأشجار الطفيلية بهذه الطريقة ، فضلاً عن تسميد التربة ببقايا هذه الأشجار والأعشاب ، وكانت هذه النيران تثير الحيوانات التى تصيح من داخل عرينها .

وبهذه الطريقة تجولت كثيراً بحريتى الكاملة حتى إن زملائى من أهل بوصا بخبرتهم اضطروا إلى الاعتراف بأنهم كانوا مسرورين جداً بكل هذه الملذات التى تتخللها أمراض مفاجئة أو هجوم غير مفاجئ ، وكنت أبحث عن بعض خيوط من تاريخ العالم فى نهاية رحلتى عندما نصل إلى تمبكت وجنى ، ألست إذن على حق عندما أقول إن قاربى كان شيئًا متكاملاً ؟

الفصل الثالث

وادى النيجر

تؤكد تمبكت القديمة المشهورة بتجارتها المزدهرة وعظمتها كمدينة غنية وقوية أن المناطق المحيطة بها كانت خصبة إلى درجة ملحوظة ولا يمكن أن تكون قد حصلت على هذه الشهرة بشكل غير حقيقى ، إن التاريخ لا يمكن أن يقدم خطأ يستمر فى خداع العالم خلال أربعة أو خمسة قرون .

إن الجغرافى وهو يجلس فى مكتبه بين خريطة حديثة لأفريقيا وأعمال البكرى وكادامستو **Ca da Mosto** ودى بارو **De Baros** وليون الأفريقى **Leon the African** ، فإن هؤلاء الرحالة يعللون ذلك كالآتى: مع وجود الرمال فى الشمال الشرقى والغرب من السوق الضخمة من تمبكت التى تقع على حافة (أعتاب) الصحراء ، فإن الرمال لم تكن هى التى عجلت بالحركة الضخمة فيها ، وعلى هذا فلكى تمكن تمبكت من القيام بالدور الذى كانت تلعبه فإننا نتوقع أن نجد منطقة واسعة ناحية الجنوب تمتاز بالخصوبة كما كانت تسبح فى بحر من الرمال . إننا يجب

أن نتوقع هذا الامتداد من الأرض الواسعة التى زودت وحافظت على التجارة عدة قرون حيث إنها زودت الأسواق المختلفة فى مراكش وتوات وطرابلس ، فضلاً عن مختلف سكان البدو فى الصحراء .

فهل تحتوى هذه المناطق الخصبة التى تم اكتشافها بمنطق القوة مثلما يتم كشف نجوم معينة من خلال حسابات رياضية ؟ إن العمل فى تمبكت سوف يجعل من السهل أن نؤكد هذا الرأى وذلك بفتح طرق التجارة المتاحة ليس فقط للرحالة الذين يعبرون هذه المناطق – وهم منهكون تمامًا وتحت رحمة المرشدين – لكنها أيضا متاحة للمستكشفين الذين يسعون لجمع معلومات كاملة بكل سهولة .

إن المنطقة الواقعة جنوب تمبكت تسمى السودان أو تسمى وادى بوكلرا النيجر Buckler of the Niger وهى منطقة واسعة تصل إلى ٢٥٠٠ ميل وتقع بجوار أوسع الأنهار فى العالم .

إن مصر قد وصفها هيرودوت Herodotus بأنها "هبة النيل" وما قاله هيرودوت عن مصر ربما ينطبق بالصدق نفسه على السودان .

إن القائد العربى عمرو بن العاص الذى استولى على مصر فى القرن السابع يُعطى لها وصفًا دقيقًا وكاملاً فى خطاب إلى سيده الخليفة عمر بن الخطاب :

« يا أمير المؤمنين ، تصور أرضًا قاحلة وأرضًا مثمرة ، هذه هى مصر ، نهر فياض ينساب عبرها . إن ارتفاع وانخفاض مياهه بانتظام

مثل مجرى الشمس والقمر ، ففى وقت محدد تأتى كل ينابيع الكون لتقدم التحية لملك الأنهار ، إنها تجعل مياهه تفيض وتخرج من قاعه تُغطى سطح مصر بالطمى الوفير ، وعندما تنحسر المياه ؛ فإنه يخصب التربة ويعود النهر الهادئ إلى المستوى الذى أراده الله حتى يمكن جمع ثمار الكنوز التى يخفيها فى باطن الأرض ، وهكذا يبذر السكان - ببركة الله - البذور فى باطن الأرض التى تنمو وتزدهر بفضل الله الذى ينضج هذه المحاصيل ، إن هذه المحاصيل الوفيرة يعقبها جدب مفاجئ، وهكذا يا أمير المؤمنين تقدم مصر بشكل منتظم صوراً من الصحراء الرملية القاحلة ثم سهلاً فضيًا وأرضًا خصبة خضراء ومراعى جميلة ، وحقلاً للقمح الذهبى . إن الله يبارك هذه المعجزات» .

إن ما يقدمه النيل لمصر ، يقوم به النيجر للسودان - ففى خلال عام واحد تشهد هذه الصور المتعارضة والمثيرة ، والزراعة سهلة مثلما يحدث فى مصر ، وتمر بالارتفاع والانخفاض كالنيل - ولكن النيجر يظهر الكثير من المواهب أكثر من أخيه فى شرق أفريقيا ، ولآلاف السنين تعاونت يد الإنسان مع النهر وانساب الاثنان بين سلسلتين من الجبال ، وحمل النيل الخصوبة لآلاف الأقدام ، بينما حمل النيجر - بسبب واديه الواسع - الخير لأكثر من ستين ميلاً دون أى تدخل من الإنسان .

وفى الماضى ظهرت عظمة تمبكت وتجارتها المزدهرة التى يمكن أن نفسرها كيفما نجد عظمة على أعتاب مصر أخرى تساويها فى الطبيعة

لكنها أعظم منها ، إن المساوئ لاتكمن فى أربعة أو خمسة آلاف سنة من الحضارة ولا فى الوقوف فى مدخل أوروبا مثلما يحدث فى وادى النيل .

إن نهر النيجر ينبع من سلسلة جبلية تمتد من بلاد سوليما Sulima فى الشمال إلى كونو Kono فى الجنوب ويمتد إلى كيسى Kissi فى الشرق ، وعلى عكس الرأى المألوف عمومًا فإن هذه السلسلة ليست بالمعنى الجيولوجى تابعة لتلال فوتاجالون التى تعد مركزًا لحركة كبرى تندفع أجزاؤها الفرعية فيما وراء منابع النيجر ، وفى الحقيقة تشكل سلسلة منابع النيجر أو سلسلة كورانكو Kauranko المركز الحقيقى لهذا الارتفاع الذى يصل فى بلاد نيجايا Negaya وكونو Kono إلى ٣٨٤٠ قدما (منبع النيجر) ويصل إلى ٤٩٢٠ قدما فى الجنوب ، بينما لا يصل الإرتفاع المتوسط فى فوتاجالون أكثر من ٢٦٢٥ قدما ، أما القمم الرئيسية لسلسلة كورانكو Kouranko فهى مونت بوندى Mount Bon-di ومونت ما Mount Ma ومونت كينيا Mount Keina ومونت كونكو كوراو Konko kou rawa واثنتان من الكولاز Koules واثنتان من سولوس Soullous ومونت دارو (Mount Darou) والبانكا Banka والسوفو Soofoa والتنكى Tinka والأووالو Owaloo وكورا Kora والتومبا Toumba والأربعة الأخيرة توجد فى بلاد كون Kono .

ويوجد نهران فى بلاد كيسى Kissi هما : باليكو Paliko والتمبى Tembi وينسابان ناحية الشمال ، ويواصلان السير بموازاة مجرى

النيجر ويلتقيان به عند لايا Laya ، ويتحدان فى نهر واحد ليشكلا النيجر أو جوليبا Joliba ويعتبر التمبى Tembi أهم هذين النهرين ويسمونه باسم أبو الجوليبا Father of Joliba وهو ينبع من تل صغير فى شرق جبال كوكونات Kokonate وليس بعيداً عن قاعدة جبل دارو Darou ، ومن الناحية الطوبغرافية فإن التل الذى ينبع منه نهر التمبى ملحوظ تماماً وحيث إنه عارٍ فى قمته إلا أن الخضرة تغطى الجزء الأسفل الذى يزداد كثافة كلما اتجهنا نحو مجرى الوادى .

وعلى بعد مائة قدم من القمة توجد قاعدة بسيطة حوالى ثلاث أقدام فى قطرها وعمقها قدم وهى مملوءة بالمياه الصافية ، ويسميها الأهالى تمبى كونتو Tembi Kuntu أو رأس تمبى Head of Tembi ، وعلى بعد مائة قدم أخرى يوجد حوض أوسع ولا يمكن اكتشافه بسبب كثافة النباتات الخضراء ذات الأوراق كثيرة الأشواك .

وتنساب مياه هذا النهر عبر غابة ، ويظهر مرة ثانية على بعد ٦٥٦ قدماً أسفل الوادى ، وعند هذه النقطة يصبح التمبى مجرد نهير صغير أى حوالى ٥٧٨ ياردة من المنبع ، ويصبح عند قرية تمبى كونتو Tembi Kuntu مجرد جدول هادئ تزداد سرعته فى الحجم والعمق كلما انساب نحو الشمال .

وعند مدينة نيليا Nelia التى تبعد ثمانية أميال من المنبع يصبح عرضه ثمانين قدماً ، وعند فارانا التى تبعد اثنين وستين ميلاً من المنبع يصل عرضه إلى ٨٢٣ قدماً .

إن الغابة التى ينبع منها نهر تمبى تُعد غابة مقدسة وهناك الكثير من الأساطير التى تحكى حولها ، فضلاً عن الخرافات التى تُثار عن أن أى شخص ينطق كلمة عند الاقتراب منها يموت فى الحال ، كما أن مياهها حسب الاعتقاد تعبر عن قضاء الله ، وإذا اتهم شخص ببعض الجرائم التى ينكرها فإنه يُجبر على شرب الماء منها ، وإذا كان مذنبًا فإن هذا يظهر من آلام فى المعدة يتبعها موت عاجل .

ويقول الوطنيون إنه فى الوسط من نهر تمبى توجد جزيرة صخرية، وهذه الجزيرة مقر روح الربيع The Spirit of the Spring وهى مسكن الكاهن الأعلى الذى يمثل إله الإخلاق ، ويتخذ مكانه هناك من خلال الدخول فى الماء والاقتراب بشكل خفى ، وحسب الأسطورة يوجد مسكن ذهبى فى قاع البحيرة ، ويعترف الأبناء الصغار بأنهم سمعوا الضوضاء التى يصدرها فى فتح وإغلاق الأبواب فى منازل القوى العليا ، ويستشيرون هذا الكاهن قبل الدخول فى حرب أو أى عمل مهم ، كما أن كل الرعية تستشيرهم فى كل الأمور ذات الأهمية ، وتعد ملكة الربيع عملية ، وتظهر لهم للإشراف على الأمور العاجلة من خلال وسيلة التضحية .

وليست هذه المراسم ضارة ، وتقدم الأضاحى من الثيران فقط ولا توجد ضحايا بشرية مثلما يحدث فى مملكة داهومى المجاورة ، ومع ذلك يجب أن يكون الثور صغير السن ، لأن الروح لحم طرى ، وعندما يذبح الحيوان يتم التخلص من أحسن جزء منه وغالبًا ما يذهب

إلى وزراء الروح The Spiri وعائلاتهم ، أما الرأس والأرجل فتترك بجوار الجلد ، وتربط وتلقى فى النهر عندما تنساب المياه عند مكان التضحية .

وتقع منطقة الكيسى Kissi عند خط العرض التاسع حيث تتصل فروع جبال فوتاجالون بسلسلة كونج Kong ، ويوجد هناك منبع النيجر وهى أرض مساقط المياه الكثيرة .

وابتداءً من فبراير حتى يولية تسقط المياه بكميات كبيرة ، وتعترض السلسلة الجبلية مجموعة كبيرة من النهيرات والأنهار والجداول التى تحمل مياه الفيضانات ، وعند كورو سار ورغم أن النهر يتلقى فقط ثلاثة فروع مهمة – إلا أنه حصل على قاعدة قوية ، وكلما تقدم النهر يزداد اتساعه وتزداد المياه وتفيض بكثرة ، كما تزداد قوة نهر النيجر عندما يعبر هذه المنطقة ، وهو يتجه نحو نيامينا وسيجو Segu وسانساندج Sansanding .

وبعد أن يعبر ديافارابا يصل النهر فى شهر سبتمبر فى فيضانه إلى أعلى مستوى عند موبتى Mopti حيث يتصل بأعظم فروعه بانى Bani الذى يحمل كمية ضخمة من المياه ، وبهذه الطريقة تزداد قوة النهر وتكثر مياهه لدرجة أن قاعه لا يتحمل هذه الكميات الضخمة ، ويصير النهر ضيقا جداً وتفيض جوانبه التى تسعى لأى منفذ للخروج من الأمام أو الخلف أو الجوانب ، وهنا يظهر اختناق النيجر بالمياه .

وبعد ذلك ينطلق النهر فوق كل المنطقة المنخفضة الواقعة ما بين ديافارابا ، وتمبكت حيث تتم تغطيتها بالماء حتى تصبح الصحراء المجدبة واحدة من أغنى المناطق فى العالم ، ولعدة قرون زود النهر هذه المناطق بالتربة الغنية وحولها من صحراء قاحلة إلى منطقة خير وغير ، ووجدنا هناك ثلاث دلتات وليست دلتا واحدة مثلما هو الوضع فى مصر.

وتقع الدلتا الأولى ابتداءً من ديافاراباو حتى القرب من بحيرة ديبو Debo ، وعلى الضفة اليسرى بعد ظهور مخرجين يشكل النيجر مجموعة من المستنقعات فى دياركا Diarka وبورجو Bourgoo ، أما الفرع الرئيسى فينساب فى اتجاهٍ موازٍ للنهر ، وينساب مع فرعيه إلى بحيرة ديبو ، ولا تزال مياهه وفيرة رغم هذا التوسع لقوته إلى أن تجتمع الفروع الثلاثة مع بعضها البعض فى مجرى طبيعى ، وينضم نهر بانى مع النيجر بالطريقة نفسها على الضفة اليمنى .

وهكذا تشكل نظام دقيق ومتكامل للرى لا يحتاج للأيدى البشرية لكى تتدخل فيه ، وتمتد الأرض الخصبة عبر آلاف الأميال المربعة ، ويحدث ارتفاع وانخفاض هذه المياه بانتظام مثلما يحدث فى النيل الذى يعبر مساحات ومسافات طويلة .

وعند مدينة موبتى Mopti مثلاً تستطيع أن تحصى فى شهر سبتمبر حوالى ثمانين ميلاً من الشرق إلى الغرب وقد غمرتها المياه لعمق ثمانى أو تسع أقدام ، وفى هذه المنطقة تقع دول مثل سانا Sana ،

وبورجو Bourgoo وماسينا Massina ، وجنرى Jenneri ، وكانورى Kumari .

وتمتد الدلتا الثانية من بحيرة ديبو Debo إلى الكول هادج El Qual Hadj .

وهنا مرة ثانية ينقسم النيجر إلى ثلاثة فروع أقلها أهمية فرع كولى كولى الذى ينبع جنوب بحيرة ديبو Debo ثم باراعيس Barra Issa ، النيجر الأسود وعيس بر Issa Ber أوالنيجر الأبيض شمال البحيرة ، ويعبر فرع كولى بحيرة كورينزا Lake korienza ويتصل بالنيجر الأسود عند سارافارا Sarafara ويتحد الأخير مع النيجر الأبيض بالقرب من العقال هادج .

ومثل بانى والنيجر ، ومستنقعات دياركا وبورجو تتصل هذه الفروع مع بعضها البعض من خلال فروع أصغر ملتوية ، وفى كل مكان نجد نظام الرى نفسه الذى يوفر الخصوبة نفسها ، وليس هذا كل شىء ، فعلى الجانب الأيسر فى أقصى مناطق غمر المياه ، يجد النهر نمطًا جديداً من عطاياه من خلال سلسلة من البحيرات التى وصل عددها إلى اثنتى عشرة بحيرة تفصلها سلسلة من التلال ، وفيما يلى حصر بأسماء إحدى عشرة بحيرة ابتداءً من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى :

الكابورا Kabura وتندا Tenda وتاكادجى Takadj وساناكى Sanaki وهورو Horo وفاتى Fati وجورو Goro ودونا Douna وتيلا Tela وأخيراً فاجويبنا Faguibina .

وتمتلئ هذه البحيرات بمياه الفيضان عبر مجموعة من الأخاديد العميقة الواسعة مثل بحيرات فاتى وهورو وتاكادجى وهى مفتوحة للتجارة فى أى وقت من السنة ، وبعض هذه البحيرات صافى المياه لبعض شهور السنة (أكتوبر حتى مارس) ، ثم تعترضها الأعشاب والحشائش التى تعترض سير القوارب ، وتنساب مياه هذه البحيرات فى الأرض الخصبة ، وبعضها تطمره المياه لفترة من الوقت ثم تنحسر عنها المياه .

أما بحيرات تيلا وفاجوينى ودونا فتشكل انخفاضات تصل إلى عمق ثلاث وثلاثين قدمًا أسفل المستوى العادى لنهر النيجر ، وتغذيها أخاديد مختلفة ، وعند فترة الفيضان تستطيع أن تحفر فى الأرض قليلاً لتجد المياه وقد ظهرت على السطح ما بين النهر والبحيرات .

وتشكل هذه المنظومة من البحيرات نظامًا من المستودعات لكميات ثابتة من الماء الذى ينساب فى النيجر واتحاده مع نهر بانى **Bani** وهما يحولان جزءًا من مياههما من خلال هذه الأخاديد والفروع فى موسم الفيضان .

أما الدلتا الثانية فإنها تضم دولاً مثل جيومبالا **Guimbalg** وفاريمانكا **Farimanka** وأوساكاتاوا **Aoussa katawa** وسينوكوروكو وفيتوكا وسوبوندو سابما .

وتشغل الدلتا الثالثة الوادى الممتد من العقال هادج إلى كابارا وجزءًا من تمبكت ، وبعد العقال هادج يتابع النهر سيره فى مجرى واحد

حـتى المصب ، وعلى الضـفـة اليـمنى توجـد سلسلة من البـحـيـرات ومـستنقـعـات جيوكى وكونا الممتدة على المنطقة الشمالية الشرقية من الوادى ، ومن سـوء الحظ تعـرف هذه البـحـيـرات بالاسم فـقط ، ولكن حسب المعلومات المؤكدة وصل عددها ثلاثًا وعشرين بحيرة ، ومن بينها الكانجـارا Kangara وديناجـويرا Dinaguira والدويما Doumba واللابو Labou والهونجنتا Hongonta والفاتا والتاهيتات Tahetat وتيبورونجا Tibouranguina والدو Do والجاكورا Ga koura والتونجيرال Tengueral والتيـتولاوينا Titoula wina والأجوابابا والجارو والهاربيونحا والكيربا والتيونورامينا والدادجى والفانكورا وأخيراً مارمار Marmar .

وتشكل هذه الدلتا مناطق كـيـسـو وكـيلى وسـورايامـو وأريبندى والجورما .

ولسبب هذه العوائق والانكسـارات والفروع الصـغيرة والواسـعة لم يستطـع نـهر النيجر الوصول إلى مدينة تمبكت حتى شهر يناير ، ونظراً لوجـود رمـال الصـحـراء فإن النـهـر يتجـه بقـوة ناحيـة الشـرق ، وتمتد الكثبان الرملية على شـواطئـه الشمـالية لتمـنع النهـر مـن التـوسع فى عرضه. ومع ذلك فإن الشاطئ الأيمن عرضةٌ للإغراق بالمياه ، وتظهر قوة نـهر النيـجر فى خصـوبة التربة وظـهور بحـيرات لرى هـذه المناطق بالوسائل العادية ، وهذا يعطى منطقة بامبا شهرة واسعة فى ثرواتها . وفجـأة تظهر فى النهـر ناحيـة الشـرق سلسلة جرانيتية فـى منـطـقة تاوسى Tasoay حـيث يضـيق مـجـراه فـتـرة ، وبعـدها يرهق من هذه

الجوانب الصخرية ثم يشق طريقه ناحية الجنوب . ومرة ثانية أثبتت الضفة اليسرى أنها غير مضيافة ، بينما يواصل النيجر تغيرات مدهشة على الضفة اليمنى حيث يتعثر فى سيره حتى منتصف يوليو عندما يصل إلى مدينة ساى say حيث تكمل مياهه ويصل فى النهاية إلى مصبه فى شهر سبتمبر ، وهكذا يستغرق النهر عامًا كاملاً حاملاً هذه الكميات الضخمة من المياه من مناطق أعالى النيجر حتى يصل إلى المحيط الأطلنطى .

ولقد شاهدنا الطبيعة وهى لا تترك شيئًا لكى تجعل هذه الأراضى الجنوبية مناسبة للتجارة خاصةً فى تمبكت ، ولقد وصلت تربية الماشية والزراعة ذروتها فى هذه المنطقة ، ويتخيل المرء مقدار الثروة الضخمة التى يمكن أن نجنيها من هذه المنطقة العجيبة .

الفصل الرابع

مدن النيجر

"الاستعداد لاستقبال الفرسان"

صدر هذا النداء بصوت مدوٍّ، وتحريك الأذرع ، ووقع قوى للأقدام. إن هذا هو أول الأصوات التى سمعتها عندما استيقظت فى أحد مواقع المدافع فى قلعة باماكو Bammaku وسألت الخادم، إنه شىء مدهش ، وكان يجلس القرفصاء فى أحد أركان الغرفة ينتظر نهوضى من النوم ، وقال "إنهم الجنود يتدربون" ، ونظرت من أحد ثقوب الباب فوجدت مجموعة من الزنوج يمسكون الحراب .

لقد كانت قلعة باماكو أول مكان نشاهده فى طريقنا ، وتحتوى على معدات عسكرية وخاصةً أدوات حربية ، وكانت الظروف الصعبة التى تم تشييدها فيها تعكس بشكل غريب هيكل البناء ، فهى ببساطة على شكل مستطيل ولا يوجد بها أى أثر للبناء الحديث لقلاع الفرسان ، وكان لابد من البناء فى عام ١٨٨٣ لحماية أنفسهم وتوفير الأشياء الضرورية ، وكان الزعيم ساموری توری يسيطر على المنطقة عندما قام الكولونيل بورجنيس دسبوردز Borgnis Desbordes برفع أول علم فرنسى على نهر النيجر[٣] .

وكانت فرقة صغيرة من المشاة قد تقدمت سراً واحتلت الموقع ، بينما كان البناءون يقيمون هذه القلعة بسرعة ، وتزايد عدد السود ، بينما كان ساموری نفسه يقود هذا الاشتباك الحاسم والأخير ، ونظراً لنفاد الذخيرة ، فقد شارك الكولونيل ورجاله فى هذه المعركة ، وأسرع بورجنيس لقمع هذا الهجوم الأخير ، وقال لرفاقه : من الأفضل الإبقاء على آخر الطلقات فى المسدسات ، وعندما نصل إلى النهاية سيكون الوقت مناسباً للحديث عن أنفسنا .

ولم تكن باماكو مركزاً إدارياً صرفاً مثل قلعة بافولابا بادوميا وكيتا، ولا يحتاج هذا الجزء من المنطقة لاستعراض القوة وهو ليس أكثر أمنًا من المناطق الأخرى التى مررت بها ، ولكن لأنها تقع فى قلب المستعمرة ، وتشكل نقطة إستراتيجية مهمة فإنه يمكن إرسال تعزيزات لأى جزء يتعرض للتهديد المؤقت .

لقد كان الاحتياط والحرص واجبين إذا عرفنا كم نبعد عن أسيادنا فى هذا الوطن الواسع الذى هو أوسع عدة مرات من فرنسا ، ويحتوى على ما بين عشرة أو خمسة عشر مليونًا من البشر ، إننا نمتلك أسطولاً من قاربين حربيين وبعض السفن المسلحة على النيجر تحت قيادة قائد بحرى ، ويضم بحارة من الزنوج مثل بقية القوات فى الحامية التى تحرس الداخل ، وفيما عدا بعض الجنود فى مناطق متفرقة لايوجد رجل أبيض واحد فى المنطقة ، فالضباط وصغار الجنود من الأوروبيين وبعض السود، ويشغل البيض هذه المناطق الواسعة من السودان وهم

عبارة عن ستمائة أوروبى بما فيهم الضباط والأطباء والأطباء البيطريون والموظفون الرسميون وعمال التلغراف ، وأربعة ملايين من الزنوج مسجلين كقوات مشاة وفرسان وحمالين .

وعندما ندرك أننا قد احتللنا هذا القطر فى السنوات العشر الأخيرة وأنه يزيد عن مساحة الجزائر بأربع مرات والذى يتطلب ٤٠,٠٠٠ جندى لحفظ النظام به - فسنجد أنه من الضرورى تسجيل وتدبير قوة كبيرة للسودان (٤)

وتقع مدينة باماكو بين القلعة والنهر وهى ليست على الشاطئ مباشرةً ، ولكن على بعد مسافة ربع ميل تقريبًا ، أى على حدود المنطقة المطمورة بالماء ، ومنظرها رائع جدا ، ويرجع هذا إلى جهود وذكاء الإداريين الذين يشرفون عليها ، فلقد قاموا بدورهم خير قيام وبأحدث الوسائل الحضارية ، وشقوا الطرق التى أحاطوها بالأشجار التى تُهيئ المأوى الممتاز للمارة .

وقد أقاموا ميادين واسعة تزدان بالأشجار الضخمة ، كما يوجد مبنى واسع يضم سوق الأهالى ، ولا تبعد عنه سوى مسافة قليلة حيث يوجد متجران للبضائع الأوروبية ، ويقوم أحد الزنوج المسلحين بحربة قديمة بدور رجل البوليس للإشراف على النظام فى السوق ، فضلاً عن الاعتناء بممتلكات المدينة ، لكن هذه العمليات من التحديث الأوروبى لا تنال رضا السكان ، وفى كل عام يزداد اتساع المدينة ، وتظهر طرق

جديدة ، بالإضافة إلى خطوات سريعة من أجل استعادة ماضيها ورخائها القديم الذى دمره الحاج عمر الفوتى التكرورى وسامورى تورى نتيجة أحقادهما عليها .(٥)

إن السهل الواسع المحيط بالمدينة ليس جذابًا ولا لافتا للنظر؛ لأن جزءًا منه مغمور بالمياه أو تشكله نهيرات صغيرة ولا داعى للحديث عن خصوبته الواضحة ، وسوف أشرح أخيرًا ثلاثة أنواع من الأشجار التى تنمو بكثرة فى الحقول، وكذا الشجيرات التى تُغطى الحواف الصخرية لهذه المنطقة .

أهم هذه الأشجار الثلاث شجرة الكاريتا أو شجرة الزبدة ، وتتميز من خلال أوراقها الواضحة التى تشبه الكمثرى ، كما أن الجذع واللحاء سميك مثل أوراق شجرة الكستناء ، وتنمو أوراقها فى شكل قبة مخروطية ، وتتوسع فى اتجاهات عديدة ، ومنظر هذه الشجرة نادر لأن الأهالى لا يحاولون الحفاظ عليها ولا يزرعونها أو يساعدون على نموها ، لكنهم يجمعون ثمارها بنهم شديد ، ولا أعرف أى شجرة فى كل السودان الغربى أكثر قيمة ، وتؤدى خدمات للأوروبيين وللسكان ، مثل هذه الشجرة .

ولقد لفت انتباهى – وأنا فى قرية ديون **Dion** فى نهاية رحلة امتدت حتى حلول الليل ، وعند وصولنا للقرية التى عزمنا قضاء الليلة بها – وجود رائحة عطرة تشبه الشيكولاتة ، ولم يكن هناك أى رجل أبيض فى

المكان، من أين جاءت هذه الرائحة الطيبة؟ وسرت خلف الرائحة حتى وصلت إلى إناء واسع من الطين حيث وجدت كتلة بنية اللون تغلى ، وكانت هذه هى الكاريتا أو شجرة الزبدة ، وكانوا يقلون ثمارها للحصول على الزبدة ، وأما الرائحة الطيبة فإنها تتبخر فى الهواء ، وهذه الثمرة مغلفة بقشرة تشبه الخوخ فى طعمه ، وطعم الجوزة يشبه أشجار الكاكاو عندنا ولونها بنى أحمر ، ورغم أن السودانيين لا يحبون الشيكولاتة إلا أنهم يستفيدون منها كثيراً حيث يحصلون على مادة الزبدة فيها فى كل أنحاء السودان ، ولا يستخدمون أى مادة دهنية أخرى ، ولا تزال رائحة الكاريتا ذات قيمة عالية .

وسوف يكتشف الأوروبى مزايا كثيرة لهذه الشجرة حيث يستخرجون منها أنواعاً جديدة تدخل فى صناعات كثيرة . وفى المناطق المجاورة لأشجار الزبدة تنمو شجرة أخرى غريبة هى شجرة الناتا Nata أو شجرة الدقيق أو الطحين ، وهذا الدقيق يباع فى كل أسواق المنطقة ويوضع فى أكياس واسعة ولونه أصفر وهو غنى بالمواد السكرية مثل الذى يستعمله الأوروبيون فى صناعة الحلوى .

ومن الصعب أن نتحدث كثيراً عن الشجرة الثالثة الموجودة فى هذه الأجزاء وتسمى شجرة الجبن cheese ويستخرج من هذه الشجرة كبسولات بها خيوط طويلة تشبه الحرير وليس هذا هو النبات الوحيد الذى يقدم هذا الشىء المدهش ، حيث إننى شاهدت فى الدلتا الثانية للنيجر نباتًا ضخمًا يرتفع إلى طول الإنسان ويحمل زهرة تزودهم بالخيوط نفسها .

إن أهم السلع التى تصدرها باماكو إلى تمبكت هى الذهب وجوز الكولا والكاريتا (شجرة الزبدة) ، والجلود ، كما أنها ترسل الحبوب الوفيرة وغيرها من منتجات النهر حيث تسمح العلاقات المباشرة بقيام تجارة بين المدنيين .

وعلى بعد مسافة أسفل النيجر يعترض مجراه الحاجز الكبير السوتوبا Sotouba مكونًا واحداً من أجمل المناظر فى السودان ، وقد قمت بزيارته عند اندفاع مياهه ، ووجدت سلسلة من الصخور الملونة على الشاطئ الأيسر ، بينما تنحدر المياه بسرعة مكونة مجموعة من الرغاوى التى تمتد إلى أقصى البصر على الضفة اليمنى .

ويصبح ممر شلال سوتوبا مفيداً فقط عند ارتفاع المياه حيث تغطى الصخور النهر الذى يصبح ضخمًا وسريع الجريان بشكل خطير، وكان التيار سريعًا ، وهناك قارب من باماكو يصل إلى توليماندو Toulimandio وهى على مسافة خمسة وعشرين ميلاً ، يقطعها فى ثلاث ساعات ، وفى هذا المكان الأخير يُصبح مجرى النهر عاديًا ، وقد أقمنا ميناءً صغيراً للرحالة المتجهين إلى شمال السودان ذهابًا وإيابًا .

ولا توجد حامية بل مجرد مسكن على النمط الأوروبى مبنى من الصلصال الجاف ومسقف مثل الأكواخ الوطنية ، يرفرف عليه علم ذات ألوان ثلاثة ، ويوجد به جندى مدفعية وحامل البنادق ، وهى تعيد ذكريات الأوضاع فى مدينة ديوبابا ، ولكن بدلاً من التعامل مع القطارات كنظار المحطات ، فإن رجل المدفعية قبطان مسئول عن أسطول النقل .

ويعيش الرجلان وحولهما القرود ، وطيور غينيا والدواجن ، كما توجد مجموعة من فرسان النهر ، لكنها لا تقوم بالدور نفسه الذى يسمح باستئناسها ، وهناك شىء واحد يؤلم أبناء هذه المناطق ، أنهم لا يعملون من أجل الحصول على ثمار هذه الأرض الخصبة ، وكان تعليقهم أنهم يرسلون الحمقى إلى فرنسا لكى يتعلموا كيف يعملون .

وعلى بعد عشرة أميال من مدينة توليماندو أقمنا مكانًا للسفن على منطقة صخرية من النيجر وأسميناها كوليكورو .

وتنوعت أحجام هذه القوارب فى الشكل والقيادة ، وتدور هذه السفن ذهابًا وإيابًا فى النهر ، وكل المرشدين فى هذه القوارب من أهالى السنغال .

ويعمل الحدادون والنجارون والعمال فى هذه الأخشاب المتناثرة حول جذوع الأشجار الضخمة ، وتقوم الخيول والحيوانات الأخرى بنقل هذه الأخشاب وسط مظاهر المرح والضحك وصوت النشر .

ومع السير فى رحلتنا وصلنا إلى نيامينا وساساندنج حيث أحياء القطن وقد تم تخصيص مسافات ضخمة لزراعة هذا النبات المدهش الذى ينتج هذه الألياف القيمة من القطن ، والتى تصبغ بنبات النيلة الداكن حيث يكثر الطلب عليها فى السنغال ، وفى أسواق تمبكت وبين سكان الساحل الذين يفضلونها على المنسوجات الأوروبية .

وتقع نيامينا فى أقصى طرف جدول صغير على الشاطئ الأيسر للنيجر ، وهى مدينة لطيفة تضم أكثر من سوق ، حيث يتم تبادل المنتجات الغنية لدولة سارو Sarro ، ولا توجد بها قلعة أو حصن ولا حتى أوروبى واحد ، وحكومة المدينة فى يد رئيس وطنى .

وعلى العكس ، فإن مدينة سيجو - التى تقع على مسافة رحلة يومين عن شاطئ النهر - محصنة بشكل قوى لأنها ذات طبيعة قديمة ، ومنطقة سيطرة التوكولور ، وعاصمة دولة الحاج عمر الفوتى ، فضلاً عن أنها حصن قوى فى الوادى الأوسط للنيجر ، ومن ينظر إليها من النهر يجدها مدينة جذابة وبواباتها قوية وأسوارها الملتوية مثل ثنايا الشاشة ، وكانت هذه التحصينات القوية من إنتاج أول حاكم لها وهو ضابط مدفعية ، ويقطن بها مجموعة من الأوروبيين ، فضلاً عن مخازن الذخيرة والمؤن ، وإلى جانب هذا فإن مبانيها المعمارية تشبه قصور ملوك سيجو، حيث الزينات التى تغطى الحيطان المرتفعة العالية التى جعلت القصور شبيهة بالسجون ، وهى أنماط استوردوها من مساكن مدينة جنى Jenne ، وعندما نقترب من هذه المبانى نجد أنها تشبه الكاتدرائية الكبرى ، ومن سوء الحظ فإن الطوب المجفف فى الشمس والذى تم به البناء كان غير متناسق ، وفى كل موسم ممطر تتساقط بعض هذه الحوائط ، يا للأسف مرت مدة ولن يستطيع أولادنا مشاهدة هذه الأشياء الغريبة .

والمدينة مكتظة بالسكان ومزدحمة وتمتاز بالحيوية لكن داخلها لا يساير مظهرها الخارجى ، ومن المؤسف لم يجهد أى شخص نفسه

لتزيين الميادين مثل مدينة باماكو ، ولعل أهم مكان بها هو القصر الملكى، ولم يعد موجوداً منه سوى الأسوار ، كما أن الداخل قد تغير لكى يناسب احتياجاتنا ، ولا يوجد سوى قصر الحاج أحمدو بن الحاج عمر الذى قدم لرجال المدفعية نموذجًا لهذا الأثر الرائع ، أما بالنسبة لمسكن هذا الزنجى الغازى المشهور فقد وجد مركز بريد فى موقع هذا الأثر .

ويعد مركز البريد هذا آخر مركز ضمن أربعة عشر مركزًا فى كل السودان ، وبعد ذلك نجد مراكز من الدرجة الثانية حيث يوجد موظفون صغار لتسلم وتسليم الخطابات فى كل مدينة محتلة .

وفى كل أسبوعين تصل قافلة بريد فرنسية ، وترحل فى الوقت نفسه لتصل إلى داكار قبل أن تصل السفن الكبيرة إلى هناك ، ويتم تغليف هذه الرسائل فى أكياس ضد الماء ، وتمر عبر هذه الأقطار من خلال مجموعة من الحمالين الذين تنقلهم القوارب عبر النيجر بمعدل خمسة وثلاثين ميلاً فى اليوم .

وبالإضافة إلى ذلك يوجد بالسودان ١٨٦٠ ميلاً من خطوط التلغراف ، وتقع سيجو فى أقصى الطرف الشمالى ، وهى ذات قيمة عظيمة فى مستعمرة ناشئة ، ولا تكمن أهميتها فى أنها أداةٌ للمعلومات العامة بل إنها تعد كجريدة تقدم معلومات مهمة ، حيث تصل الصحف بعد عدة شهور وتصل عشرون كلمة من فرنسا للسنغال يوميًا ، وهذه الرسالة تضم ملخصًا للأحداث اليومية وترسلها إلى مدينة كايس ، ومن

هناك تنقل تلغرافيا من مكان لآخر عبر الدولة ، وبعد ذلك تنقل بالخطاب إلى أماكن ليس بها خط تلغراف وتتم كتابة هذه الملخصات وتلصق على أبواب المكاتب والحصون فى كل أنحاء القطر ، وبهذه الطريقة يعيش المستعمرون ويكونون على اتصال يوميًا مع الدولة الأم .

أما مدينة سانساندنج التى تبعد عن سيجو مسافة عشرين ساعة من النيجر فهى تقع مثل نيامينا Nyamina فى جدول على الضفة اليسرى، ولا يوجد بها جندى أو رجل أبيض وبالإضافة إلى الحكم والحماية ، فقد وضعنا شكلاً جديداً للحكم فى السودان ، وقد وضع هذا النظام الكولونيل أرستينارد وهو من أذكى الحكام الفرنسيين .

ومن بين الإصلاحات المهمة فى السنغال - والتى وضع لبناتها فيدهرب Fedherbe قدمت أفضل الخدمات - تأسيس مدرسة الرهبنة فى مدينة سانت لويس .

ويدرس أبناء الملوك والقواد والزعماء الرئيسيين فى سانجامبيا على النمط الأوروبى ، ويزودون بالأفكار والثقافة الحديثة وذلك حتى يشاركوا فى الجهود الفرنسية لبناء مستقبل هذه الدول الواسعة فى السودان .

وعندما يصل الأبناء إلى سن الرجولة فإنهم إما يساعدون آباءهم فى الحكم حيث يرثون الحكم، أو ينخرطون فى الخدمات السنغالية سواء أكانت مدنية أم عسكرية ، ويعمل البعض منهم فى القوات المسلحة ، كما

يشارك البعض الأخر فى الإدارة ومكاتب التلغراف بينما يشغل الكثيرون منهم الوظائف المهمة كمترجمين .

وبهذه الطريقة درس مادمبا ابن رئيس والو Walo وهو يتمتع بسلطة مهمة فى المسائل الدينية والسياسية ، حيث التحق بقسم التلغراف ، فى مكان ما ، فى حوالى عام ١٨٦٨ ، وأدى خدمات جليلة لمدة عشرين عاماً لصالح الاحتلال الفرنسى ، ورافق الكولونيل بورجنيس وسيورذس والكولونيل أرشينارد فى الحملات المتجهة إلى أعالى النيجر ، وقد حاول أرشينارد مكافأته على إخلاصه بتأسيس مملكة صغيرة له على الضفة اليسرى للنهر ، وكانت عاصمتها سانساندنج .

إن فكرة حكم الزنوج فى السودان من خلال زنجى سنغالى تعلم ودرس حسب أفكارنا إنما تُعد ضربة قوية ؛ لأنها مثال حيوى ويومى لهذه الشعوب ، وتشجيعاً لهم على تقبل التعليم الذى نقدمه لهم .

وعندما نتذكر الوسائل البسيطة والمتواضعة التى تم بها احتلال السودان – فإننا نعترف بأهمية هذه الدفعة الخلفية للتعليم .

وعندما يجد القادة فى القلاع المجاورة فرصتهم لجمع كميات من الحبوب وتجنيد المحاربين وجمع الحمالين – فإنهم يعتمدون على ماديمبا مثلما يعتمدون على أى رجل أوروبى ، وأى رجل أبيض يمر عبر ساساندنج مهما كانت وظيفته يجد ترحيباً من صديق ، وإذا طلبت منه المساعدة بمجرد أن تراه لأول مرة ، يقوم ماديمبا بفعل المستحيل لخدمته .

ورغم أنه مسلم ، فإنه يقدر الفوائد التى تلقاها من التعليم الأوروبى، لدرجة أنه أرسل أبناءه إلى المدرسة المسيحية فى سانت لويس ويستمع إلى نظام التعليم بها، وظل على اتصال بأخبار السياسات الفرنسية .

ولقد لفت انتباهه تلك الحركة الاستعمارية ، وشجعها بشكل عملى فى مملكته ، وأرسل إلى باريس يطلب مختلف البذور ، ويحاول إدخال محاصيل جديدة فى مملكته .

وكان يمتلك حديقة للتجارب على ضفاف نهر النيجر ، ولقد شاهدت أشجار الخوخ والقمح وغيرها ، وهو يحاول زراعتها هناك ، وكان الأهالى يلحظون كل هذا ويحترمونه بشدة، ويقولون: إن ماديمبا ليس زنجيًا إنه ذكى ، وليس معنى هذا أنه تخلى عن شعبه وجنسه ، ولكن يعبرون عن فخرهم بأن أحد بنى جلدتهم قد ارتقى إلى مستوى الرجل الأوروبى الأبيض الذى تعتبر ثقافته مثار إعجابهم الدائم ، ويقدر الأوروبيون هذا الحاكم ويعاملونه كواحد منهم .

ولا حاجة للقول إننى كنت أقضى ساعات كثيرة فى بلاط الملك وكما يقول الأهالى ، لقد حدث خليط متنوع من العادات الوطنية والأوروبية .

لقد بنى منزله على شكل عدة أحواش ، يحيط بالجميع أسوار عالية على أنماط الوطنيين نفسها ، وفى الوقت نفسه فإنه يُعد مزرعة ومنزلاً ريفيًا أو ثكنة عسكرية أو سكنًا ملكيًا مثل قصور الملوك عند الشاعر هومر Homer .

وفى أول الأحواش تمر عبر مجموعة من الخيول والماعز والبط والدجاج ، وفى الحوش الثانى تجد مجموعة من الخدم المسلحين أو البعض الآخر الذى يزرع الأرز والشعير أو غيرهما من البذور أو يبيعون التبغ وجوز الكولا ، وفى داخل مسكن ماديمبا توجد كراسى ذات أذرع على الأرض لقضاء وقت الراحة ، فضلاً عن أقلام وكتب وشمعدان وأشياء رغم تفاهتها لكنها مسلية وممتعة ، حيث إنها وجدت فى منزل رجل زنجى .

لقد احتفظ ماديمبا بديانة والده ، وما زال معظم رعاياه يمارسون الدين الإسلامى ، ورغم أنه لا يلتزم ببعض تعاليمه فإنه فضل الحفاظ على عادة تعدد الزوجات ، وكانت حاشيته كثيرة جداً وكانوا يشربون المياه النقية ، ولكن ما إن نجلس لتناول الطعام حتى كان الخدم من السنغاليين يقومون بخدمتنا مثل سيدهم ، وكانوا يملأون الكئوس بالنبيذ الأحمر والشامبانيا ، وكانت الوجبة شهية وتقدم على النمط الأوروبى ، وكان يتم تغيير الملاعق والشوك والأطباق من حين لآخر ، وهى رفاهية قلما وجدتها فى السودان على موائد أى أوروبى .

ومع كل هذا فإن دولاب الملك مازال يحتفظ بلونه المحلى ، ويرتدى ماديمبا طربوشاً أحمر اللون وعباءة طويلة(مثل القميص) ولونها أخضر داكن ومطرزة بالذهب ومع هذا فإنه ارتدى إكسسوارات مختلفة .

وبعد أن قمت بجولة فى كل أنحاء الدولة لعدة سنوات ، وحيث إننى بطبيعتى قوى الملاحظة - فقد لاحظت أن ماديمبا يعد مخزنًا كاملاً للمعلومات ، حيث توجد لديه معلومات متكاملة من الأمثال الوطنية ، ويستطيع أن يعبر عن نفسه بالفرنسية بكل سهولة ، ولقد أعطانى تقريراً عن ماضى سانساندنج التليد ، وتحدث عن أسباب انهيارها وأشار إلى المقاومة البطولية ضد التوكولور ، وأظهر لى كيف أعاد بناء مملكته ، وكان شرح الكثير من الأمور يتم بهذه الطريقة ، لقد أخضع السودان، وفوق كل شيء حقق التهدئة السريعة ، وضمن الأمن الكامل للأوروبيين المنعزلين .

لقد أرسل ماديمبا إلى أحد رؤسائه فى المدينة لكى يقدم بعض النصائح وكان رجلاً مسنًا يدعى بوسيسا **Bassissa** ابيض شعره ، وظهرت علامات الكهولة فى عينيه ، وكان جده أقوى مالك للسفن فى سانساندنج منذ مائة عام ، وكان الجزء الأكبر من القوارب التى تعمل فى مجال التجارة فى تمبكت ملكًا له ، وكان عدد الرقيق عنده يعد بالمئات ، وقد زاره الرحالة منجو بارك **Mungo Park** فى عام ١٨٠٥ ، ويحتفظ أسلافه بالكثير من الذكريات عن الرحالة النشيط والتى سوف أحكيها فيما بعد .

وقال بوسيسا: " لقد شاهدت آثار مدينتنا المدمرة ومنازلها المهجورة التى انهارت عن آخرها ، لقد شاهدت مأساة مسجدنا القديم ، وعندما تعود إلى أرض أجدادك فسوف تقول لهم ، لقد شاهدت سانساندنج

المدينة المدمرة وقد خلت من كل شيء ، ولكنك لم تشهد مدينتنا ولم يتذكرها الفاما Fama . لقد شاهدتها هذه اللحية البيضاء وتلك الشعيرات البيضاء البسيطة ، ومع كل هذا فإن المدينة مرحة وتعلوها السعادة وأعيد بناؤها بشكل لطيف ، وتضم العديد من الأسواق، والسكان سعداء ، ويرتدون أجمل الثياب من بلاد العرب والتى جلبتها قواربنا من تمبكت مع أشياء كثيرة جميلة وغالية ، لقد حدث كل هذا التغيير المفاجئ منذ أربعين عامًا ، إنها مشيئة الله ، لقد جاء الرجال من الجنوب وهم جوعى ، ويتعطشون للدماء مثل الضبع حين يبحث عن فريسته ، وكان على رأسهم الحاج عمر الذى أحضرهم من الغرب وقال لهم : " إن أصل الدعوة فى مكة ولكى تكمل دينك عليك الحج إلى المدينة المقدسة فى مكة من يشرب من مائها سوف يدخل الجنة"، ونحن مسلمون حقا هنا، لكنهم شنوا الحرب علينا من أجل ثروتنا ، وحاربنا سنوات طويلة وهزمناهم عدة مرات ؛ لكنهم استولوا على مدينتنا ودمروها ، وترك شعبنا بلادنا ، وطلب أصدقائى منى الرحيل ولكن كان ردى : " أفضل الموت فى المكان نفسه الذى توفى فيه أبى" ، وبدأت حياةً كلها حزن وتعاسة ، لقد دمرها التوكولور ونهبوها ، ولم يتركوا للكثيرين من السكان سوى الأنين ، وجدبت الحقول ، وجاءت الضباع إلى بيوتنا وحملت أطفالنا ، ثم جاء الفرنسيون ودمروا سيجو ، وطردوا التوكولور ، وعادت البهجة إلى المنطقة ، وساد السلام بيننا .

وكل من يرتكب إثمًا يلقى جزاءه ، ولم تعد بعد سرقة المحاصيل ، وعادت الزراعة إلى الحقول ، وأصبحنا ننتقل ونسافر دون خوف ، وعرف

الطفل طريقه وتجول وحيداً فى الطرقات ، ونام التجار فى أمان تحت الشجيرات بعيداً عن كل السكان ، بينما كنا لا نجرؤ على الخروج فيما وراء المدينة ، وعندما نلتقى بآخرين أقوى منا ، فإنهم كانوا يسيطرون علينا ويسرقوننا وكانت هذه المدينة الضعيفة تحت رحمة الأقوياء ، ولكن اليوم صار الجميع سواسية ومسرورين ولم يخطئ أحد ضد الآخرين .

إن الفضل يعود إلى الرجل الأبيض ، وهل ما زلت تسأل لماذا نحن مسرورون بوجودهم ؟ ولماذا نحتفل بهم؟ ألم تفهم الآن سبب الأمان والسلام الذى نشعر به ؟» . (٦)

الفصل الخامس

مدينة جنى

لقد ابتعدنا عن النيجر عند قرية كواكورو Kauakoro إلى أحد الروافد الطبيعية التى تحمل الخصوبة إلى أماكن بعيدة بما تحمله الفيضانات .

وبعد اثنتى عشرة ساعة من مغادرتنا المجرى الرئيسى وجدت أن رجال البوصا توقفوا فجأة عن التجديف وكان هذا مثار دهشتى ، ونظرت من مكانى فوجدت الأفق وقد اختفى تمامًا، ولم أشهد شيئًا سوى المياه والشواطئ المرتفعة ، ولم أستطع فهم أسباب التوقف المفاجئ عن التجديف ، وهممت بالعمل لكنهم ألحوا بصوت واحد بعدم التحرك وأشاروا إلى بعض الأشياء التى لا أراها ، وبعدها نطقوا بصوت مسموع لى قائلين : "مدينة جنى" .

لقد أصابتهم الدهشة بمنظر هذه المدينة غير المعروفة . إن هؤلاء الذين لا يعرفون مدنًا عظيمةً مثل سيجو ونيامينا وساساندنج يدهشون لهذه المناظر الغريبة .

تقـدمت إلى الأمـام ووقـفت مـذهولاً بدورى ، ولأول مـرة فى هذه المناطق أندهش لهذا العمل الذى صنعه الإنسـان ، إن المناظر فى هذه المناطق كـثـيـرة وعـديدة ، لكن كـان هناك شـىء لا تدركـه العين وعـقل الإنسـان، ألا وهو آثار حضـارة تظهر عقلية وذكاء الإنسـانية ؛ لأنه رغم كل مـا قيل عن قيام الإنسان بالسيطرة وإخضـاع ظواهر الطبيعة ، إلا أنه يجب أن نعـترف بأننا نعثـر على هذه الأعمال العظيمة غير كـامـلة عندما لا نشاهد شيئًا لفترة طويلة .

إن وادى ليور Loire وقد اكتسى حلة خضراء يعطى منظرًا جميلاً ترصعه المجوهرات حتى تجعل منه تحفة فنية عظيمة .

إن جنى هى جوهرة وادى النيجر .

وهنا انحفرت صـورة فى ذاكرتى وأنا أجلس بين هؤلاء الرجـال من البوصـا ، حيث الوادى الواسع المسطح دون وجود أية ارتفاعات أو أية قرى أو أى أثر للإنسـان سـوى أشـجـار هنا وهنـاك لفتـرات بعيـدة وهى تبرز نقاطًا سـوداء على هـذا الامتداد الواسع الأصفر ووسط هذا الجو الهادئ لا نجـد سـوى المياه وداخلهـا مثل قمم أشـجـار النخيل كتل من الأسـوار المرتفعة والعـاليـة التى تنحـدر بشكل منتظم ، وتزين كل هذه أشجار ذات قمم وأسقف وشرفات ، وتشـهد حياة باسـمـة ، ترسل إليك التحية من أعالى هذه القمم العالية .

لقـد كان الوقت عند غروب الشـمس وكـان التناقض الكبيـر للأنوار الاستوائية والظل مثار دهشة كبرى . إنه مشـهد مؤثر فى هذه السـاعة ،

ويشبع عواطف رجالى من البوصا ، وكان الجزء العلوى من المدينة مظلماً، بينما السهل الواسع يشع ضياء من الشمال واليمين من المدينة . ووسط هذا المنظر الرائع تقع مدينة جنى دون انتقال من الضياء واللمعان بين الأرض والسماء ، ويبدو أثر كل شىء هناك يبحث عن الحياة فى هذا الجبل وهذه الجزيرة التى ترتفع بشكلٍ راقٍ وعظيمٍ من على بعد مسافة .

وعندما اقترب قاربى من الرافد الذى يمتد من الناحية اليمنى إلى قلب المدينة فإن الشواطئ والأسوار تبرز بنسب وانسجام كبير من بين المياه المحيطة ، وعند النهاية شاهدت ميناءً يعج بالقوارب الكبيرة مختلفة الأشكال والأنواع مثل المدينة التى تضمهم .

وعندما تسلقت الشواطئ ودخلت الأسوار اتخذت دهشتى شكلاً مجدداً وأصبت بحالة من الذهول بسبب غرابة مدخل المدينة حيث اختلفت النظرة ونقلتنى آلاف الفراسخ بعيداً عن السودان ، لأنه لايوجد فى قلب هذه الدولة أكواخاً متشابهة بهذه البساطة ولكنى أريد أن أعرف المدينة الحقيقية ، حقًا مدينة حقيقية بالمفهوم الأوروبى للكلمة وليست هذه المجموعة غير المنتظمة من المبانى والمساكن التى نسميها مدنًا فى هذه البقاع .

هنا نجد منازل حقيقية وليست مساكن بدائية مغطاة بالأسقف العارية أو فى شكل أقماع مقلوبة ، والشوارع أيضًا واسعة وليست تلك

الأزقة الضيقة وفجأة انتابتنى فكرة ، فربما تكون هذه مدينة تمبكت وهذا يفسر كل شىء ، لكن هذا مستحيل ويقول أهل بوصا إننا مازلنا نبعد عنها مسيرة اثنى عشر يومًا من هذا المكان .

ولكن ما هذه المدينة إذن بشوارعها الواسعة وطرقها المستقيمة ومنازلها المكونة من دورين وبعضها ثلاثة أدوار ، وقد بنيت بأسلوب يريح العين ، إننى مندهش حقًا بهذه المساكن التى لم أتوقع رؤيتها وسط هذه الأقطار البربرية ، من أين جاءت هذه المجموعات والتجمعات من المبانى؟ ما هذه الحضارة ذات الخصائص الفريدة والتى تتميز بها؟ ومن الطبيعى أن تدور بخيالى حضارة الخلفاء والدول العربية القريبة من وادى النيجر والإسلام الذى انتشر بين هذه الشعوب ، ومن الناحية المنطقية فإن الديانة لابد أن تقترن بمضمونها ، لكن لم نجد أثرًا عربيًا فى هذه الأساليب ، ولا نجد أثرًا لها فى شكل المنازل القديمة والحديثة الشاسعة فى مصر وسوريا والجزائر .

إن هذه المبانى ليست شبيهة بالقصور الفسيحة فى القاهرة ودمشق ، لكنها تشبه الأشكال والهياكل المعقدة فى غرناطة وقرطبة ، إنه ليس نمطًا بيزنطيا أورومانيا ولا إغريقيا ، إن كل آثار الحضارة الأوروبية قد توقفت بين الساحل والنيجر .

وأخيرًا استعدت ذاكرة هذه الأشكال الصلدة وانتقلت إلى أقصى الطرف الآخر من أفريقيا . إنها تنبع من شواطئ نهر عظيم واسع

لكن لا ترتبط أى حياة بهذه الصورة ، إنها مدن أشباح وأموات لأنها توجد فى المدن التى لا حياة فيها فى مدن المصريين (الفراعنة) وخلفائهم، إنها توجد فى آثار مصر القديمة فى وادى النيل الذى سبق أن شاهدته من قبل .

ولكن كيف انتقلت عبر هذه المناطق البعيدة لعدة قرون ؟ وكيف تبدو مدينة موجودة اليوم ؟

ما هذه المستعمرة المصرية التى لا نلاحظها عندئذ ؟ لابد أن نبحث عن سر هذا اللغز ، وأوقفت تقدمى وقررت أن أواصل الرحلة بعد أن أكشف هذا السر ، ونجحت فى حل اللغز من خلال الحوار والحديث مع الرؤساء والنبلاء والزعماء المرابطين من رجال الدين والفقه وشيوخ الإسلام فى المدينة .

لقد قدمت الوثائق العربية خطابات شفوية ، وفوق كل هذا كنت محظوظًا جدًا فى أن أحصل على نسخة كاملة من تاريخ السودان التى يعشقها المستشرقون فى النيجر وقد قرأت وفسرت الكثير من صفحاتها من خلال القصص التى يتناقلها الأبناء عن الأجداد ، وبالتدريج أمكن فك اللغز ومعرفة السر ، وفى الفصل القادم سوف أشرح الأثر الفعال لمصر أُم كل حضارتنا الغربية والتى تغلغلت فى قلب الأوطان الزنجية ، ومن خلال وسائلها انتشر أثر الحضارة وعاش حتى يومنا هذا ، والذى يضم كل هذه الأمجاد والجاذبية الواضحة فى هذه الدول الاستوائية .

الفصل السادس

شعب سنغى (السنغاى)

عندما يسافر الأوروبى من الساحل فإنه يمر عبر قبائل وطنية متعاقبة فى غرب أفريقيا حيث السرور والولوف والكا سونكا والسوسو والبمبارا ، وغيرها ، وكلهم ذو الشفاه الغليظة والشعر المفلفل الصوفى والأنف المفلطح ، وكلهم معروفون لعلماء الأجناس ، ولكن عندما يصل الرحالة إلى جنى يجد نفسه وجهًا لوجه مع مجموعة أنثروبولوجية جديدة تماما ، ونعنى سكان سنغى SONGHOIS ، ويخطئ الأوروبيون فى تسميتهم بالسنغهاى SONRHAIS حيث يرفض الأهالى أن يسموا بهذه التسمية .

وخلال كل الأربعين عامًا التى شغل فيها قلب أفريقيا انتباه العالم ، ظهر الاسم فقط مرة واحدة أمامنا ، ومن بين الجغرافيين القدامى ليو الأفريقى حيث ذكره وحده خلال فقرة من سطرين ، أما الجغرافيون المحدثون وأشهرهم الرحالة الألمانى هنرى بارث فقد أشاروا

إليهم بإسهاب ، لكن كل ملاحظاتهم قد وضعت فى مكان غير صحيح لأنهم ذكروا أهالى سنغى بين سكان البلاد الأصلية من السودان وحدد بارث مكان وجودهم أساسًا ما بين تندرما TINDIRMA والد يارا DIRA فى الجنوب الغربى من تمبكت ، لقد أخبرونى أنهم لاينتمون أصلاً لدول النيجر ، وعندما سألناهم عن مقر أجدادهم الأول كانت إجابتهم واحدة ، وأشاروا جميعًا إلى أن أصلهم كان فى مدينة جنى وليسوا إطلاقًا فى الغرب حيث تقع تندرما وديرا DIRA ، وأشاروا إلى الشرق ، ومرة ثانية كان هذا القانون العظيم لهجرات السكان والتى سميت الدول من بلاد الشرق إلى بلاد غروب الشمس وبعد أن تأكدت من الوثائق التى خطها الناس هناك .

وكــان لابد من الرجــوع إلى الوثائق المكتــوبة ومن بينهــا كل المخطوطات التاريخية التى جمعتها فى أثناء رحلاتى ، وكانت أولى الوثائق التى تشير إلى سكان سنغى كتاب الفتاش ، ويجب أن نقرأه بحرص لأنه يحتوى على معلومات قيمة ودقيقة تسمى ديالامن DIALLIAMAN ، وجاء اسمه من الاسم العربى ديامن اليمن DIA MIN AL JEMEN وتعنى أنه من اليمن . وتقول القصة إن ديالامن قد ترك اليمن فى صحبة أخيه وسافر فى أرض الله حتى دفعهما القدر إلى أرض كوكيا KOKIA . والآن تعتبر كوكيا مدينة شعب سنغى ، وتقع على شاطئ نهر وهى مدينة قديمة جدًا ، قد عاشت فى زمن الفراعنة ، ويقال إن واحدًا منها أيام الجدال مع موسى قد أرسل يطلب الساحر الذى عارض الرسول .

ووصل الأخوان إلى المدينة فى حالة سيئة من الحزن لدرجة أن ظهورهما لم يكن فى شكل بشر حيث كانت جلودهما ملوثة بفعل حرارة الشمس وكانا عاريان تمامًا ، وقد استفسر الناس منهما بخصوص أصل وطنهما ، وكانت الإجابة أن ضياء الأمين قد جاء من اليمن وأن أخاه ديالامن استقر فى كوكيا . وكان إله أهل سنغى عبارة عن سمكة تظهر من الماء فى بعض الأوقات وترتدى خاتمًا ذهبيًا فى أنفها ، ويجتمع الناس معًا ويعبدون السمكة ، ويتلقون تعاليمها ونواهيها ويطيعون معجزاتها ، وعندما أدرك ديالامن غلطتهم أخفى فى قلبه قرارًا بقتل هذا الإله المزور وأيده الله فى خطته . وفى أحد الأيام اصطاد السمكة بالحربة فى وجود الناس وقتلها ، وبعدها أعلن الناس ديالامن ملكًا . وهكذا عرفنا أن أهل سنغى كان عندهم فى فترة من الفترات مدينة قديمة جدًا تدعى كوكيا وتقع بجوار النهر ، والآن أين هذه المدينة؟ لقد حاول بارث فى رحلته البحث عنها فى المنطقة من بحيرة تشاد إلى النيجر وحدد موقعها على شواطئ النيجر الشرقية رغم أنه بكل تأكيد لم يجدها هناك . وكان علينا أن نعتمد على الروايات الشفوية ، ووضعت كتاب التاريخ فى يدى وسألت سكان سنغى عن احتمال مكان مدينة كوكيا . وكان ردهم الجماعى إن مدينة كوكيا بعيدة جدا جدا ناحية الشرق فيما وراء جاو Gao وأضافت الخرائط فى مناسبتين إنها مدينة فى أرض مصر Misra و تعنى القاهرة . ولكن ما هو النهر الذى وجدناه على الخريطة شرق مدينة جاو سواء كان كبيرًا أم صغيرًا ؟ إنه ليس

سوى النيل وإنه فى مصر وحدها تقع كوكيا قرب نهرٍ عظيمٍ . وعلاوة على ذاك فإن هذا يفسر لماذا قال المؤلف : لكى نحدد عمر هذه المدينة نجد أنها بالفعل موجودة فى زمن الفراعنة ، وإن أحدهم أرسل إلى هناك ليطلب ساحرًا لكى يهزم موسى عليه السلام ، ومن المحتمل أن تكون فى منطقة مجاورة أو دولة تابعة لهم . ومرة ثانية فإن اليمن لا تبعد كثيرًا عن وادى النيل ، وإن رحلة ديالامن من هناك إلى كوكيا معقولة تمامًا [٧]

إن خط سير الرحلة عبر الصحراء التى تفصل النيل عن البحر الأحمر يفسر تمامًا الحالة التى وصفها عند وصوله . ويبقى الآن أن نثبت الفترة والطريقة التى عبر بها سكان سنغى من شواطئ النيل إلى شواطئ نهر النيجر . إن إعادة بناء مكان خروجهم ليس بالبساطة نفسها التى نصور بها أفعالهم ، ولكن يبدو أن هذا التصور أكثرها احتمالا وربما بدأت الهجرات فى منتصف القرن السابع الميلادى لأن جنى تأسست بعد مائة وخمسين عامًا من هجرة الرسول عليه السلام (حوالى ٧٦٥ ميلادية) وإن جنى هى أقصى نقطة عربية لهذا الغزو . وربما تكون المدة من مائة إلى مائة وعشرين عامًا فترة كافية لتشمل سنوات الترحال والتجوال وسنوات الاستقرار والبناء واحتلال سكان سنغى هذه البلاد . إن الهدوء الذى ساد مصر واستمر منذ الغزو الرومانى قد تعكر صفوه فى القرن السابع مع عصر الخلفاء ونوابهم ، وتلقت مصر ضربة ربما تكون مبررًا لمثل هذا الخروج . لقد انبهر الغزاة بهذا الثراء العظيم فى تلك المناطق ، كما أثبت ذلك خطاب عمرو بن العاص

إلى الخليفة عمر ابن الخطاب ، لقد كانت فرصة كبرى للعرب والحماس للغزاة الفاتحين ، وفى حوالى ٤٦٠ هـ . تم إخضاع كل مصر السفلى والعليا والوسطى ، وربما عانى سكان سنغى كثيراً من الغزاة ، وربما لأنهم رفضوا الدخول فى الدين الإسلامى . إن أصدقائى من المرابطين المسلمين – وهم الممثلون الحقيقيون للدين الإسلامى – لم يقولوا شيئًا حول هذا الموضوع ، كما أن الوثائق التاريخية صمتت حول هذه النقطة. وكان الذين قاموا بجمعها من المرابطين عبر ثلاثة قرون ، وساد الصمت أيضًا حول هذه النقطة ، وعلى أى حال فإن العادة السائدة عند الفاتحين العرب ، واستخدامهم القسوة فى تعاملهم ربما كانت سببًا فى هروب سكان مسالمين مثل أهل سنغى ، وظلت هذه حتى يومنا هذا . السؤال هو هل كان ديالامن هو المخطط وقائد هذه الهجرة؟ إن شخصيته تتفق مع كتاب تاريخ الفتاش ، وإنه وصل إلى ملك هذه البلاد التى دخلها جائعًا وعاريًا . إن وطنه الأصلى كان اليمن التى تعد محل ميلاد ومركز الدين الإسلامى ، وربما دخل فى معارك مع أتباع الرسول عليه السلام .

وربما يكون قد غادر الجزيرة العربية ليهرب من عنف الغزاة . وعندما وجد نفسه وجهًا لوجه مع العرب المتحمسين للدعوة الإسلامية ، قرر البحث عن مأوى جديد فى أرض بعيدة ، وربما رحل وبرفقته ليس أخوه فقط بل عدد كبير من شعبه .

ومع هذا فإن ديالامن الرحالة المجتهد والمغامر الجرىء الذى تتحدث عنه الروايات التاريخية هو ديالامن العربى الحقيقى الذى غير

وبدل وطنه مثلما يبدل الجاكت (المعطف) وهو القائد المناسب وقائد شعب طرد من أرضه أمام قسوة الغزاة وأخذ يبحث عن موطن جديد بعيداً جداً . إن الطريق الذى سار فيه المهاجرون بمحاذاة جنوب الصحراء الليبية ماراً بأغاديس وشمال بحيرة تشاد سوف يلتقى بالنيجر فى مكان ما قرب مدينة جاو ، وربما يكونون قد سلكوا دروب الصحراء وحوافها حيث كثافة السكان أقل، وربما يكون هذا قد عرقل تقدمهم ، وبهذه الطريقة يكونون قد وصلوا إلى النيجر رغم تلك المسافات الشاسعة التى كان عليهم اجتيازها فى وقت قصير نسبيا ، ويؤكد هذه النظرية شعب سنغى ويذكر تفاصيل كثيرة . ويتحدث سكان أغاديس لغة تشبه لغة شعب سنغى ، كما أن الناس الذين يقطنون الصحراء المجاورة ما بين تشاد والنيجر من الصنهاجيين ، ومما لا شك فيه أننا عرفنا الكثير من الصفات الأنثروبولوجية واللغوية عندما عرفنا الشعوب التى تقطن ما بين بحيرة تشاد والنيجر معرفة كاملة . وأخيراً نجد فى دولة بورروصا Bourrousu بالقرب من مدينة جاو أن التقاليد المحلية تشير إلى وصول أحد فراعنة مصر الذى من المحتمل ألا يكون ديالامن أو قائد هجرة شعب سنغى . وقبل أن نواصل المسيرة والتطورات فى هذه الدولة الجديدة لشعب سنغى فإننى أؤكد أن المناقشات التى تشير إلى أصلهم المصرى لم تكن قاطعة . فالرحالة هنرى بارث العظيم الذى أعارضه يبدو أنه هو الذى وضع هذا الفرض . وتخدم روايات الرحالة الشهير فى تأكيد هذه الافتراضات لأنه يجد باستمرار آثاراً مصرية فى بلاد

سنغى وفى بلادهم فقط . ويلحظ حقًا أن شعب سنغى قد تلقى حضارته من مصر ، وأنه احتفظ بعلاقات وثيقة معها كما توضح الكثير من التفاصيل الشيقة. وبعد كل هذا ماذا تكون كل هذه النتائج لو أنه زار جنى نفسها وشاهد طبيعة معمارها ؟ أو أنها كتسب هذه الحقائق من المخابرات أو من علماء سنغى أنفسهم بدلاً من الاعتماد على معلومات استقاها من شعب الكونتا الذين استضافوه فى تمبكت والذين كانوا غرباء نسبيًا عن التاريخ الحديث لهذا القطر ؟

لقد عرف بارث مصر ولكن ليس فى علاقاتها المباشرة ، كما اعتقد أن حضارتها قد وصلت من خلال الدين الإسلامى ، والآن فإنه فى الفترة التى امتد فيها الدين الإسلامى إلى السودان (القرن الحادى عشر) كانت حضارة الفراعنة قد انزوت وانتهت من حوالى أربعة قرون مع قدوم الخلافة الإسلامية ، وليس من الممكن أن تكون رسالة عقيدة جديدة قد وصلت واستقرت فى طبائع مصر القديمة ، وصارت أفضل من تلك التى جاءت إلى مصر القديمة والمعاصرة والتى كانت فى فترة الذروة فى حالة من الرخاء . وعلى هذا فإن العلاقة المباشرة مع مصر قد استقرت قبل ظهور الإسلام ، وإن قوة الاتصال رغم بعد المسافة الشاسع والتى تفصل وادى النيل عن وادى النيجر ، كل هذا يؤكد أن التيار الذى ينساب بشكل مستمر وبقوة بين مصر والسودان حتى القرن السادس عشر إنما يمثل شيئًا أكثر من مجرد مصالح تجارية ، بل يكشف الطريق نحو الخروج والهجرة . وإن أثر تجارة مراكش والجزائر

فى السودان (وهى دول قريبة نسبيًا) كانت لفترة طويلة قد طغت عليها مصر البعيدة عنها ، ونجد براهين مؤكدة لهذا بين قدامى الجغرافيين؛ فابن بطوطة وهو مغربى قد زار دول النيجر فى عام ١٣٥٢ ، وحكى أنه فى والاتا وجد السكان يرتدون الملابس الجميلة من مصر . والآن تقع والاتا على مسيرة شهرين من مراكش ، بينما المسافة من وادى النيل تبعد ثمانية أشهر . ومن ثم لكى نضع حدًا للنِّيجر ، ونؤكد تفوق الأقطار الشمالية فى أفريقيا ؛ فإن هذا يتطلب غزوًا لا يقل عن الاحتلال المراكشى فى عام ١٥٩٢ ، ويقدم أهالى سنغى أدلة أخرى على أنهم أصلاً غرباء فى هذه الأوطان ، فلغتهم تختلف كثيرًا عن العديد من اللهجات السودانية وجذورها تنتمى إلى لغات وادى النيل . وعلاوة على ذلك فإن نمط أجسامهم لا علاقة له بالجنس الزنجى فى غرب أفريقيا ، وفى معظم الجماعات الزنجية المختلطة يمكن تمييز ابن السنغى من أول نظرة حيث إن جلده أسود مثلهم بكل تأكيد ولكن لا يوجد شىء يتفق مع خصائصهم المعروفة ، فالأنف عند السنغى مستقيم وطويل ، ومدبب أكثر منه مسطحًا . والشفاه نسبيًا رفيعة والفم واسع أكثر منه بروزًا وعرضًا ، ومن النظرة إلى شكله نجد أنه يشبه الأوروى ، والعيون عميقة وموضوعة بشكل مستقيم فى إطارها ، فضلاً عن أنهم طوال القامة ومفتولو العود ، مع قوة البنيان . ولاتزال هذه الخصائص ملحوظة بشكل واضح عند الأطفال بين سن السادسة والعاشرة من العمر ، وجلدهم لم يكتسب اللون القاتم بعد كأطفال

الزنوج . وفى كثير من المرات كنت أواجه مجموعة من الأطفال فى جنى وازداد إعجابى بجمالهم النادر ، وباختصار فإن أهل سنغى يشبهون النوبيين أكثر من الزنوج فى غرب أفريقيا ، ويبدو أنهم بلونهم البرونزى أشبه بالساميين من الحاميين وتساعد الأنثروبولوجيا فى تحديد نقطة رحيل الهجرات من وادى النيل . وفى الجنوب من جزيرة فيلة Philae نجد جنسًا متشابهًا ، وهناك تركت مصر القديمة آثارًا واضحة ، وعلى الجانب الأيسر أقامت سلسلة من الآثار المتميزة ، وليس عجبًا أن السكان قد تأثروا بهم واحتفظوا بأقصى نقطة لتجوالهم . لقد كانت هى مدينة جاو Gao كما رأيناها بالفعل ، وعندما غادرنا دولة بهذه الميزات المتعددة مثل نوبيا Nubia ، فإن المهاجرين قبل الاستقرار يبحثون عن موقع يعيد ذكريات أرض بلادهم . ولمسافة طويلة فإنهم لا يحتاجون سوى العيش حسب هواهم ولا يقبلون المياه القليلة ولا الرمل الكثير ، ولا يستقرون فى أى مكان ما بين النيل والنيجر . ولكن عند مدينة جاو ربما يجدون نهرًا يشبه ذلك الذى اعتادوا على شواطئه التى تركوها ، كما أن فيضانه وانخفاضه يخصب الأرض بالطريقة نفسها ، وهناك يمارسون أسلوب العمل نفسه والزراعة ، ومثل بارث كانوا مسرورين بزراعة أشجار النخيل والجميز الذى كان يزرع فى موطنهم الأصلى ، وعلى هذا أقاموا عاصمتهم فى جاو حيث قرروا لأول مرة الراحة الدائمة وتحقيق أملهم فى وطن جديد . وقد اتخذوا ضفة نهر النيجر ملاذًا لهم حيث وجدوا هناك سكان سنغى قد اختفوا تقريبًا ، وهؤلاء الشعوب – ويدعون الهابس Habais – خجولون لدرجة أنهم يسلحون أنفسهم

بالأقواس والرماح والسهام لكى يعملوا فى الحقول المحيطة بقراهم الخاصة ، وهم يفضلون الهروب بدلاً من استخدام أسلحتهم . وعلى هذا فإن الحرف تعد أمرًا سهلاً لأهالى سنغى ، فلقد أسسوا جنى فى أقصى الطرف الغربى فى عام ٧٦٥ وجعلوها سوقًا لإمبراطوريتهم ، ونستطيع القول إن مناطق سيطرتهم قد حققت وضمنت حدودها الحالية فى أواخر القرن الثامن ، وتشمل هذه المنطقة الدول من شرق جاو حتى بحيرة تشاد ، وأيضا ذلك الجزء من الوادى فى النيجر أسفل مدينتى جنى وساى Say وتحدها الصحراء الكبرى من الغرب ودول البمبارا والموسى وسوكوتو Sokoto من الجنوب ، بينما تحدهم شرقًا تلك المنطقة غير المحدودة مابين أغاديس وبحيرة تشاد . وسوف نستعرض بشكل سريع تاريخ سنغى والمكان المخصص لهم فى السودان عبر فترة ألف عام تقريبًا وتشمل ثلاث أسر هى الديا Dia والسنى Sunni والأساكى Askia. ولقد استعاروا لقب ديالامن ولكن صمتت الحوليات السودانية حول استخدام القرون الستة التى ضمت فترة حكمهم (من ٧٠٠ إلى ١٣٣٥) ونحن نفرق منهم ثلاثين فقط . وفى فترة حكم ديا سوبيو Dia Soboi واجهت مملكة سنغى أولى الأزمات حيث صارت تابعة لجيرانها فى الغرب ، أى إمبراطورية مالى التى كانت فى أوج عظمتها فى ذلك الوقت ، وبالإضافة إلى ذلك عبر جيش من الموسى Mossi الوادى لنهب تمبكت ، ونجحوا فى فصل جنى عن جسد الإمبراطورية الرئيسى عام (١٣٢٩) ، وقد تم أخذ ابنى ديا سوبيو وهما على كولون

وسليمـان نارى Nare إلى بلاط كنكن مـوسى لأنه لا تزال العـادة فى السودان أن يخدم الملك أطفال المناطق التابعة له كما يقول تاريخ الفتاش، وكان يُسمح للبعض بالعودة إلى أوطانهم الأصلية بعد فترة من الوقت ، ولكن عاش الأخوان فى الأسر حتى أواخر أيامهما ، وكان أمراء سنغى الصغار يُحجزون لفترة من الزمن فى بلاط كنكن موسى ، لكن سافر على كولون عبر المملكة فى مالى من حين لآخر بحجة زيادة دخل المملكة ، واتساع تجارتها . وكان شابًا ذكيًا يتمتع بالمثابرة والتأمل والتفكير وكان مثقفًا وكلما كان يتوسع فى كل رحلة كان يتعلم الكثير عن الطريق فى الدولة وفوق ذلك الطرق المؤدية إلى سنغى ، وأخيراً قرر من أعماق قلبه أن يعود إلى وطنه ، ولهذا الغرض جمع الكثير من الذخائر والمعدات التى أخفاها على طول الطرق التى كان ينوى السير خلالها . وبعد أن أفصح وحدد خطته لأخيه بدأ الرجلان فى تدريب الفرسان والخيول ، وتعويدهما على تحمل المشاق الكبرى ، وذات يوم بدأ الرحيل، وعندما وصلت أخبار هروبهما إلى مسامع الملك أمر بتعقبهما وقتلهما ؛ ولكن رغم اللحاق بهما فإنهما دافعا عن نفسيهما جيداً حتى تمكنا من الوصول إلى دولة سنغى . وبعد ذلك تم تتويج على كولون ملكًا وحصل على لقب سنى Sunni أى المحرر ، وكان هذا هو مؤسس الأسرة الثانية التى استمرت من ١٣٥٥ عام ١٤٩٢ وضمت ثمانية عشر ملكًا : سنى إليكون وسنى سليمان نارى وسنى إبراهيم كوبيا وسنى عثمان كانافا وسنى باركيانا إنكابى وسنى موسى وسنى بخارى ديانكاوسى بوخار

دالايوجوهبا وسنى ماركين وسنى محمد داوون وسنى محمد كوكيا وسنى محمد بارو وسنى مارى كولجمون وسنى مارى أركونا وسنى مارى أردهان وسنى سليمان دامى وسنى علىّ بارو (أويخارى دوو) . لقد امتد تاريخ سنغى فترة واسعة فى عهد سنى (١٤٦٤ حتى ١٤٩٣) حيث وسع حدوده الأولى وطور إمبراطورية لم تشهدها دولة أخرى فى أفريقيا الغربية .

لقد كان سنى على جنديًا زنجينًا حقيقيًا تقدم من غزوة إلى أخرى وانتصر على السكان فى الحرب وضمها إلى مملكته ، وكان جنديًا متمرسًا مشغولاً بالنهب والسلب والأسر وتحصيل الجزية ، ومع ذلك فإنه فى أثناء حروبه من الشرق إلى الغرب خلال عشرين عامًا كان يضع أسس عظمة سنغى ، وكان بهذا يمهد الطريق نحو رخاء الإمبراطورية فى ذروة مجدها ، ولقد بدأت أعمال سنى علىّ الغازى بطريقة قوية بغزو تمبكت فى عام ١٤٦٩ ، ومن المدهش حقًا أننا نقابل هذا الاسم قبل ذلك فى تاريخ الدول الأكثر تحضرًا فى السودان ، ولكنهم لم يؤسسوها ، ولم تعد تذكر على أنها من ممتلكاتهم وكان اكتمال هذه المدينة مشهورًا وبعد أن اكتسبت هذه الشهرة والعظمة بدأت مرحلة الانهيار والسقوط . وبعد أن حررت جنى نفسها فى عصر دولة مالى ، نجح الموسى فى تحقيق انتصاراتهم فى أواخر أيام الديا Dias ، ورضخت بعد فترة طويلة من الحصار ، وواصل سنى علىّ الغزو بالهجوم على ممالك موسى والهومبورى Hombouri فى وسط الوادى وتسكا كوبارا والكاننا فى

الشرق ، وكان قد وجه جهوده ناحية الغرب وركز على تحطيم إمبراطورية مالى التى هددت دولته فى الأيام السابقة ، وأخضع تقريبًا كل الشاطئ الأيسر للنيجر الغربى واستولى على الهوسا جنوب تمبكت وبارا وعلى دولة جوندام على بحيرة ديبو ، ودمر جيودو Guiddio وهى مدينة كبيرة على بحيرة ديبو ، وحارب ضد سندياتا الفولانى وسكان دياركا Diarka وفى أثناء عودته من إحدى الحملات غرق فى أحد الفروع الصغيرة لنهر النيجر جنوب تمبكت . لقد أصيب بنكستين فقط حسب روايتين ، إحداهما فى ديونو Duoneo والأخرى فى باركو Barkou وتفوق على كل الملوك بجرأته وكفاءته العسكرية ، ولقد تعددت غزواته ، وامتدت شهرته عبر الآفاق منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ولقد تحدث الكتّاب السودانيون حقًا عن سنى علىّ الغازى ولكن بطريقة غير متوقعة ، ويقول أحدهم إنه كان طاغية دمر المدن بقلبٍ قاسٍ وذبح آلاف الناس يعرف الله وحده عددهم ، وكان قاسيًا على العقلاء ، ويقوم بقتلهم حسبما يدعى البعض الآخر .

وفى الحقيقة إنه لم يكن أفضل أو أسوأ من خلفائه أو من أى أمير سودانى ، إن الحرب تتخذ بعدًا قاسيًا ووحشيًا فى السودان الغربى بين الدول الزنجية ، إن الحيادية فى التاريخ لا علاقة لها بهذه التراكمات من الاتهامات . إنهم المرابطون الذين يمثلون العلم والأدب وحماة الدعوة الإسلامية وإن هذه المقدرة الأخيرة هى التى تقرر حكمهم على الأمور . إن الواقعية مهمة لأنها عكست المشاعر الانتقامية القاسية والتى دفعت

الدين الإسلامى وحمسته نحو الأمور الخارجية حتى ما يتعلق منها بالماضى ، وإنها لا تعتمد على القوة الكبرى فى ذلك الوقت بل تكمن جذورها داخل الدولة ، وبعد ذلك عندما ازدادت القوة فسوف نجد أنها سارت على الدور نفسه وصارت العامل الحاسم فى هذه الأحداث المأساوية ، وكان حنق المرابطين ضد هذا الغازى يرجع إلى فتوره وقلة حماسه للدين الإسلامى ، فلقد تصرف بشكل حر تجاه العقيدة كما يحكى تاريخ الفتاش ، وكان يؤخر الصلوات الخمس التى كان على كل مسلم أن يؤديها بنفسه ما بين شروق الشمس وحتى غروبها ، بل وتدريجيًا اكتفى بمجرد ذكر أسماء الصلوات، وفى النهاية بسطها أكثر واكتفى بذكر الله وهو ويقول: إنكم جميعًا تعرفون صلاتى دعوا كل شخص يأخذ مايهمه . لقد شرح المغيلى وهو أحد رجال الدين من تلمسان هذا الغلو فى الدين وسوف أحكى عنه فيما بعد ، فلقد أعطى لمحة عن تقاليد هذه الفترة وأوضح موقف الإسلام هناك فى أواخر القرن الخامس عشر ، فالطبقة العليا فقط كما يبدو قد اعتنقت الدين الإسلامى ولكن بدون اقتناع كامل ، فلم تكن الوثنية محرمة فى البلاط الملكى نفسه وحيث إن الملك نفسه لم يكن مسلمًا حتى بالاسم فإن أتباعه يتبعون المنهاج نفسه فلقد واصل الشعب ممارسة السحر والشعوذة وعبادة السلف الذى ظلت معابده قائمة فى جاو وجنى ، وتقول وثيقة أخرى: إن الله قد أرسلنا إلى بلد يدعى سكانه الإسلام لكنه كان إسلامًا سطحيًا ، فهم يصلون الجمعة والصلوات الخمس ، لكن لا نثق فى رجال الدين

عندهم . إن الأخلاقيات فى هذه البلاد فردية ، ونجد أناسًا يدعون أنهم يعرفون علم التنجيم ، ويقيمون معرفتهم على دراسة خطوط يرسمونها على الرمال عن موقع النجوم ، وصوت الطيور وطيرانها إلخ ، ويعترفون بكتابة التعاويذ التى تزيد الثروة والربح ، وتحمس الحب وتمنع الدمار والخراب والتى تجعل أعداءهم يفرون من المعارك وتحميهم من السيوف وضربات الأسهم ، وغير ذلك من الأمور التى يمارسها السحرة . إن والدة سنى علىّ جاءت من إقليم يدعى فارو Farou (سوكوتو) وهى دولة تحتضن وثنيين يقدسون الصور الخشبية والأحجار ويؤمنون بهذه الأصنام ، وعندما يحل عليهم الخير أو الشر فإنهم يعزون ذلك إلى هذه الأصنام. ويمارس رجال الدين عبادة هذه الآلهة غير الحقيقية والتى يزاولها السحرة وأتباعهم. وفى هذه المنطقة قضى سنى علىّ حياة شبابه، وبالطبع تأثر فكره بهذه الأمور الوثنية وتلك العادات السيئة . ومع ذلك اعتنق الدين الإسلامى عندما صار ملكًا رغم أن تعاليم الإسلام لم تكن معروفة لديه ، فلقد كان يضيف بعد اسم الله (صلى الله عليه وسلم) وكان يقول العكس . ولفترة طويلة كان يصوم طوال شهر رمضان ويقدم العطايا والهبات فى المسجد ، لكن بعد فترة اتجه إلى الأصنام والسحرة ، وبحث عن النصح من ممارسى السحر ، وقدس الأشجار والأحجار وقدم إليها القرابين طالبًا منها أمانيه ، وأخيرًا لم يعد يظهر هو وجماعته فى صلاة الجمعة فى المسجد الكبير أو فى مساجد أخرى ، وخوفًا منه فإن آلاف الرجال الذين يقيمون فى منزله لم يصلوا

أو يصوموا خلال شهر رمضان ، ولم يعرف قراءة الفاتحة عن ظهر قلب ولا حتى أى سورة من القرآن الكريم ، وكعادته كان مهملاً فى صلواته فلم يركع أو يسجد فى أثناء الصلاة ، وكان يقيم علاقات مع نساء دون الزواج منهن وهو ما حرمه الإسلام وإذا أعجب بامرأة فإنه يأخذها إلى قصره رغم أنف زوجها أو عائلتها ، وقد سمح بنهب وقتل المسلمين ، كما أنه أعدم عدداً كبيراً من رجال الدين والقانون . وهذه الفقرة الأخيرة غير صحيحة لكن المغيلى حذفها وأضاف أن سنى علىّ أساء معاملة بعض رجال الدين ليس لأنهم مسلمون أو رجال دين ، ولكن لأنهم تدخلوا فى سياسته وتآمروا ضده بسبب ارتداده عن الدين . ويقول تاريخ الفتاش أنه كان يقدر رجال الدين الذين يركزون فقط على دينهم وسماحته ، وكان دائما يحافظ عليهم ، وكان يقدم لهم الهدايا والعطايا ، ويوضح الكرم والروح السمحة التى كانت من سمات شعب سنغى ، وسوف أركز على جانب واحد آخر من شخصيته وهو العنف فى أثناء الغضب حيث كان يشتعل غضبًا على أقل شيء ، وكان يأمر بقتل الشخص الذى غضب منه حتى لو كان من المقربين إليه ولا يمكن الاستغناء عنه ، وكان خدمه يدركون هذا ، وعندما يقع العقاب على أحدهم كانوا يخفونه حتى يقبل عذره .

وكان الملك سعيداً فى هذه المواقف التى يتأخر فيها تنفيذ أوامره. وكان محمد بن أبى بكر من الأشخاص المفضلين لديه ، وكان تقيًا لا يفصله عن الجنة سوى خيط رفيع ، وهو من أهالى تورود **Touroud**

وليس سهلاً أن نحدد عدد المرات التى حكم عليه بالإعدام لكنه كان يد سنى علىّ اليمنى وأعظم قواده ، ووزيره الناصح الأمين ، إنه قلب كبير ، كثير السجايا كريم حباه الله بصفات كثيرة .

وكان موت سنى علىّ قد أعطاه مادةً للتأمل ، وبالطبع لم يقبل أن يواصل العيش فى عهد ابنه سنى بارو Sunn Barro مثلما عاش فى عهد والده ، وحيث إن نفوذه الشخصى كان قويًا ، فقد صمم على السيطرة على العرش ، وعلى هذا فإنه بعد أن أتم استعداداته وضع نفسه على رأس أعوانه وهاجم سنى بارو فى مدينة دنجها Dangha ومع ذلك فقد جمع الغازى الخسائر بالجيش وتمت إبادتها لكن سنى بارو اضطر للهرب أخيرًا من البلاد ولم يعد إليها ، وتولى محمد بن أبى بكر السلطة فى عام ١٤٩٤ .

لما وصلت الأخبار إلى بنات سنى علىّ صاحت البنات قائلات (أسكيا) والتى تعنى (إنه ليس هو) أو المغتصب ، ولما ترددت هذه الكلمة عنده قرر عدم ذكر اسمه إلا باسم الأسكيا محمد ، وصار هذا اسمه بعد ذلك ، وهكذا وصلنا إلى ثالث وآخر أسرة من سنغى ، التى حكمت من ١٤٩٤ حتى ١٥٩١ .

لقد أظهر أسكيا محمد قدرة سياسية معقولة منذ اللحظة الأولى لتوليه السلطة حيث تبنى فكرًا جديدًا من ناحية الدين ، وبعد عدة شهور من توليه السلطة أعلن أنه لابد من احترام الدين الإسلامى فى أرجاء الدولة،

وبدلاً من السحرة استبدل بمستشاريه منهم رجال الدين ، وقدم إليهم الهدايا والهبات ، وكان يأخذ بمشورتهم فى كل شىء ، وأسرعوا بدورهم فى تبرير شرعية اغتصاب السلطة وخولوه بالاستيلاء على ثروة الغازى وساعدوه فى تشويه صورة الحاكم السابق . وأشاروا فى المجلس إلى أن سنى علىّ كان أبرز الوثنيين ، وأن الحرب التى قادها الأسكيا ضده ضرورية، وباختصار حرب مقدسة وممتازة . ويقول علماء السيرة الذاتية إنه كان رجلاً عظيمًا وإنه كالنور البراق الذى سطع بعد الظلام الدامس، والمنقذ الذى خلص أتباعه من العبودية وأنقذ الوطن من الدمار . إنه حامى العقيدة الذى بسط لواء المحبة ووزع الصدقات والعطايا على كل من حوله . وما إن استقرت أمور الدولة حتى وضع الحكم فى يد أخيه عمر ، وواصل شرعيته فى السلطة بأداء فريضة الحج وسافر إلى مكة والقاهرة عام ١٤٩٧ ، فلقد قام بأداء الفريضة إلى بيت الله ويرفقته ألف من الجنود المشاة وخمسة آلاف فارس وحمل معه ثلاثمائة مثقال من الذهب من خزائن سنى علىّ . ووزع الثروة فى المسجد الحرام فى مكة ، واشترى حدائق المدن الأخرى، وأسس معهداً للصدقات لشعب السودان. وهذا المكان معروف فى مكة وتكلف خمسة آلاف مثقال ، وبعد ذلك قام بوضع عمامة خضراء وشال أبيض على رأسه . وكان للقيام بهذه الرحلة أثر على عهده وشعبه لأنه أثار اهتمام رجال الدين والعلماء أثناء وجوده فى القاهرة وكان يأخذ بمشورتهم ، ويستمع لنصائحهم ، ورحب بالعالم المصرى السيوطى الذى اشتهر فى الأدب العربى وافتتح معه

سلسلة من الرسائل عند عودته إلى سنغى ، وكان يستجيب لكل إصلاحاته ، ولم يهمل أى نصيحة له ، وفى القاهرة - بلا شك - اكتسب هذه الأفكار عن الحكم والتى نظمتها عبقريته ، وأقام نظاماً قوياً ودائماً استمر حتى نهاية عصر أسرته ، وعلى هذا - مره ثانية - نجد أن مصر تمارس دوراً ونفوذاً حضارياً على السودان .

وبعد أن حمل الأمير أسكيا محمد لقب الحاج إثر هذه الرحلة الطويلة ، وترك أمور الحكم بدوره وجعل أخاه عمر القائد العام ، ولم يكن لقب الاثنين سهلاً لأن غزوات سنى علىّ غير المنظمة كان لابد من تقصيرها وتجديدها ، ولم تمر سنة من حكمه دون القيام ببعض الحملات، وكانت الحملة الأولى ضد مملكة الموسى **Mossi** فى عام ١٤٤٩ تلك المملكة التى تقع فى جنوب سنغى والتى مارست سياسة عدوانية ، ووسعت حدودها ناحية شمال الوادى (جورما) ووصلت إلى ولاتا **Oualata** ، ويصف تاريخ الفتاش طريقة إخضاع الأسكيا لهذه المملكة على النحو التالى :

أرسل الأمير سفيراً إلى ملك موسى يطلب منه اعتناق الدين الإسلامى ، ورد الملك قائلاً إنه لابد من استشارة أسلافه الذين رحلوا إلى العالم الآخر ، ولهذا الغرض اتجه إلى معبد الوثنيين وبصحبة بلاطه والسفير الذى كان مندهشاً لكيفية الاتصال بالأموات ، وبعد القيام بالمراسم العادية الوثنية ظهر رجل عجوز عرضوا أنفسهم عليه وتسلم رسالة الأمير وكان جوابه إننى لا أنصح بفعل هذا العمل ، ويعنى هذا

الرد أنه يجب أن يحاربوا ضد مملكة سنغى حتى يفنى الجيش كله أو أنفسكم ، وبعد ذلك قال للسفير : ارجع إلى سيدك وأخبره أنه لا شىء سوى الحرب بيننا وبينه . وعندما غادر كل الحاضرين المعبد تحدث السفير إلى هذا الكائن الذى ظهر فى شكل رجل عجوز وقال له (بسم الله الرحمن الرحيم) من تكون أنت؟ وكانت الإجابة (إننى الشيطان) ، ولقد ضللت هذا الشعب حتى ينتهوا فى وثنيتهم . وحكى السفير كل هذه الأمور للأمير ، وبعدها بدأت حرب مقدسة وانتصرت جيوش الأسكيا ودمرت قراهم وحقولهم ، وأسروا النساء والرجال والأطفال ودعوا إلى الدين الإسلامى .(٨)

وبعد أن أخضع الجنوب كان عليه أن يتجه إلى الغرب وكان من الضرورى أن يدمر مملكة مالى وهى مهمة استغرقت اثنى عشر عامًا (١٥٠١ – ١٥١٣) وتم الاستيلاء على العاصمة زالنا Zalna وتدميرها بشكل لايمكن معه التعرف عليها وعلى موقعها المهم . وبعد ذلك جاءت حرب وحشية أخرى على المدن والمناطق وأجناس شعب مالى . وكان النضال والكفاح عنيفًا من الجانبين ، وكان تحقيق النصر والسيادة غاليًا كما توضح الرواية ، لقد فقد الأمير الكثير من خيرة رجاله فى مالى لدرجة أن أخاه عمر بكى قائلاً : إن شعب سنغى سيندثر ، ولكن أجاب الأسكيا : على العكس إن هذه الدول المهزومة ستجعل حياتنا أفضل لأنها ستصبح جزءًا منا وسوف تساعدنا فى مشروعاتنا . وبهذه الطريقة خفف من حزن أخيه وأراح باله ، واتجه الأسكيا ناحية الشرق بعد أن

أخضع الغرب وأعاد تنظيم هذا الجزء من الإمبراطورية التى تقع فى المناطق المجاورة لبحيرة تشاد (١٥١٤ - ١٥١٩) وأكدت أغاديس استقلالها عن البربر ، وكان عليه أن يغزوها مثلما أخضع سنى علىّ جنى من قبل ، وأيضًا أخضع ممالك كاتسينا Katsina وكانو Kano وكتسنا Ketsina وأخيراً زمفرا Zamfara ، وهكذا توسعت إمبراطوريته من مناجم ملح تاكيدا Thegazza فى الشمال إلى باندوك Bandouk أو أرض باماكو Bamaku فى الجنوب ، ومن بحيرة تشاد فى الشرق إلى شواطئ المحيط الأطلسى فى الغرب. إنها مسيرة ستة أشهر لكى تعبر هذه الإمبراطورية الواسعة كما تقول المصادر المعاصرة .

ومع ذلك فإن فترة حكم أسكيا الكبير لم تتميز بسبب غزواته مثلما اشتهرت بالطريقة المثلى فى الحكم الذى أقامه فى الدولة والمشاق التى عاناها لضم هذه الأجزاء من الإمبراطورية لسنغى ، وعلى عكس سنى علىّ فإنه لم يكن راضيًا وقانعًا بطلب الضرائب ، ولكن دمر وحطم كل النظم السابقة ، وأعاد بناءها ، ووضع إدارتها فى أيدى عماله الخصوصيين ، وعلى هذا لم تكن الإمبراطورية مجرد عمل مؤقت بل توسعت فعلاً وامتدت لفترة طويلة ، ويقال إنه طبق أوامره فى أطراف الإمبراطورية مثلما طبقها فى القصر الملكى نفسه .

وأنشأ مناصب أربعة نوابٍ للملك للإشراف على الحكام فى المديريات ، وعين الرؤساء العسكريين والقضاة وجامعى الضرائب ، وكانت النيابة الأولى فى داندى وهى تحكم منطقة بحيرة تشاد والنيابة الثانية فى منطقة بانكو وتشرف على المنطقة بين تمبكت وجاو فى

الشمال، والنيابة الثالثة فى بالما Balma وتحكم كل الجزء الشمالى الغربى من تمبكت وجامبرا إلى تيجازا وتشمل إشراف الملك على جماعات الطوارق ، بينما النيابة الرابعة والأهم فى كورمينا عاصمة تندرما وتضم حكومة باجهينا (مالى) وبارا عاصمة سا Sa ودرما عاصمة ديرا Dira وماسينا .

أما الحكومات الكبرى فى أقاليم باندوك وكالا Kala (سانساندتج) وهمبورى Hombouri فليس لها نواب . ويتم الاختيار للمناصب الكبرى فى الدولة من الأسرة الملكية أو الذين يتزوجون أميرات الأسرة مثل القواد العسكريين ورجال الدين .

وهكذا تشكل الإدارة أسرة من الأرستقراطية التى تكون وحدة وطنية قوية ، وهناك عامل مهم ساعد على تدعيم السلطة وفرض الأمان والتوسع فى الغزو ، ونشر الرخاء فى الدولة ، ويتمثل هذا العامل فى إنشاء جيش دائم . لقد أساء سنى علىّ تنظيم سنغى بإجبار كل السكان على مواصلة حروبه ، ومن جهةٍ أخرى فإن الأسكيا قسم شعبه إلى أتباع وجنود ، وكانت هذه المجموعة من الجنود المدربة هى التى واصلت توسعاته ، وكوَّن قوة فرسان مدربة ومسلحة بالدروع والحراب تمتطى خيولاً قوية جلبها من الدويلات البربرية ، كما انضم الطوارق إلى الجيش وكونوا قوات مساعدة . وكانت قوات المشاة عديدة ومسلحة بالرماح والسهام المسممة، ويرتدون خوذاتٍ ودروعًا ، وعندما تتوسع الدولة فى أماكن جديدة ، ولاتوجد قوات كافية لحفظ النظام بها يقوم الأسكيا بتجنيد

قوات حديثة من بين المناطق التى غزاها ، وهكذا يحقق الآمال التى طلبها أخوه عمر فى أثناء حملته ضد مالى ، لقد ساعد تقسيم السكان إلى مدنيين وعسكريين على جعل العناصر التجارية والإنتاجية تواصل أعمالها بسهولة ويسر ، حيث تطورت التجارة بشكل مدهش ضمن انتظامها وأمانتها ، وصدرت أوامر بتوحيد المقاييس والموازين ، وشدد العقوبة على كل أعمال الغش ، وكانت كل سوق مهمة تحت إشراف مفتش، وكانت جنى مركزًا للتجارة الداخلية ، بينما احتكرت تمبكت العلاقات بين الغرب والشمال الغربى (مراكش وتوات أساسًا) ، أما جاو فقد احتكرت التجارة مع الشرق والشمال الشرقى (مصر وطرابلس) ويشكل نهر النيجر الطريق التجارى الرئيسى لأن الجزء الأكبر من الصفقات التجارية كانت تنتقل على النهر ، وتنتشر البضاعة الأوروبية بكميات كبيرة إلى داخل العالم الأسود وكان الطلب عليها كثيرًا لدرجة أن الإمدادات لا تفى بالمطلوب . ومع قطار التجار جاء الأجانب المتعلمون بأعداد كبيرة إلى السودان عندما سمعوا عن حسن استقبالهم وقد جاءوا من مراكش والجزائر والقاهرة . لقد كان العلم والأدب محددًا ولم يبرز أدباء سودانيون من ذوى الاهتمامات الكبرى ولكنهم زودونى بتفاصيل سوف أتحدث عنها بإسهاب عندما نصل إلى تمبكت حيث لم يهمل الأسكيا الدين وجعله من بين اهتماماته العديدة حيث صار هو نفسه شيخ الإسلام ومقره تمبكت ، ولقد أصبح الملك سلطة مشابهة جنبًا إلى جنب مع الخليفة العباسى فى مصر ، والذى تبنى هذه المؤسسة نظامه الدينى بالمستوى نفسه ، وجعل نفسه دائمًا بعيدًا عن الأنظار ،

ولم يهتم أسكيا الحاج بأن يراه أحد كما يقول (تاريخ الفتاش) وحث أخاه عمر على أن يحذو حذوه ، وقال له لا تظهر نفسك حتى تتقى العين الشريرة واجبر نساء المدن بالسير مثل النساء الشرقيات وحرم على أى امرأة متزوجة أن تظهر دون نقاب وطلب من نسائه أن يكن القدوة فى ذلك . وقد غطى الرجال الذين يقتربون من الملك ويستمعون إليه رءوسهم بالتراب ، ولم يتحدث مباشرةً فى الاجتماعات وإلى الناس ولكن كان يتعامل معهم من خلال وسيط ، وفى مناسبات الخروج - تتقدم موكبه فرق الموسيقى والطبول ويركب منفرداً وخلفه الحاشية على بعد مسافة ، ويسير الخدم حول فرسه ، ويمسكون السرج بالتناوب ويسمون رفاق المشاة ، ويطلق على رئيسهم لقب سيد الطرق ، ومن حق النواب القيام بهذه المراسم نفسها لكن بشكل أقل حيث يسمح فقط بطبلة واحدة فى المسيرة، وتتوقف الموسيقى عند رؤية أية مدينة يسكنها الملك .

وباختصار فإن الزنوج الملكيين مثل مغتصبى السلطة من البيض يقومون باستعراض القوة والعظمة ولكن كل هذا عديم القيمة أمام الصفات العظيمة لحاكم سنغى .

لقد حدثت حوادث مدهشة لهذه الدولة فى القرن السادس عشر ، وظهرت حضارة خالدة فى قلب القارة السوداء . ولم تفرض الظروف هذه الحضارة بالقوة ، كما هو الحال دائمًا حتى فى بلدنا ، ولكن كانت مرغوبة بشكل تلقائى ، أثارها وطورها رجل من الجنس الزنجى .

ومـن سـوء الحـظ لم تـكـتمـل هـذه الأمـانى بـسـبب الخلفاء من الوطنيين إلى جانب الشعوب المتحضرة (أى البيض) الذين دمروا كل هذه البذور الطيبة بوحشية ، وأعادوا البربـريـة للظـهـور من جديد ، وبعد خمسة وثلاثين عامًا من المسئوليات بدأ انهيار الأسكيا العظيم حيث اشتاق أبناؤه وعددهم مائة إلى الانفصال عنه ، وأخيرًا ثار الابن الأكبر موسى وعزل والده فى جاو عام ١٥٢٩ ، وكل ما فعله موسى وإخوته هو العيش فى مبانٍ ضخمة أسسـها رئيس الأسرة ومؤسسـها ، وسوف أحكى فقط خصوصيات حكمهم والتى تساعدنا على أن نكوّن فكرة عن الشخصية وأخلاقياتها وعادات الناس فى ذلك الوقت.

وكان أول اهتمامات موسى مواجهة طموحات أفرط إخوته بإعدام عدد منهم ، وبعضـهم قاوم القوات المسلحة خاصةً بالا Bala أحب أبناء والده وقال : إننى مستعد للموت بشـرط فـى أمرين: أن أُعطى لقب أسكيا أو أُلقى التراب على وجهى عند حضور الموكب ، وقام موسى: بحفر فجوة عميقة حيث وضع بالا وأحد أبناء عمومته فيها ثم ملأها بالماء ، وتم غرق الرجلين . وحاول شيخ الإسلام أن يتوسط بين موسى وإخوته، واتخذ مكانه بجانب موسى ولفت وجهه بعيدًا عنه وسأله موسى: (هل تتجرأ وتعطينى ظهرك ؟ وأجاب الشيخ : إننى لا أستطيع النظر إلى الذى عزل أمير المؤمنين الحقيقى) ، وفى مناسبة أخرى قال مرابط آخر : لقد عشنا فترة رخاء وارتياح فى ظل حكم والدك الرجل الطيب والمرح وكنا ندعو الله أن ينصره طوال حياته وكنا نسأل أنفسنا : أليس لديه ولد

يستطيع أن يكون أمل الإسلام ودعونا لك ولوالدك ، ولم نتوقف عن الدعاء وبدلاً من أن ندعو لك سوف ندعو ضدك . وعندما وجد إخوة موسى هذه العملية قتلوه ، وحكم الدولة ابن أخى الأسكيا العظيم وحمل لقب أسكيا بنكورى **Bankouri** عام ١٥٣٣ ، ولكنه أيضًا تسرع فى إزالة عدد من أبناء عمومته وأظهر قسوة متزايدة معهم ، وكان موسى قد ترك الأسكيا يعيش فى هدوء داخل قصر جاو ، ولكن بنكورى نفاه فى جزيرة كانكاكا **Kankaka** غرب هذه المدينة حيث كانت الضفادع تقفز حوله كما تقول الرواية . ويبدو أن بنكورى قد دعم سلطته بشدة وكان بلاطه ممتازًا ؛ لأنه أحب أن يُحاط بكل أصحاب المقام الرفيع الذين يرتدون أفخم الثياب ، وكانت الموسيقى تصدح بصوتٍ عالٍ ، وأسس نظام غناء الفرقة الموسيقية، وفى عام ١٥٣٧ عزله النائب داندى **Dandi** الذى كان يهدده باستمرار ، وصار الأسكيا إسماعيل ملكًا وكانت دوافع توليه السلطة كثيرة ومتعددة وأعلن أنه قبل المنصب لأسباب ثلاثة وهى : لكى أنقذ والدى من هذه الحالة السيئة ، ولكى أمكن أخواتى البنات من ممارسة لبس الحجاب الذى أجبرهن بنكورى على خلعه ، وأخيرًا لكى أهدئ يان مارا **Yan Mara** وهى إحدى مئات النعام التى كانت تصاب بحالة من الجنون عندما ترى بنكورى ، ويحكى تاريخ الفتاش أن أسكيا الكبير قد عاد إلى قصره فى جاو ومات آمنًا هناك فى عام ١٥٣٨ ، وكان إسماعيل أول الأساكى الذين ماتوا وهم فى السلطة عام ١٥٤٠ وخلفه أخوة أسكيا إسحاق ، وكانت عنده مثل بقية الأساكى مشاعر

عدائية قوية ، حيث وضع نهاية لعدد كبير من أقاربه ، ويقال إنه دمر أحدهم من خلال الرقية السحرية . أما بقية الأساكى الأربعة الذين حكموا كل المملكة فكانوا أسكيا داود (١٥٤٩ - ١٥٨١) ، وأسكيا الحاج (١٥٨١ - ١٥٨٦) ، وأسكيا محمد بان (١٥٨٦ - ١٥٨٧) ، وأسكيا إسحاق (١٥٨٧ - ١٥٩١). وقد قام هؤلاء جميعًا ببعض الحملات لا من أجل غزو مناطق جديدة ، لكن من أجل الحفاظ على الأماكن القديمة ، كما أنهم لم يكونوا فى حاجة لتوسيع ميراثهم العظيم كما نفهم جيداً ولم يحاولوا تحسين الأوضاع ولا تشجيع عمليات التطور والتقدم التى استنها جدهم الأول . لقد كان كل انشغالهم فى الأحقاد العائلية والخوف الدائم من المنافسة ، وتحولوا من الخوف من الله إلى أعمال وثنية وكانوا يشربون الخمور ، وارتكبوا أعمالاً مخالفة للشريعة ، وكانت جريمة الزنا خطيئة مشتركة بينهم ، بل ارتكب بعضهم هذه الجريمة مع أخواتهم ، ورغم عدم اهتمام الحكام فإن الجهاز القوى الذى أنشأه الأسكيا الكبير استمر يعمل بكفاءة ، ولمدة تصل حوالى ربع قرن ، وعانت الدولة عدم زيادة رخائها ، ولكن ظلت قوية البنيان فى كل أسرة الأساكى .

والآن ظهر المغاربة الغزاة ، وتعرضت إمبراطورية سنغى للانهيار ، وصارت مستعمرة مغربية ، وهذا ما يجعلنا نقول إن الجيش المغربى قد قام بأسوأ عمل فى السودان .



الفصل السابع

المغاربة فى السودان

فى القرن السادس عشر عمت شهرة السودان وتجارته ورخاؤه الآفاق ، وعادت القوافل التجارية على طول السواحل معلنةً هذا الرخاء وذلك الثراء ، وحملت الجمال حمولات من الذهب والعاج والجلود وريش النعام ، وحاول البرتغاليون - وهم أول التجار الذين مارسوا التجارة هناك فى ذلك الوقت - إقامة علاقات مع دول النيجر التى صارت مضرب الأمثال. "حيث إن الماء يشفى مرارة الجمل فإن الفقر لا يجد علاجًا ناجحًا فى السودان" ، كما يقول المثل فى شمال أفريقيا .

وهكذا تجمعت كل وسائل الجذب تحت سماء واحدة مما جعلها مثار الاهتمام ، وبالتدريج سال لعاب الدول المجاورة ، ودفعتها غريزة الجشع وحب المال ، ومن الطبيعى أنه من بين أقرب الدول للسودان كانت دولة (مراكش) ، ومن البداية اتسم حقدهم بصفات قاسية وغريبة؛ لأن شعب مراكش لم تكن لديه إطلاقًا رغبة فى الاستعمار وتطوير التجارة .

ولا حتى القيام بدعوة (دينية) بل نظروا إلى السودان باعتباره منجمًا للذهب ، وكان أول طموحاتهم مثل كل جهودهم هو التركيز على الاستيلاء واستغلال هذا المعدن الثمين ، وكانت هذه الرغبة فى السيطرة والتملك أحد الأخطار التى واجهت السودان ، فضلاً عن أنها صارت وسيلة لتعريض إمدادات الملح للخطر .

إن داخل بلاد السودان يفتقر إلى هذا الإنتاج الضرورى حيث يمثل الملح – ولا يزال – أهم سلعة تجارية ، إنه حقًا الذهب الحقيقى للسودان وأهم السلع لديهم ويحصلون عليه من مناجم تكدا **Thegazza** التى تقع فى قلب الصحراء ، وكانت هذه المناجم قريبة من مراكش أكثر منها لدول النيجر ، لكن تكدا كما سنرى كانت ملكًا لشعب سنغى ، وتحت تصرف ممثلها الأمير .

لقد بدأت العداوة والبغضاء منذ منتصف القرن السادس عشر ، ففى عام ١٥٤٥ أرسل مولاى محمد الكبير سفارة إلى ملك سنغى يدعى ملكية مناجم الملح فى تكدا لأنها تقع داخل حدودهم ، ولم يقبل الأسكيا إسحاق هذا الادعاء وذلك الافتراء ، وأكد نكران هذا الطلب ولا حتى الجدال حوله ، وزاد هذا التأكيد بإرسال جيش من الطوارق لنهب مدينة درا **Draa** التى تقع على حدود مراكش ، وهو إيحاء بأنه قوى ويستطيع الدفاع عن ممتلكاته ، وأنه مستعد للقيام بهذا إذا ما فكر السلطان منازعته فى حقوقه .

لقد أخذ السلطان يفكر عشرين عامًا فى هذا الأمر ولم يفتح هذا الموضوع من جديد حتى فترة حكم جديدة استهلها مولاى عبد الله الذى لم يطلب الادعاء على مناجم تكدا بل طلب إيجارًا عن استخدام هذه المناجم واستغلالها ، وكان السودان فى هذه الفترة تحت حكم الأسكيا داود، الذى لم يقبل مسألة دفع جزية وأرسل بعثة تصالحية للسلطان ومعها هدية تتكون من عشرة آلاف مثقال من الذهب (١٥٠,٠٠٠ فرنك) ولقد انبهر السلطان بقيمة وفخامة هذه الهدية ولم يطلب أية أشياء أخرى حتى عام ١٥٤٧ .

واقتربت ساعة الحسم واللحظة المميتة مع تولى السلطان أحمد المنصور، حيث لم تتم عملية إصلاح مهمة فى عهد السلطان السابق، وحيث زاد من كفاءة الجيش وزوده بالمدافع والأسلحة النارية .

لقد شغل السلطان المنصور نفسه بالسودان منذ توليه السلطة ، حيث أرسل سفارة فى عام ١٥٨٣ حاملة الهدايا القيمة ، ولكن كان الهدف الحقيقى هو التعرف على الطرق والمدن الرئيسية فى سنغى مع دراسة لأحوال الجيش ، واستقبل أسكيا الحاج البعثة بالحفاوة والاحترام فى مدينة جاو وأعادها محملة بهدايا أعظم مما جاءت به ، وكان هذا هو وقود النيران ، وكان المنصور قلقًا حتى لا يضيع فرصة التفكير والاستعداد للغزو وأعد جيشًا من عشرين ألف رجل ، وتحرك متجهًا إلى تمبكت ، وكان الطريق عبر الصحراء طويلاً وشاقًا ومرهقًا ، ولم يكن مزودًا بأى وسائل للراحة لهذا الجيش غير المتوقع ، وهدد

الجوع والعطش هذا الجيش من الغزاة بالتراجع ، واكتفى السلطان بترك مجموعة من ألفى رجل للتمركز فى مناجم تكدا ، ولكن السلطان تخلى عن هذا الموقع وتحرك لمناجم أخرى فى تودينى **Taoudenni** التى زودتهم بهذا الإنتاج الوفير غالى القيمة .

وصارت لدى المنصور كميات كبيرة من الملح أكثر من احتياجاته ، لكن ليس لديه الذهب الذى ظل يشغل بال السلطان ، وعندما تولى السلطة ملك جديد فى سنغى ، عاود سلطان المغرب طلب الجزية ، وطالب بمثقال من الذهب لكل حمل من الملح يدخل السودان ، ورفض أسكيا إسحاق الثانى ، وأرفق مع رفضه هدية من السيوف ، وكان من الممكن أن يزيد على ذلك ويتبع ذلك مثال إسحاق الأول بإرسال قوة من الطوارق لإظهار القوة على حدود مراكش ، وكالعادة بدأ المنصور بالمبادرة .

لقد شرح المنصور خطته بعد أن اجتمع مع مجلس عظيم من أبرز مستشاريه وكانت المناقشة على النحو التالى:

"لقد قررت الهجوم على السودان ، إنه بلد غنى جداً وسوف يزودنا بالكثير من الضرائب ، وسوف نتمكن من تقديم الدعم والأهمية للجيوش الإسلامية" . وبعد أن أفرغ السلطان كل ما فى جعبته من أفكار كما يقول مؤرخ مغربى – إلا أنه لم يجد حماساً من مستشاريه – وقالوا: "أيها الأمير إن صحراء شاسعة تفصل بيننا وبين السودان وحيث

لا يوجد زرع ولا ماء هناك ،" وجاء رد المنصور : "إذا كان هذا هو كل اعتراضكم ، فإننى لا أجد ما يمنع تنفيذ قرارى ، إنكم تتحدثون عن خطورة الصحراء والوحدة الخطيرة ، ولكنكم تشاهدون يومًا بعد يوم تجارًا ضعفاء وفقراء فى إمكانهم أن يخترقوا هذه المناطق ، ويعبروا الصحراء على الأقدام أو على ظهور الخيول والإبل فرادى وجماعات . ألا أستطيع أن أقوم بعمل مثل هؤلاء ؟ فأنا أكثر منهم تجهيزًا واستعدادًا . إن الغزو أمر سهل جدا ؛ لأن السودانيين لا يعرفون شيئًا عن البارود أو المدافع ، إن كل ما لديهم صواريخ ذات أصوات مخيفة ، إنهم مسلحون فقط بالحراب والرماح التى لا تؤثر إطلاقًا على قواتنا ، ولماذا لا نشعل حربًا ضد الأتراك الذين يثيرون الشغب دون فائدة ؟ وعندئذ يكون السودان غزوًا سهلاً بل وأغنى المناطق فى كل الشمال الأفريقى" . وقد اقتنع المستشارون بكل هذه الفصاحة وقالوا:

"يا سيدى لقد أوحى الله إليك بالحقيقة ، ولا نملك أن نقول شيئًا ضد عملية الغزو ، وهكذا صدق القول إن عقول الأمراء هى أسياد العقول" .

لقد بذل المنصور جهودًا شاقة لتنظيم الجيش ، لكنه لم يكن كبيرًا فى عدده ، بل أحسن اختياره ، واختيار أفضل الرجال وأشجعهم وأكثرهم إخلاصًا من بين جنود البدو ومساعديهم ، وزودهم بأفضل الإبل وأسرع الخيول .

ونجح المنصور بهذه الطريقة فى جمع ثلاثة آلاف مقاتل ، وألف من الفرسان والمشاة ، وأوكل مهمة القيادة إلى جودار باشا ومعه عشرة من أتباعه (أو القضاة) وغادرت البعثة مراكش فى طريقها للسودان فى عام ١٥٩٠ ، ودخلت السودان من جهة الغرب بالقرب من منطقة البحيرات جنوب تمبكت ، ووصلت طلائعها إلى شواطئ النيجر ، واعتبرت هذا نصرًا أوليًا ، واحتفلت بهذا التقدم وسط مباهج الفرح والسرور ، واتجهت بعد ذلك نحو العاصمة جاو ، وعندما سمع إسحاق الثانى بوصول المغاربة أعد جيشًا من ثلاثين ألفًا من المشاة واثنى عشر ألفا من الفرسان ليواجهوا الغزاة ، وفى فبراير ١٥٩١ دارت معركة تونديبى **Toundibi** التى لا تبعد كثيراً عن تمبكت .

ولم يخطئ المنصور فى تقديراته عن جيشه ، حيث تم سحق جيش سنغى تقريبًا عند إطلاق النيران فى لمح البصر كما يقولون ، وكانت الصدمة المفاجئة من الدخان والضوضاء من المدافع التى أعجزتهم حتى عن الهرب وجنودهم تمسك الدروع ، وقد التفت الساق بالساق فى انتظار الغزاة ، ولم يقاوموا عمليات القتل ولم يدافعوا عن أنفسهم ، وقام المغاربة بذبحهم دون هوادة ولم يستمعوا إلى صراخ الناس وهم يقولون ويصيحون : "نحن مسلمون إننا إخوانكم فى الدين" .

واستمرت المحنة وازدادت المعاناة والمأساة طوال المعركة ، بل وانتشرت فى كل أنحاء الدولة ، وكان الأسكيا إسحاق الذى ذهب إلى

أرض المعركة وكله ثقة بالنصر ، وحوله السحرة والمشعوذون قد أصيب بصدمة كبرى ولم يبذل أية محاولة للمقاومة حتى فى العاصمة ذاتها ، وعندما تلقى أمرًا بالجلاء عن العاصمة ، هرب الأسكيا مع جماعته إلى دولة (برنو) فى الجنوب الشرقى دون محاولة لمعركة ثانية .

ودخل جودار باشا العاصمة دون أن يطلق رصاصة واحدة ، وأسرع الأسكيا إسحاق لعقد شروط السلام ، وقبل طلب دفع الجزية السنوية ، كما قدم هدية من مائة ألف مثقال من الذهب ، فضلاً عن مائة من العبيد واعتبر الباشا هذه الشروط مقبولة فقام بتحويلها إلى السلطان مع إرسالية من العبيد وحمولة من الذهب ، واتجه بعد ذلك إلى تمبكت التى استولى عليها دون مقاومة ، وانتظر هناك أوامر سيده .

ومع هذا فإن المنصور لم يحدد لنفسه نهاية لحدوده ومناطق نفوذه، وقد أذهله هذا النصر المفاجئ ، وحصل على الكثير من تبر الذهب والرقيق وغيرها من السلع القيمة كما تقول الروايات ، وبدأ يصدر عملة ذهبية قيمة ، وكان هناك أربعة عشر ألفًا من الحدادين فى قصره يعملون فى تحويل الذهب إلى عملة ، بينما تم تحويل جزء آخر من الثروة إلى عقود ومجوهرات ، ومُنح السلطان لقب الذهبى .

واستمرت الأفراح والاحتفالات فى مراكش لمدة ثلاثة أيام ، وجاءت الوفود من كل أجزاء الدولة لتقدم التهانى ، وألف الشعراء قصائد للتمجيد بعظمة المنصور ، ووصفوه بأنه أساس هذا المجد الذى ينتمى إليه الجميع .

وكان انتصار البيض على الزنوج قد تم تسجيله فى هذه الصورة الرائعة : "إن جيش النهار قد سقط على جيش الليل ، وبياض أحدهما قد دمر سواد الآخر" .

ولكل هذه الأسباب كانت بهجة المغاربة بهذا النصر وكما يقول تاريخ الفتاش : لقد وجدوا أن السودان ينافس الدول التى حباها الله وفضلها أكثر منهم ، ويتنافسون فى الرخاء والأمان والوفرة والصحة ، وكل هذه المزايا جاءت نتيجة فترة حكم أمير المؤمنين أسكيا الحاج ، لكن بعد هذا الوقت تغير كل شىء ، حيث تحول الأمان إلى خوف ، وتحول الرخاء إلى دمار ، والصحة إلى مرض وآلام ، وبدأ الناس يحاربون وينهبون بعضهم بعضًا .

وقام المنصور بإزاحة جودار باشا من منصب القيادة لأنه لم يكن راضيًا عن اعتداله ، وأرسل فى الحال باشا آخر هو محمود ناحية الجنوب ، وعسكر محمود بعد وصوله إلى تمبكت ، ورحل مع الجيش لكى يبحث عن ملك سنغى ، الذى بدأ يعد العدة للحرب من جديد بعد أن سمع بأن شروطه قد رُفضت ، لكن جاءت كارثة بامبا **Bumba** مثل المقابلة الأولى ، واضطر الأسكيا إسحاق إلى التقهقر ناحية الجنوب .

وفى هذه الظروف الصعبة أصيبت دولة سنغى بالضعف نتيجة الخلافات الداخلية حيث طالب نصف الجيش بأن يكون أسكيا كاجو **Kaghou** ملكًا ، وصار أسكيا إسحاق ضعيفا جدا لدرجة أنه لم يبذل

أية محاولة لاستعادة عرشه وسيادته ، واختفى من مسرح الأحداث بشكل مأساوى وليس بطولى ، وقد جمع كل ضباطه وقياداته مع هذا الجزء من الجيش الذى ظل مواليًا له ، وجمع كل شارات الملك وأحرقها فى مكان يدعى تيرا Tera ، وذلك بعد أن قرر التخلى عن العرش لمنافسه.

وبعد ذلك انسحب الملك وضباطه الواحد بعد الآخر وهم يبكون ويطلبون العفو ، وكانت هذه آخر مرة يشاهد أحدهما الآخر ، وبعد ذلك بقليل مات أسكيا إسحاق فى جورما فى عام ١٥٩٢ .

وبعدها تقدم الباشا لتهدئة الأمور ، وتم خلع الأسكيا المغتصب للسلطة وهو أسكيا كاجو مع بطانته بسقوط المنزل الذى كانوا يقيمون فيه ، وعانى ثلاثة وثمانون عضواً من البيت الملكى بوسائل مختلفة من الموت حيث شنق البعض ، بينما غرق الباقون .

وقد لقيت تمبكت التى ثارت مرة ثانية ضد الغزاة عقابًا قاسيًا حيث تم استئصال أيدى وأذرع اثنين من أهم الشخصيات بها وتركا حتى الموت ، وتم ذبح الكثيرين من رجال العلم ومن رجال الدين والمرابطين الذين كانوا مثار فخر وإعزاز لهذه المدينة العظيمة ، وسجن البعض منهم، أو أرسلوا إلى مراكش ولم يعد منهم إلا عدد قليل .

ومع سقوط سنغى ثارت الكثير من المناطق المهزومة ، ودمروا الجنوب وشرق الإمبراطورية ، ووقعت نصف المملكة ضحية الفوضى ، وحاول الفولنى والطوارق البمبارا توحيد أنفسهم ، وتجمعت قواتهم

بمساعدة القضاة ، وهاجموا باجهينا Baghena ودياركا Diarka وجنى ودول أعالى النيجر ، وقد أثاروا الرعب والخراب حيثما حلوا .

وفى الوقت نفسه انشغل الباشا محمود فى أقصى أطراف المملكة فى هومبورى Houmbouri ودادى التى لجأ إليها بعض أهالى سنغى مع أسكيا نوى Noe .

وفى عام ١٥٩٥ اكتمل الغزو ، وأدرك المغاربة أن النيجر هو مفتاح السودان فقاموا بتحصين ضفافه من الشرق إلى الغرب وأقاموا حاميات فى جنى وتندرما وبمبا Bamba ، وجاو Gao وكولانى فى أقصى الجنوب الشرقى ، ووضعت كل هذه القلاع تحت إمرة أحد القواد ، ولقد حمل حاكم المستعمرة لقب الباشا ، ويعينه السلطان الذى يرسله من مراكش، ويمارس السلطة المدنية فقط ، وكانت القيادة الرئيسية للقوات تحت إشراف قائد ، وكان هناك لقب الحكيم الذى يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الخزانة ، وعين السلطان أميرين ، وسكن أحدهما فى تمبكت والآخر فى جنى ، وكانت هاتان المدينتان فضلاً عن جاو تمثلان أهم مراكز السيطرة والاحتلال ، وبعد ذلك تخلت جنى وجاو عن مكانة العاصمة لتمبكت التى تقع فى الطريق الرئيسى المباشر إلى مراكش، وصارت مقر الحاكم ، كما تمركز بها الجزء الأكبر من القيادات والقوات ومنها بدأت الحملات والتعزيزات .

ويمثل هذا الجانب المغربى من المستعمرة لكنها بقيت محتفظة بالطابع الوطنى . وبعد أن استقر الوضع للغزاة من خلال أعمال القسوة

– التى شاهدناها – أدرك الباشا محمود أن الإدارة لهذه الدولة لن تستقيم إذا دمر كل التنظيم ، فلقد انضم إليه بعض أفراد الأسرة الملكية منذ الغزو واستطاع أن يتعرف على واحد منهم وهو الأسكيا سليمان ، ونصبه ملكًا تحت إشرافه ، وهيأ له سكنًا فى تمبكت ، وتم الإبقاء على تقسيم الأسكيا الكبير وتوزيع الدولة إلى أربع نيابات ، واحتفظ الباشا بتعيين المناصب فى هذه الوظائف ، وتم تجنيد الطوارق والسنغى والفولبى ليكونوا نواة الجيش الاحتياطى المساعد .

وعندما يرحل المحاربون فى أى حملة كانت القوات الوطنية ترافقهم تحت إمرة الملك أو نائبه وبناءً على أوامر القائد .

واستمر هذا التنظيم يعمل بكفاءة لمدة أربعة وعشرين عامًا . ولكن بسبب الأحداث التى وقعت فى مراكش بدأ التحلل والانهيار ، فلقد مات المنصور مسمومًا فى عام ١٦٠٤ ، وانشغل خلفاؤه بالمؤامرات والخلافات الداخلية ولذا لم يهتموا بالسودان أكثر من مجرد إرسال حمولات الذهب.

وفى عام ١٦١٣ لم يعد تعيين حاكم السودان يصدر من مراكش لكن كانت القوات تختاره من بين قوادهم وحتى ذلك الوقت كان الجنود يلقون الدعم المستمر .

وفى عام ١٦١٥ وصل إلى السودان أكثر من ثلاثة وعشرين ألف جندى مغربى لكن تدريجيًا انخفضت هذه الإمدادات بل وتوقفت كليةً فى

عام ١٦٢٠ ، وكان السلطان يظهر اهتمامه إذا حدثت أية مضايقات أو شكاوى ، أو عندما لا تصل إمدادات الذهب بالقدر الذى يوازى توقعاته ، وفى هذه الحالة كان يصدر الأوامر بقتل أو إغراق بعض المسئولين هناك ، وفيما عدا هذا ترك المستعمرة تدير شئونها بالأسلوب الأفضل ، وكان القواد يعزلون بعضهم بعضًا ، ويتنافسون على منصب الباشا ، وكانوا يسوون هذه المنافسات بقوة السلاح ، وكان باشا اليوم يحكم ويعدم باشا الأمس ، وفى خلال ثلاثين عامًا من ١٦٢٠ وحتى ١٦٥٠ وصل عددهم ثلاثين فرداً ، وكان بعضهم يتولى المنصب لمدة ستة أو ثمانية أشهر ، وكان بعضهم يحكم لمدة أسابيع أو أيام ، بل وكان بعضهم يشغل المنصب لمدة يوم واحد ، ومن حين لآخر لم يكن هناك باشا على الإطلاق ، ولكن رغم هذه الخلافات والصراعات فإن المغاربة كانوا يتحدون ويتعاونون ضد أى تمرد من الأهالى .

ولم تستمر هذه الحالة طويلاً ، فلقد تمردت الحاميات وعمت المنافسات والصراعات بين الجنود مثلما حدث بين الرؤساء ، وانقسموا إلى شيع وأحزاب ما بين فاس ومراكش والمغاربة فى الجنوب ، ولم تكن هذه الصراعات موجودة عند تقدمهم ناحية السودان ، لكنها ازدادت وتفاقمت فى كل الحاميات وبالتدريج حصلت كل حامية على استقلالها وشكلت حكومة مصغرة تحكم المناطق المجاورة .

وظل حاكم تمبكت يحمل لقب الباشا لكنه كان منصبًا اسميًا ولم يعترف بسلطته إلا فى منطقته ، وكانت الرابطة الوحيدة الباقية بين

المستعمرة ومراكش هي دفع الجزية للسلطان والتي كانت تدفع بشكل غير منتظم .

وفي القرن الثامن عشر اكتمل استقلال السودان وتوقف استخدام كلمة المغاربة لتميز أسياد هذه المنطقة حيث تزاوج الغزاة السابقون مع شعب سنغي وتزايدوا وتكاثروا بشكل واضح ، وحمل أبناؤهم اسم الرماة Roumas بدلاً من اسم الغزاة الذين كانوا يثيرون الرعب عند أول ظهورهم في السودان ، واختفت تنظيمات الأسكيا المحلية ، وحصلت الكثير من المناطق على استقلالها تحت إشراف رؤساء محليين ، واحتفظ الرماة فقط بشواطئ النيجر التي استقر عليها أجدادهم ، واستقرت كل مجموعة في منطقة معينة ولا علاقة لها بغيرها من المناطق حيث ساد العداء ، ولقد استفاد من هذا العداء وتلك الفوضى عنصرا الطوارق والفولاني .

لقد كان الطوارق أول من استغل هذا الصراع حيث عبروا النهر وغيروا مواقعهم في رمال الصحراء الكبرى Sahara بتلك السهول الخصبة في شمال الوادي ، وفي عام ١٧٧٠ استولوا على جاو من أيدي الرماة ، كما استولوا على تمبكت في عام ١٨٠٠، وعطلت المنافسات المستمرة – لهذه التقسيمات القبلية – تنظيم عملية الغزوات ، لكن لم يحدث هذا مع جماعات الفولاني .

وعلى العكس من الرأي السائد بين الأوروبيين عن السودان والسنغال ، وتذكره حتى اليوم كتب الرحالة ، فإن الفولاني لم يدخلوا

السودان من الشرق ، ولم يفدوا من وادى النيل كما يعتقد البعض ، ويعرفونهم بالفولا Fellahr ولا توجد أى صلة بينهما ، إنهم جاءوا من الغرب من منطقة أدرار Adrar أرض الرمال الممتدة إلى شمال السنغال ويقول تاريخ الفتاش بكل وضوح "إن الفولانى هم من دول بلاد شنقيط Tischitt وإنهم يرتبطون بالجنس الأبيض مثل الطوارق ، وهم أيضا مثلهم بدو رحل .

ومن المحتمل أن اضطر الفولانى للعودة إلى السودان عندما غزا المغاربة المطرودون من أسبانيا منطقة أدرار ، ولم تكن هذه التحركات ناحية الشرق هجرةً أو غزواً ولا احتلالاً ، إنها كانت مجرد تغيير المراعى لهؤلاء الرعاة وماشيتهم ، واستقر عدد كبير منهم وسط مناطق ماسينا الخصبة ، وهناك سنشهد قيام إمبراطورية منتظمة تماماً فى عام ١٨١٥ .

ولم يطرد مؤسسها الشيخ أحمدو الرماة بل شن حرباً على الطوارق واستولى على تمبكت منهم وحقق كل هذه الإنجازات فى عشرين عاماً .

وأسس دويلة صغيرة تحكم منطقة ماسينا أو نوكونا Noukouna وحمل اسم أحمدو لوبو ، وأشاع أنه من الأشراف ومن أسرة الرسول _صلى الله عليه وسلم – وكان مثل كل الفولانيين متعصباً دينياً ، وفى أفريقيا وبلاد ما بين النيجر والنيل انتشر رجال الدين الحنيف السليم وكان هو واحداً منهم ، كما كان تاريخه غريباً لنا ومملوءاً بالتناقضات .

وقد كشفت المصادر العربية التى عثرنا عليها فى تمبكت تاريخه لنا ، وكان قد أعده وكتبه ونشره أحد رجال الدين التابعين للشيخ أحمدو ، ويتحدث المؤلف إلى كل أفريقيا وإلى سلاطين مراكش وتونس والجزائر وإلى الأندلسيين الذين طردوا من أسبانيا والمغاربة الذين بحثوا عن ملاذ ومأوى فى غرب أفريقيا بعد طردهم من أسبانيا ، وإلى كل السكان الذين يعيشون بالقرب من بحر الملح العظيم (المحيط الأطلسى) وإلى كل الشعوب التى تعتنق الدين الإسلامى .

"إن الخليفة الثانى عشر الذى يولد بعده المهدى ، إنه الشيخ أمير المؤمنين أحمدو بن محمد الذى جاء لإعادة الشريعة الإسلامية ، ونشر الإسلام فى السودان" .

وبعد ذلك كان من الضرورى أن يثبت أن صاحبنا هو الإمام الثانى عشر ، وإذا سألنى أحد عن الدليل لهذا كما يقول المرابط المخلص ، فإننى أجيب : "إن الجواب يكون فى الفتاش **Fatassi** وهو تاريخ بلادنا الذى كتبه رجل العلم والقانون محمود كونى أوكوتو **Koutou**" .

وقد بدأ المؤلف يحكى هذا التاريخ لكل الرجال المشهورين وكل أمراء سنغى بل وحتى إلى أسكيا الكبير ، وقد أدى بهذا عرضًا مزدوجًا ، وألقى الضوء على شخصية شعبية محترمة ، وأيضًا حافظ على التعاطف مع شعب سنغى ، وأفاض فى الحديث حول حكمة وشهرة وعظمة الأسكيا الكبير ، وتفاصيل رحلته الشهيرة للحج إلى مكة المكرمة ، وكان هو الخليفة الحادى عشر الذى تنبأ له الرسول الكريم .

ويستطرد المؤلف ويقول : إن الأسكيا تناقش مع السيوطى فى القاهرة وصار صديقًا له ، و إن الشيخ المشهور قد أفشى إليه بهذه النبوءة ، وأعلنه كملك السودان (سنغى) ، "إنه بعدك سوف يستقبل السودان الخليفة الثانى عشر الذى لن يكون من أسرة الأساكى ، وسوف يظهر رجل مقدس ورجل متدين يطبق الشريعة الغراء وسوف يطلق عليه أحمدو بن محمد من قبيلة علماء سنكور **Ulemas Senkor** وسوف يظهر فى جزيرة سبرماسينا ، وسوف يرث الخلافة منك وسوف يكون بشوش الوجه ، جميل الطلعة ، وسوف يوفق فى كل خطواته ، وسوف يحقق الآمال والعظمة وسوف يدرس العلوم ، بينما تعرف أنت العدالة والصلاة وقواعد الشريعة الإسلامية ، وهذا هو الخليفة الثانى عشر" .

وكان الملك العظيم هو الذى يهتم بهذه النبوءة ؛ لأنه يريد أن يعرف الكثير عن الخليفة الذى لا يرتبط مع عائلته ولكن يتفوق عليه فى المجد والعظمة .

وتساءل هل سيجد الخليفة الجديد انتعاشًا وازدهارًا للعقيدة ؟ أجاب الشيخ : "سوف يجد الدين مدمرًا لكن سيكون أحمدو مثل الشرارة بين الحشيش الجاف ، سوف ينصره الله على الوثنيين وسوف ينصر الله من يؤيده ، وإن من يشهد هذا الخليفة ويتبعه ، سيبارك الله فيه مثل كل أتباعه فى العقيدة المحمدية ، وإن كل من يقدمون الطاعة له سيكونون أتباعًا للرسول المصطفى" .

ليس من الضرورى شرح عدم وجود هذه النبوءة فى الفتاش ، لكن تمت صياغتها لمساعدة الشيخ أحمدو وقضية الفولبى (الفولابى) . ومن المفيد أن نفصح ونسلط الأضواء على هذه الوثيقة لأنه من المحتمل أن يكون المهدى فى السودان المصرى قد ظهر بالطريقة نفسها بعد أربعة عشر عامًا ، وهكذا ظهر كل من الحاج عمر وساموري تورى ، وبهذا الحماس الدينى بدأت المنطقة تدخل طورًا جديدًا من التعصب والثورة ضد سيطرتنا (أى السيطرة الفرنسية) فى المستقبل .

إن مناطق سيطرتنا تعج بالعديد من السكان من مختلف الأجناس الذين لا يشتركون فى صفات متشابهة ، ولهذا أمكن أن نجد دعمًا ومساعدة من قبيلة لأخرى على أساس أن النفوذ الدينى هو وحده القادر على القضاء على الأحقاد والانقسام بين مختلف الدول ، بل ويوحدهم فى وحدة خطيرة .

مات الشيخ أحمدو فى عام ١٨٤٤ وخلفه ابنه أحمدو شيخو ، وحتى فى أثناء حياة المؤسس بدأت هذه الإمبراطورية تواجه عوامل الانهيار؛ لأن الفولانى كانوا قاسين على الوثنيين والجماعات الدينية الأخرى ، وكانوا يواصلون الدفاع عن سيادتهم وكانت عدم شعبيتهم كبيرة لدرجة أن سكان تمبكت لم يترددوا فى استدعاء عنصر ثالث لمساعدتهم وأدخلوا قبيلة البربر من الكونتا من جنوب تونس فى وادى النيجر .

وبالإضافة إلى هذا بدأت ظهور أسرة منافسة فى منطقة أعالى النيجر والسنغال ، أسسها أحد أعضاء التوكولور من قبيلة زنجية ومن أصل الفولبى ولم يكن عريق النسب لكنه ابن أحد المرابطين .

ولعب أيضًا على وتر وشهرة الحماس الدينى ، وقام بأداء فريضة الحج إلى مكة ، وحمل لقب الحاج عمر ، ومثله مثل الشيخ أحمدو أشعل حربًا فى الجانب الجنوبى من السودان تحت ستار الحماس الدينى ضد الوثنيين [٩] .

وبعد أن هاجم عمر الجنوب اتجه ناحية الشمال والغرب لمهاجمة إمبراطورية الفولانى وملكها الجديد أحمدو ، ودارت معركة كبرى فى مكان يدعى سوفارا **Safara** انتصر فيها الحاج عمر ، وسيطر على وادى النيجر ، وقد أصيب أحمدو بجرح مميت فهرب فى قارب مع بعض المخلصين من أتباعه على أمل الوصول إلى تمبكت .

وعندما علم بخط سير هروب الجنود أمر ملك التوكولور بتعقبه والقبض عليه حيًا ، وقاوم الرجل الجريح عندما لحقوا به ، لكنه هرب بمساعدة الرجال المخلصين عبر الحقول تاركًا أحمدو وحده وجهًا لوجه مع شعب الحاج عمر ، وعندما سمع بالأوامر التى صدرت إليهم أجاب أحمدو : "إننى لن أعود إلى عمر. لن أراه فى هذه الدنيا مرة ثانيةً "، وعاد إلى المركب ، وأخذ كل الأشياء الغالية ووضعها على الأرض ، وارتدى ثوبًا أبيض اللون ، وركع على الأرض واستسلم بعد أن أنهى

دعاءه وصلواته ، واتجه إلى التوكولور وقال :" إننى لن أكون سجيناً أبداً أنجزوا آخر مطالبى ، وافعلوا كل ما يسر الله اقتلونى وكل الأمور التى أقدمها لكم للتوبة ، وسوف تقولون لعمر إنه مات متأثراً بجراحه" .

وهكذا كانت نهاية قصة موت آخر حكام الفولانى والتى حكموها من جنى، وقام الحاج عمر بشن حملة كراهية ضد عائلة أحمدو ، وشنق ثمانية من أسيادها وترك اثنين من أبناء أخى أحمدو وحدهما ليخلفاه فى إنقاذ أنفسهما ، وأحد هذين الرجلين ويدعى أحمدو عبد الله Abdoulay انسحب إلى الشرق من الوادى وصار رئيساً لإقليم صغير وأسس أسرة حكمت هذا الإقليم فى فويو Fiou .

ومن وجهة النظر الأفريقية فقد اختفت أسرة الفولانى ليس نتيجة كره الأوروبيين لها ، ولكن بسبب تحريض الشيخ أحمدو فقد اغتيل الميجور لايانج Laing عند مغادرته تمبكت وبعد ذلك فى عام ١٨٣٤ سعى أحمدو بشكل مستمر لقتل الرحالة (بارث) الذى قدم تقريراً مفصلاً عن الأخطار التى واجهته وهروبه ، وأنه يدين بحياته لشيخ الكونتا الشيخ أحمد البكائى ولقد تجدد هذا الحقد مرة ثانية ، ففى عام ١٨٩١ أرسل أحد ضباط المارينز ويدعى السيد سبتز و Spitzer كسفير إلى أحمدو عبد الله وتعرض للقتل بقسوة فى العاصمة فى إحدى الليالى لولا سرعة حصانه الذى ساعده على الهرب .

وقد ارتعد هذا الملك بسبب تقدمنا السريع وقدم اعتذاراً ودفع الجزية أو الضريبة ، وجاء موت أحمدو سريعاً من جانب الغازى الحاج

عمر الذى استقر فى عاصمة أعدائه قبل أن يهاجمه جيش الفولانى الذى تدعمه قوة من الكونتا Kountaa وقاوم التوكولور عدة شهور لكن سقطت المدينة فى النهاية .

ونجح فى الهروب إلى الجبال المجاورة فى باندياجارا ، وهناك عرف بدوره كل مرارة الهزيمة التى عانى منها أحمدو ، ولم يكن موته بطوليًا مثل ضحيته التى كانت بالطريقة التالية ، فبعد أن تعقبه أتباعه بحث عن ملجأ فى كهف حيث أحاط به أعداؤه ونسفوه بالبارود واندثر الحاج عمر فى حطام هذا الدمار فى عام ١٨٦٣[١٠] .

لقد ظل التوكولورا سيداً على الجزء الشمالى من الوادى تحت قيادة وحكومة تيديانى Tidiani وهو ابن أخ للملك الراحل ، ثم خلف تيديانى ابنه الذى واجه معارضة من إخوته ودارت سلسلة من الحروب الأهلية انتهت فى عام ١٨٧٧ وصار هذا الابن الحاكم الوحيد .

ودخل مسرح الأحداث رسول جديد ، وقد حارب وجاهد من أجل نشر الدين الإسلامى ، وكان هذا المحارب هو سامورى تورى الذى هاجم الوادى والضفة اليسرى لنهر النيجر ، ولكن بالتدريج نجحت قلاعنا تحت إشراف الجنرال بورجيس دبيوردز فى التقدم نحو النهر العظيم ، واستقر الفرنسيون على شواطئ النهر عند باماكو Bamaku فى عام ١٨٨٣ . ولقد سمع أهل الشمال عن محاربينا ، بينما تقدمت قواتنا وتعقبت سامورى فى الجنوب ، وواصل الكولونيل أرشينارد تقدمه

على طول نهر النيجر ، واستولى على (سيجو) معلنًا نهاية سيطرة التوكولور فى عام ١٨٩٢ ، ووصلنا إلى جنى فى عام ١٨٩٣ ولكن قبل انتهاء العام نفسه كان العلم ذو الألوان الثلاثة يرفرف فوق تمبكت .

إن الصفحات القليلة من التاريخ ، والمعلومات الجديدة التى تحتويها ليست مهمة فقط لشرح تاريخ جنى والهندسة المعمارية المصرية بها ، ولكن لها أهمية أخرى فهى تخدم وتوضح أننا قد استولينا وسيطرنا على السودان فى لحظة حاسمة ومهمة ، وبسهولة فائقة ، كما توضح أيضًا أننا وصلنا بعد مائتى عام (قرنين) من أسوأ أيامها ، بل وفى وقت غير مناسب لرخاء الدولة .

لقد كان المغاربة أول عوامل التفرقة التى زادت بشكل منتظم خلال القرنين اللذين حكموا فيهما مناطقهم ، ووصلت إلى ذروتها فى الوقت الحاضر ، إن تاريخ هذا الدمار ما هو إلا قطعة من النسيج الذى يجمع البؤس والعزلة . لقد وجدنا الدولة فى وضع سياسى واقتصادى سيئ ، وهى مكانة غير ملائمة عمومًا ، فمن الشمال والشرق والجنوب قام الطوارق والفولانى والتكولور بترك مواشيهم التى كادت تموت جوعًا فى أرض الميعاد هذه ، وقد ظهروا فى هذه التجمعات الوحشية التى ضمنتها الطبيعة وتلك الآثار الغنية التى ظهرت فى هذه المناطق ، وسعت كلها للقضاء على مزايا حضارة قديمة فى غمرة انتصارهم البربرى ، وكان كل هذا تحت ستار الدعوة للإسلام ، والشيخ أحمدو والحاج عمر وسامورى لم يكونوا الدعاة الوحيدين للدمار ، لقد فكرت كثيرًا

فى العديد من هذه الصفحات التى عبرت عن جزء بسيط من هذه الأعمال الشريرة .

وطوال كل هذه الفترة تدمرت التجارة وتوقفت الزراعة من حين لآخر ، وهجرت القوارب النهر ، وصارت قوافل التجارة مستحيلة ، وخلت الأسواق من الباعة وتناقص عدد السكان بمقدار العشر من الفقر والمجاعات ، وهاجر عدد كبير من السكان فى كل المناطق .

إن الجنس الزنجى كثير العدد ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نظام تعدد الزوجات الذى جعل الأرض أكثر خصوبة ، ويرجع الفضل إلى النيجر الذى زادت خيراته والتى أصلحت كل هذه الآثام فى سنوات قلائل بسبب الأمان والسلام والتنظيم الذى أدخلناه فى هذه الدول .[١١]

الفصل الثامن

مدينة جنى الأمس واليوم

اختفت جاو بعد ثلاثة قرون من البؤس الذى حل بعد الغزو المراكشى ، واتساع الطوارق عبر هذه المنطقة تاركين جزءًا بسيطًا من الحضارة والعظمة ، فضلاً عن العادات والتقاليد المحلية فى العاصمة سنغى ، ولقد كان "بارث" محظوظًا عندما اكتشف آثار المدينة وموقعها حيث اكتشف برجًا متراكمًا مثل الذى شاهده فى تمكبت ، وأيضًا آثار المسجد الكبير ومقبرة أسكيا محمد مع بعض الأكواخ للأهالى . ومن حسن الحظ أن وصلت إلينا أخبار جنى متكاملة تقريبًا بالشكل الذى نتابع أفكاره وحياة شعب سنغى أفضل مما شاهدناه فى جاو ، ولكن أى معجزة حققت هذا وأبقت عليه وحفظته . لا فضل لأحد فى ذلك سوى مكانتها المتميزة والمناطق المحيطة بها ، فالأرض هناك تشبه التربة فى مصر ، وقد أصيب المهاجرون بالدهشة عندما وجدوا التشابه بين الإقليمين .

لقد غمر النيجر وفرعه بانى هذه السهول الواسعة بمياه الفيضان ، فضلاً عن اتصال فرع آخر هو الكواكور Koua Kouru الذى ارتبط بهذين النهرين عند جنى ، وابتداءً من شهر يوليو حتى شهر نوفمبر ينساب من نهر بانى إلى النيجر على طول الأشهر الأربعة ، ثم ينساب من النيجر إلى بانى ، وطوال بقية شهور السنة لا أثر للتيار إطلاقًا ، ولقد لاحظ الأهالى هذه التغيرات وسجلوها بشكل بسيط ، إن وطننا يغذيه نهران عظميان ويتزاوجان عند مدينة موبتى Mopti ويعتبر نهر بانى هو الذكر والنيجر هو الأنثى ، وفى البداية يفيض بانى ويملأ النيجر ولكن بعد فترة يصبح النيجر عظيمًا ويعيد المياه إلى بانى ، وتفسير هذه الظاهرة العلمية بسيط جداً ، فالنيجر وبنوى ينبعان من مجرى متوازٍ وتتزايد المياه فيهما فى الفترة نفسها من السنة وسقوط الأمطار .

وحيث إن مياه النيجر أكثر فإن النهرين لا يفيضان فى الوقت نفسه من العام .

ويرتفع نهر بانى أولاً حيث إنه لا تواجهه أية سدود أو عوائق فإنه ينقل مياهه إلى النيجر ، ويؤدى هذا إلى انسياب المياه وفيضانها فى الوادى الواسع ابتداءً من سبتمبر حتى أكتوبر ، وخلال هذه الفترة ترتفع المياه فى نهر بانى إلى أقصى درجة ، وليست هذه هى الحالة بالنسبة لنهر النيجر ، لكن تزداد الكمية وتشكل حاجزًا أمام التيارات السريعة لنهر بانى عند مدينة موبتى .

وفى هذه الفترة أيضًا تشبه منطقة وادى النيل فى وقت الفيضان وتظهر قرى سنغى وسط هذه الشرائح من المياه مثل أراضى الفلاحين ، وتبنى البيوت من الطمى الرمادى وتسقف بجذوع النخيل .

ولقد اختفت تمامًا الطرق وشواطئ النهر والفروع والمستنقعات ، وتصبح القوارب هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات إلى بقية القرى .

ويصبح الوادى العظيم بحرًا واسعًا تزينه جزر رمادية اللون تكسوها الخضرة . وعندما تنحسر المياه فى شهر نوفمبر يكون الأرز– و هو المحصول الرئيسى هناك – قد اكتمل نموه وجاء وقت الحصاد ، وتكون التربة رطبة ، ولخصوبة التربة فإنه يمكن زراعة محصولين متتاليين هناك. وكما يقول المثل الشائع : « لقد حبت الطبيعة أهل جنى بهدايا كثيرة» ، حيث تعقد الأسواق يوميًا ، ويزداد عدد السكان بشكل منتظم ، وتتقارب قراها السبع بجانب بعضها لدرجة أن رئيس جنى لا يحتاج إلى إرسال رسل، وإذا أراد أن يرسل أمرًا إلى بحيرة ديبو Debo مثلاً فإنه ينقل من بوابة المدينة ، ويتكرر من قرية لأخرى ، وبهذه الطريقة يصل إلى أطراف القرى بسرعة فائقة .

إن التقاء هذه الفروع العديدة فى هذه الأرض الذهبية تم بفصل الجزيرة عن السهل وهذه هى جزيرة جنى .

وهل كانت محض المصادفة أو أنها عملية مقصودة بعد عدة استفسارات أقام سكان سنغى حدودهم وحدود إمبراطوريتهم ؟

إن الموقع ممتاز حيث يصعب الهجوم عليها وقت الفيضان ، فضلاً عن سور ضخم ارتفاعه عشر أقدام يصعب اختراقه ، وفى وقت الفيضان يحتاج العدو إلى أجهزة خاصة ومعدات حربية غير معروفة فى هذه الأيام .

ولكى تحاصر المدينة حتى تموت جوعًا تحتاج على الأقل عامين ، فضلاً عن ضرورة وجود جيش قوى لكى يُغلق الأرض والماء لأن جنى محاطة بروافد ومستنقعات ، وفيضانات تصل إلى أسوارها ، ولا ينسى سكان المدينة أن يقصوا عليك أن جنى وحدها بين كل مدن السودان لم يتم الاستيلاء عليها أو تدميرها أو نهبها .

ويؤكد كتاب تاريخ الفتاش هذا الرأى ، وعندما صارت جاو وبقية إمبراطورية سنغى أحد توابع مملكة مالى القوية ، فإن جنى وشعبها ظلت مستقلة . ولقد دارت أكثر من مائة معركة وانتصر فيها شعب جنى دائمًا ، وبعد آخر هزيمة قال (المالنكى) سنعود مرة ثانية ، ولكن فى عام ١٦٦٤ لم تكن المعركة المائة قد حدثت بعد ولم يعودوا بعد . وفى القرن الرابع عشر استولى جيش موسى **Mossi** على تمبكت وفصلوا جنى تمامًا عن بقية الإمبراطورية ، وعندما استرد سنى علىّ سلطته فى سنغى كرس فترة حكمه الطويلة ضد هذه الشعوب ، وهاجم المدينة ومكث سبع سنوات وسبعة أيام فى حصارها ، ويقول البعض إنه حاصرها فقط أربع سنوات ، ومع ذلك استمر جيشه هذه الفترة الطويلة لدرجة أن الجنود تحولوا إلى فلاحين .

وفجأة أصاب جنى وباء المجاعة ، وطلب رئيس جنى فرض السلام والأمان وكان سنى علىّ قد أصيب بالملل والتعب فأسرع للاستفادة من هذه الشروط المشرفة .

وبدلاً من إذلال المدينة فإنه وضع عدوه السابق فى يده اليمنى ، والأهم من هذا - وهو ما يهمنا - هو احترام المدينة وسلامتها. وهكذا عادت جنى إلى قلب إمبراطورية سنغى .

ومع الغزو المراكشى تلاحمت مع المنتصرين مثلما فعلت مع الفولانى، ومرة ثانية وبعد مائة عام انضمت للتوكولور . وكانت ستفتح أبوابها للكولونيل أرشينارد لولا وجود ألفا موسى قائد حامية التوكولور .

وتمتلك جنى ميزة أخرى فى وضعها داخل الجزيرة وذلك من الناحية المعمارية حيث إن المدينة مشيدة فى مساحة محدودة ، وهو ما لا يسمح بعناصر أجنبية بأعداد كافية تؤثر على عاداتها وتقاليدها .

وظلت جنى داخل جزيرتها كما هى متكاملة تمامًا وكأنها مغلقة فى برج من العاج .

إننا نعرف أن قصور ومعابد الفراعنة قد شُيدت تحت ضربات السياط وأن آباء أهل سنغى قد عملوا معهم وكان البناءون لهذه الصروح الضخمة راضين بهذه المساكن الطينية المتواضعة ، وإذا كان بناء المنازل فى هذه الدولة الجديدة من الأحجار الضخمة ؛ فإنهم كانوا قانعين بتلك الأكواخ البدائية ، فإنى لم أكن أشهد مدينة من مدن الفراعنة باقية حتى اليوم .

ومن حسن الحظ أن أهالى سنغى اكتشفوا مادة مناسبة لبناء مدينتهم لكن ليست الجرانيت ولا من الأحجار الرملية التى بُنيت منها الآثار المصرية ، ولكن كانت مجرد تربة طينية موجودة بكثرة فى الجزيرة والمناطق المجاورة لها .

واستطاعوا أن يشكلوا منها قوالب منتظمة منبسطة وطويلة ومستديرة عند أطرافها مثل التى كانت فى مصر القديمة ، وكانت هذه القوالب تحرق فى شمس السودان الشديدة وتوضع على الحوائط وتثبت بطبقة من المونة ثم توضع عليها طبقة طلاء خشنة ، وهكذا تحملت المساكن فترة من الزمان وكأنها مقطوعة من كتلة ضخمة من الحجر ، وكانت تتحدى الأمطار الشديدة والرياح القوية بصورة مذهلة ، ومع بعض الإصلاحات البسيطة تدوم لعدة قرون .

وكانت هذه القوالب الصلصالية توضع بشكل يشبه الفن المعمارى المصرى ، وكان أهل سنغى يبنون بسرعة وسهولة بهذا الطوب ، وكانت المدينة تُشيد وتكتمل فى فترة وجيزة ، وفوق كل ذلك فإن منازل مدينة جنى تظهر الخصائص الرئيسية للفن المصرى حيث شكل الهرم الذى يمثل المكانة والقوة فى هذا المعمار القديم .

وكانت الأسوار فى هذه المبانى القديمة ذات انحناءات بسيطة ولا توجد بها نوافذ ، ويدخل الهواء والضوء من خلال فتحات فى السقف

أو السطح . وفى كل مساكن الزنوج نجد الأسقف مستديرة لكى تحمل كل الأمطار الغزيرة فى الشتاء ، لكن نجد هنا الأسطح مسطحة مثل الأسطح فى وادى النيل حيث تقل الأمطار ، ولم يعرف أهل سنغى كيف يشيدون القباب مثلما يفعل المصريون ، وكانوا يزينون مساكنهم بقطع مثلثة مثلما نراها فى قصور رمسيس ، وكما أن البوابات الضخمة إحدى السمات فى المعمار المصرى فهى تعطى زيادةً واتساعًا فى مساكن جنى، وتشكل أيضًا نوعًا من الديكور ، فضلاً عن أن واجهات المنازل مزينة بأشكال مختلفة من الأبراج والبوابات .

ونجد كل هذه الزخارف فى منازل الأثرياء ، وفى منازل معينة تجد بوابتين متصلتين .

وباختصار فإن هذه الآثار والانسجام فى التركيب ، وتوزيع الزخارف يدل على أن للفن المصرى انعكاسات هناك .

وإذا أشرنا إلى النقوش قليلة البروز القديمة التى ظهرت فى مساكن المصريين القدماء وإلى أعمال الشرقيين ؛ فسنجد أنها تتفق فى كل تفاصيلها مع مبانى جنى ، فالمنازل الخاصة بسيطة ، ولم تشيد من الأحجار أو الجرانيت مثل مبانى المعابد والقصور لكن شيدت من الطوب الخشن .

وكانت الحوائط مغطاة بطبقة من الداخل والخارج وكانت عبارة عن مجموعة من الحجرات غير المتناسقة لكن تقسم حسب ذوق صاحبها .

وتكون من دور أرضى ودور علوى وداخلها شرفة واسعة ، وكانت الأسطح منبسطة وتتكون من أعمدة خشبية توضع بطول وعرض المنزل ويلقى عليها الأعشاب والقش ، ويغطى الجميع طبقة من التراب الممزوج بالطين ، ويظهر هذا السقف بارزًا من كل جوانب الحائط . إننا نشهد طريقة البناء نفسها فى جنى ، وكل هذه التفاصيل نجدها فى قلب أوطان الزنوج .

وفى كل مسكن يوجد نظام من المواسير التى تحمل المياه الزائدة من داخل المبنى مع نظام متكامل للصرف .

إن بقاء هذا النظام من المبانى عبر عصور كثيرة ليس نتيجة عدم تدمير المدينة ولكن نتيجة قوة تحمل المبانى ، لقد شاهدت بعض المنازل التى زاد عمرها عن ثلاثة أو أربعة قرون ، وكان تعاقب القرون قد زاد من ارتفاع الطرق مثلما هو الحال فى أورشليم القدس التى ارتفعت أربع عشرة أو ست عشرة قدمًا عن مستواها الأصلى ولا تزال الأجيال المتعاقبة تحافظ على هذه النظم ويسلمونها إلى الأجيال التالية ، وفى داخل المبانى كان يوجد (حوشان) مع بعض الفتحات للتهوية والإضاءة ثم حدث تطور يثبت نوافذ فى الجدران ، ولما استقر المغاربة فى جنى بعد الغزو أدخلوا نظام النوافذ الخشبية حسب النظام العربى ، ولم تصنع هذه النوافذ فى جنى لكن تم استيرادها من تمبكت .

لقد تعرضت أصالة الفن المصرى للخطر بعد وصول المغاربة ؛ لأنهم كانوا متأثرين بالفن العربى ، ولذا فإنهم حاولوا إدخال تجديدات أخرى.

إن الفضل يرجع إلى هذا الطمى الغالى الذى حافظ على جنى دون إفساد ، لأن هذه المادة مع نظام الأرفف المغربية غير مناسبة للفن العربى وتفاصيله الدقيقة . مما جعل سكان فاس ومراكش يقلدون القاهرة والجزائر . ومما لاشك فيه أنهم حاولوا إدخال بعض التعديلات ، لكنها كانت تتحطم مع أول سقوطٍ للمطر ، وهكذا ظلت المدينة وفية للتقاليد القديمة وظلت اثنى عشر قرنًا تحتفظ بأصولها .

ورغم كثرة المساكن الخاصة - فإن نمط البناء مازال ناقصًا ، وكان مسكن الحاكم أكثر اتساعًا من المبانى العادية ، ويعطينا منزله - ويسمى المادو **Madou** - النموذج المفقود للقصر فى سنغى . لكن من سوء الحظ أن وقع حادث فى القرن الحادى عشر وأدى إلى إزالة هذا الأثر ، وظلت المدينة على وثنيتها كما يقول تاريخ الفتاش حتى القرن الخامس الهجرى (١٠٥٠م) ففى هذه الفترة قام رئيسها ويدعى كومبورو واعتنق الدين الإسلامى ، وطلب الرئيس من العلماء فى المدينة وأكثر من أربعة آلاف شخص الدخول فى الإسلام .

وبعد أن حلق كومبورو رأسه فى حضورهم وأعلن اعتناق الدين الإسلامى طلب من العلماء أن يصلوا لله من أجل هذه المدينة وأن أى شخص يصل إليها بعد أن ترك وطنه ، بسبب الفقر وعدم القدرة على العيش هناك ، سوف يعطيه الله الخير الوفير ووسائل الحياة المريحة لدرجة أنه ينسى وطنه الأم ، وأن تصبح جنى مركزًا عظيمًا للتجارة ، وأن يمنح سكانها الخير والرخاء ، وقام العلماء بالدعاء وكان رخاء

المدينة وسعادتها دليلاً على أن الله استجاب للدعاء ، وعندما اعتنق كومبورو الإسلام قام بتحطيم قصره وأقام عليه مسجداً وعاش حتى يرى اكتماله لكن خليفته هو الذى أكمل السور حوله .

وصار مسجد جنى مشهوراً فى كل وادى النيجر ، وكان مثل أهمية المسجد الحرام فى مكة ذاتها .

وكان البناء ضخماً ومريعًا ويصل طول جدرانه أكثر من مائة وثلاثين قدماً . وإلى جانب الزخارف والبوابات الضخمة كانت توجد ثلاث وجهات فى كل جانب ، وكانت الحيطان مغطاة بطبقة مثلثة تفصل بينها حواف متساوية فى الارتفاع نفسه .

وكان المبنى مصمماً بحيث تكون كل واجهة متفقة مع الجهات الأربع الأصلية ، لكن لم تكن الجوانب متفقة تماماً مع بعضها البعض . وتضم الواجهة الشمالية والجنوبية صفين من النوافذ وتسمح الواجهة الشمالية بدخول المارين عبر بابين ، وأما الجهة الجنوبية فتضم باباً واحداً فقط . أما الواجهة الشرقية فهى مقدسة وتواجه مكة فلا توجد بها نوافذ أو أبواب .

وكانت واجهتها مزينة بالأقواس الضخمة ، فضلاً عن ثلاث دعامات قوية فى الحوائط ، ولا توجد أبواب فى الواجهة الغربية .

لقد تم بناء المسجد على أرض مرتفعة فى جنوب المدينة ، وبعد حفريات ضخمة عند قاعدته ظهرت المواد التى تم البناء بها ، وهذا يظهر

أنه كان فى مكان بعيد عن المدينة وعن المنازل والحصون وكأنه يشبه القلعة . هنا من الضرورى أن نشير إلى عودة صيفات أسلاف المصريين فى هذه الأبعاد الضخمة وتلك الخطوط فى البناء ، أليس من الأفضل أن نعيش على حقيقة أن المادة الوحيدة التى استخدمت فى البناء كانت الطمى بجانب الخشب ، ورغم كل هذا استمرت ثمانية قرون ؟ ولا تزال تعيش منذ ستين عاما وربما تستمر عدة قرون ويأمر الشيخ أحمدو القائد الفولانى الكبير بتدميرها فى عام ١٨٣٠ . لقد مكثت فترة طويلة لا أجد شرحًا وتفسيرًا لقيام هذا الأمير الإسلامى بتدمير مسجد . وقال أحدهم : لوجود مساجد أخرى كثيرة ، وقال آخر : لأنه ادعى أنه أجمل من المسجد الحرام فى مكة لكن الحقد كشف هذا الغموض .

وقد أكد أحد العلماء المرابطين الذى زارنى وقال : أعرف السبب لكن تاريخه غير محبب فى جنى ، ولا أريد تكرار ذلك ، لكن سأقول لك الآن وسوف نذهب إليهم قائلين : (هل هذا صحيح ؟) . وكان يقصد الذهاب إلى اثنين آخرين من رجال الدين ، وفعلاً ذهبت إليهما وأكدا هذه الحقيقة .

لقد قضى الشيخ أحمدو جزءًا من صباه فى جنى حيث أرسله أبواه للحصول على العلم والمعرفة عند مختلف رجال الدين والعلماء هناك . ونظرًا لأن أسرته لم تكن غنية أو ذات نفوذ - اضطر الشاب الصغير أن يعيش حياة الطلاب الفقراء وكان سنده الوحيد الهبات والعطايا من التجار الأغنياء حيث كانت المدينة فى أوج ازدهارها ، وكان السلطان يعيش أجمل وأمتع أيامه فى هدوء وسكينة ، وكانت وسائل الترفيه

متنوعة فى جنى وعاش الغرباء حياة مرحة بفضل الرخاء الذى عم ، والأخلاق الطيبة التى شاعت بعد اعتناق الدين الإسلامى الحنيف .

وكان الشيخ أحمدو مثل كل الفولبى صارمًا ومتشددًا بسبب عقيدته المتزمتة ، وعندما صار أميرًا للمؤمنين عانى كثيرًا من هذا الحرمان ، وكان هذا المسجد - خاصةً الجانب الشرقى منه والذى يواجه الكعبة المشرفة - مكانًا للرقص والمرح ، ونظرًا لأن العناصر الأجنبية كانت متواجدة فى المدينة من كل أنحاء السودان ، وحيث إن هذه العناصر كانت تمارس الرقص وشرب المواد الكحولية التى حرمها الإسلام على المؤمنين ، والتى كانت تباع فى الأكواخ المجاورة للمسجد ، بل وكان الراقصون يصعدون فى شرفات المسجد ، لكل هذا أقسم الشيخ أحمدو على وضع حد لهذه الأمور والبدع عندما يضع الله السلطة فى يديه .

وبعد خمسة وعشرين عامًا وبعد أن دمر سلطة الرماة واستولى على تمبكت وجنى - قرر تنفيذ وعده وطلب من الوثنيين عدم دخول المدينة ؛ لأنهم هم أساس الفساد ، ولكى يمعن فى معاقبة جنى أسس عاصمة جديدة على الضفة اليمنى لنهر بانى وسماها حمد لله **El lamdou-Lillahi** .

وأخيرًا لكى يطهر المكان الذى كان يتم فيه الرقص والشرب بنى المسجد الجديد البسيط الذى تحدد مكانه اليوم . وعندما تم البناء طلب من ابنه وخليفته أحمدو شيخه وإمامه الأكبر عندئذ تدمير المسجد القديم

فى ١٨٣٠ . إن كل ما يتبقى منه الآن عبارة عن كومة من الدمار محاطة بالأسوار خارجه ، ولقد اختفت مداخل هذا المبنى وتأثرت الأبراج والسقف والشرفات تمامًا وبمساعدة كل هؤلاء وذكريات الرجال المسنين أكملت عملى هذا .

لقد كانت المقابر هى الشىء الوحيد الذى حافظ عليه الشيخ أحمدو حيث شكلت مكانًا مقدسًا قضيت فيه عدة ساعات من البحث .

ولم تكن عندى فكرة أننى وسط مقابر ورفات أموات عندما شاهدتها لأول مرة ، وكان سطح الأرض مملوءًا بفتحات مثل أنابيب الصرف فى المنازل أو المدافن ، ولكن عندما تنظر أسفلها تجد أنها مملوءة بالتراب ومتصلة ببعضها البعض ، وكان هذا هو مكان دفن الجثث وكانت الأعمدة والأنابيب تحدد مكان كل جثة .

وفى بعض الأماكن كانت الأرض تهبط ، واستطعت تمييز أكوام من الجثث تفصل بينها طبقات رقيقة من التراب وكانت الغربان والنسور تطير فوقنا ، فضلاً عن الفئران والكلاب التى تحفر هذه المقابر ، وكانت السحالى الحمراء والصفراء تتجول وسط هذا العالم من الأموات ، وكانت الماعز والأغنام تترك بصمات على هذه الأسوار المدمرة .

وتمتاز مدن سيجو وسانساندنج من جهة وموبتى وكوزنزا وساوسارافارا من جهة أخرى بأنها تقع على نهر النيجر ذاته ، إلا أن

جنى هى التى حصلت على الشهرة الكبيرة ، ولم تتفوق على تمبكت بل أصبحت واحدة من أعظم المراكز التجارية فى الدولة الإسلامية ، ولكن السؤال هو : لماذا كل هذا بالنسبة لمدينة جنى ؟ والإجابة ، لأنها الوحيدة بين مدن النيجر الباقية إحدى مدن سنغى .

ولأن سكانها يحملون فيما بينهم بذور الحضارة المصرية ، ولأنها وسط هذه الأعمال البربرية التى غطت كل الوادى - ظلت جنى مشعل الحضارة المصرية الثقافية ، ولأن هذه الحضارة أعطت جنى مزايا خاصة لم تحصل عليها المدن الأخرى المنافسة لها .

وبدلاً من نظام المقايضة البدائى بين قرية وأخرى وبين سوق وأخرى ، قدمت جنى تجارة حقيقية .

وكوّن سكانها شركات تجارية بالمفهوم الأوروبى للكلمة والذى قدم نظاماً يشبه السائد عندنا ، بل وأسسوا ووضعوا ممثلين لهم فى المراكز التجارية المهمة وفتحوا فروعًا فى تمبكت ، وأرسلوا وكلاء تجاريين يحصلون على نسب مئوية عالية على الأعمال التى ينجزونها، ولم يكونوا أقل من وكلائنا التجاريين .

وكانت هذه الجماعات تضم الرقيق والأحرار الذين يضطرون إلى كسب قوتهم . ومن بين هذه الأعداد اختفى بعض الأفراد ومعهم تجارتهم التى عهد إليهم بها . وهكذا غطت جنى على أسواق السودان فى سان San وبلا Bla وصارت منازلهم الواسعة مخازن للتجار

امتلأت بالحبوب والأرز والشعير وأوانى عسل النحل والعطور والبصل والنيلة وثمار الكولا والدقيق وقضبان الحديد التى جاءت من كراجونا Karaguana وهى دولة بجوار موسى ، هذا فضلاً عن ريش النعام والعاج والذهب الخام والرصاص من جبال هومبورى ، والرخام من المكان نفسه والأنتمونيا التى يتزين الزنوج بها ، هذا إلى جانب المصوغات الوطنية من التيل الناعم والمنسوجات الصوفية ، والخيوط الطويلة التى يصنع منها الجلباب الواسع للرجال والنساء ، فضلاً عن العباءات المطرزة بالألوان الصفراء والسوداء والزرقاء والنحاسية اللون .

ويجب ألا أنسى نوعًا آخر من التجارة فى هذه الجهات والتى يكثر عليها الطلب مثل أى من السلع السابقة وأعنى بها الرقيق .

ولا يوجد تخصص فى التجارة ، وكل واحد يبيع أى سلعة سواء كانت منسوجات ، أو لحومًا بشرية أو معادن أو عطورًا ، ولا يقوم التجار بالإشراف على تجارتهم فى الأسواق ولكن يرسلون وكلاء لهم ومعهم كميات بسيطة ، أما الصفقات الكبرى فتتم داخل مخازن واسعة على الطراز المصرى .

ومع هذه الوفرة فى الإنتاج ، ووسائل التجمع والمتاجر التى تأويهم تبقى مشكلة النقل .

لقد علمت جنى السودانيين فن الملاحة التجارية ، ويمكن أن نقارن قواربها بقوارب المدن الكبرى ، والقارب الزنجى مجرد هيكل لقارب

مجوف من جذع شجرة وتحت رحمة رياح النيجر ، وتحمل فقط الحمولات الصغيرة ، وحتى لا تثقل عليها كان على شاغليها الجلوس دون حركة مثل بوذا فى معبد الهند .

أما فى جنى فقد بنى السكان قوارب منتظمة واسعة ولا يتكون جسم القارب من ألواح منتظمة مثبتة بمسامير من أطرافها ، ولكن يتكون من كتل غير منتظمة من خشب الأبنوس . ويتم عمل ثقوب فى هذه الكتل ، وبعد ذلك توضع مثل قطع الخشب المازايكو وتثبت سويًا بأحبال قوية ، وكانت الطريقة أن تأخذ الفتحات وتحيطها بالحبال والأخشاب ، وفى النهاية تصبح محكمة وتمنع الماء من خلال القش والطمى .

ولم يقصر أهل سنغى قواربهم على حجم جذع الشجرة ، بل شيدوا قوارب يصل طولها ما بين ثمانية وخمسين ، وخمسة وستين قدمًا والعرض عشرة أقدام ويستطع القارب أن يحمل ما بين عشرين وثلاثين طنًا ، ولكى تُنقل هذه الحمولة برًا تحتاج إلى قافلة من ألف جمل أو مائتى جمل أو ثلاثمائة ثور ، ولكن بدلاً من كل هذه الوسائل الغالية كل المطلوب عبارة عن ستة أو عشرة بحارة ، وهذا يؤكد سيادة جنى على الأقاليم والدول المجاورة .

ويمتلك تجارها قواربهم الخاصة والتى كرسوها فقط للنقل ويتم تخزين القطبان الحديدية والزلع وأى شىء آخر داخل المراكب وفوقها توضع أكياس الحبوب والسلع الخفيفة ويتركون مكان وسط القارب من

أجل التخزين والطهو . وتوجد قوارب سريعة ولا تتوقف إلا عند المساء لتناول وجبة العشاء وعندما يكون القمر ساطعًا تستمر الرحلة .

وتستطيع بألف وخمسمائة صدفة أن تذهب إلى تمبكت وهى رحلة عشرين يومًا ، وتستطيع بثلاثة فرنكات أن ترسل حمولة وزنها مائة طن من السلع .

ولقد تعلمت المدن الأخرى مثل سانساندج وكورنزا وسارافارا طريقة بناء سفن أكبر ، وفى أى مكان تشيد فيه فإنها تسمى (قوارب جنى) ، وبالتدريج انتشرت بمكانتها كعاصمة بسبب عزلتها التى حمتها من الدمار الذى تعرضت له مدن أخرى .

وبعد أن غادرنا باماكو وجدت نماذج من معمارها فى كل مكان حتى فى واجهات المبانى الملكية فى سيجو وفى بوابات المدينة ، وحتى كل المساجد رغم حجمها المتواضع قد شُيدت بأسلوب المسجد القديم نفسه فى جنى .

ولقد كانت جنى نقطة الاتصال الوحيدة بين هذه المناطق الشاسعة وعالم سنغى قبل أن تتعرض لغزو ملوكها وقد تزايدت هذه السيادة بسبب تراثها الكبير ، حتى إنها استطاعت الحفاظ على عظمتها تقريبًا فى مائة معركة ضد ملوك مالى الذين كانوا أسيادًا على الوادى ، واستمر دورها الحضارى دون توقف عبر القرون . وببطء أعدت السودان الغربى لهذه الطفرة الكبرى التى كشفها تاريخ القرن العظيم للأساكى

(١٥٠٠-١٦٠٠) . إن دورها الحضارى يضعها فى مكان واضح فى ذاكرة الجنس البشرى ولكنها تمتلك أهمية أخرى .

وتستطيع أن تدعى أنها أسست تمبكت . لقد تحملت جنى كثيراً لتؤكد وجود سوق ملح منتظمة تحقق لها كميات ضخمة من الأسعار ، وسوف يؤدى هذا بشكل طبيعى إلى قيامها بدور جغرافى كبير فى تحديد مكانة تمبكت الجغرافية والتى تقع على أبواب شعب مالى وتستطيع القوافل أن تذهب من هناك مباشرةً إلى المناجم ، ويتم حفظ البضاعة أولاً بأول وتقوم قوارب جنى الكبرى بدورها ، ومن ثم تنشأ أسواق جديدة .

ومن الصعب أن تحقق تمبكت استقرار التجار فى جنى ، وجلب كل سلع السودان ، ولقد قام بالدور نفسه تجار مراكش ، وبهذه الطريقة فإن جنى رغم أنها لم تؤسس تمبكت إلا أنها حولت القرى الفقيرة إلى مراكز تجارية كبرى ذات شهرة كبيرة .

ويعبر السودانيون عن هذه الفكرة قائلين : إن جنى وتمبكت عبارة عن نصفين للمدينة نفسها ، حقا فإن جزءاً من جنى يقع على حواف الصحراء وقد وضع تجارها الكبار وكلاء لهم فى المدينة ، وخلال عدة شهور من السنة يقومون بتوجيه الحركة هناك .

ولكن رغم ذلك فإن الدور الذى يلعبه هذان النصفان فى تجارة السودان متكامل . ودور جنى نشط وأكثر أهمية لأنها تمثل المنتج أى التاجر الكبير الذى يستقر فى قلب الدولة ليستغل كل قواه ومصادره .

ومن جهة أخرى فإن شخصية تمبكت سلبية لأنها الفرع ومجرد مستودع ، فسكانها وسطاء وأصحاب الفنادق ، وباستمرار كان دورها أقل من جنى سواء فى الثروة أو الأهمية التجارية .

لهذا السبب فإن الروايات التاريخية تتحدث عن جنى وليس عن تمبكت باعتبارها واحدة من أهم المدن الإسلامية ، بل وتقول الروايات إنه بسبب هذه المدينة المباركة (جنى) يأتى الناس إلى تمبكت من كل صوبٍ وحدبٍ .

ولكن كيف حققت تمبكت هذه الشهرة فى كل أرجاء العالم بينما ظلت جنى غير معروفة نسبياً .

إن السمات المميزة للمدينتين تفسر هذا الظلم . إن طرق القوافل من شمال أفريقيا ومراكش وتوراب وطرابلس والتى جعلت تمبكت مشهورة لم تتوغل أكثر من هذه المدينة ، ولم تعرف شيئاً عن السودان الغربى ، ولا حاجة لإطالة الرحلة فى الجنوب لأن تمبكت زودتهم بالسلع التى جاءوا من أجلها وحتى لو فكروا فى البحث عن سلع أرخص جنوباً فإنهم يواجهون العديد من المشاق .

لقد جعلت الطبيعة الأرض جنوب تمبكت مملوءة بشبكة من فروع الأنهار والروافد ، وهذا ما أغلق باب السودان ضد القوافل القادمة من شمال أفريقيا ، فالقوافل التى تعودت على الجمال عبر الصحراء تصبح عديمة القيمة فى مثل هذه المناطق ، وربما تموت وسط هذه الرطوبة

الشديدة . وعلى هذا فإن الشمال - وهو المصدر الوحيد للمعرفة عند الأوروبيين - تجاهل السودان الحقيقي ولم يعرفوا سوى تمبكت .

إن شهرة سنغى امتدت إلى منطقة كونج Kong فى الجنوب وإلى المحيط الأطلسى فى الغرب فهى ترسل تجارتها إلى ساحل البحر ، وعندما سأل الأوروبيون الأوائل الذين يعملون بالتجارة بين بنين كيب بلماس Cape Palmas عن مناطق استخراج الذهب - كان الأهالى يجيبون بأنه من جنى ، وهكذا أطلق اسمها على خليج غينيا وبشكل مباشر على عملة إنجليزية اسمها الجنيه الذى سمى بهذا الاسم لأن القطع الأولى التى ضُـربت من الذهب من هناك ، ومن بين كل المدن الكبرى فى النيجر كانت جنى أقلها تأثرًا بالدمار والفوضى التى حلت بالسودان . (١٢)

وعلامات العنف لم تكن ظاهرة مثلما حدث فى نيامينا أوسانساندنج ، ومع ذلك فإن القسوة والظلم حدثا أثناء سيطرة التوكولور ، وكما قال أحد الرؤساء القدامى : "إننا لم نعانى من شىء سوى النهب والسلب ، ولقد كان الحاج عمر قاطع طريق ، وسار أبناؤه فى الاتجاه نفسه ، وبالتدريج فرغت المدينة من سكانها ، وسوف نجد الكثير من سكان جنى فى المناطق المجاورة أكثر من الذين نجدهم فى المدينة ذاتها ، وجاء ذلك فى الوقت الذى قدم فيه الفرنسيون ، وكان الكولونيل أرشينارد حكيمًا ، وعندما جاء عند أسوار مدينتنا احترم الحى التجارى ، ودمر فقط قلعة التوكولور التى صارت الآن قلعتكم .

إننى لن أتخفى منك رغم كل الذى عانيناه من التوكولور وكان قدوم شعبك مرفوضًا لدينا فالتوكولور على الأقل كانوا مسلمين ، ونحن كنا نخشى من سيطرة المسيحيين ، لقد أخبرونا الكثير عن مساوئكم التى ارتكبت لكننا الآن مسرورون فلقد سمحتم لنا بأداء صلواتنا ، ولم تفسدوا شيئًا مثلما فعل التوكولور ولم تمارسوا أعمالاً مخلة بالآداب علينا أو تجبرونا على أكل أشياء غير نظيفة كما علمنا عنكم ، وعندما جمعتم الضرائب لم تطلبوا المزيد وإنكم تدفعون كل مطالبكم ، ونحن نمارس تجارتنا فى أمان ، وحققنا أرباحًا كثيرة ، ولهذا السبب عاد سكان المدينة من كل الجوانب " .

وحقا فإنه خلال إقامتى عاد سكان كثيرون إلى المنازل القديمة ، وتم تشييد مساكن أخرى جديدة ، وقد أعطانى هذا فكرةً عن طريقة البناء عند أهل سنغى والتى تختلف كثيراً عما لاحظته بين السكان الزنوج وصار منظر المدينة مختلفًا ولم يعد مدخلها مملوءاً بالكسالى النائمين على أعتابها ، ولم تعج شوارعها بالمتسكعين كما هى العادة فى أماكن أخرى ، ولقد بدأت الحياة تدب فى المدينة وسط جو من البهجة والمرح مع مطلع كل صباح حيث يندفع الناس لأعمالهم وهم يسوقون الحمير ودواب الحمل ، والكل يعمل لتحقيق هدف معين .

وأعترف أن كل هذه الطاقات والأنشطة نسبية ، ففى لندن وباريس نسمى هذا كسلاً ، لكن فى القارة السوداء وتحت هذه الشمس المحرقة والمتوهجة لم تعد هذه الأمور شاذة جدا ، فأحواش التجار الكبار دائمًا مكتظة على وجه الخصوص حيث ينتظر الكثير من الزبائن دورهم .

وبعضهم يملأ الشارع بالأصوات المزعجة ، بينما ينشغل الآخرون بتجارتهم هنا وهناك، وأمام الميناء الشرقى نجد العبيد مشغولين فى تفريغ السفن القادمة والراحلة بشكل منتظم. وهكذا نجد أن جنى تسوّق تجارتها بدلاً من الاقتصار على مكان السوق مثل المدن الأخرى .

إن السوق لم تكن بالشكل غيرالمنظم بين الزنوج ، حيث البضائع والسلع منتشرة هنا وهناك ، لكنها مقسمة وتشقها ممرات للباعة وهناك أماكن للبائعين والمشترين ، وتوجد ثلاثة صفوف تحدد جوانب السوق الثلاثة ، أما الجانب الرابع فإنه يفتح على المسجد ، ويجلس الباعة حول متاجرهم التى تشمل الفخار والنساء اللائى يتاجرن فى الخضراوات واللبن والسمك والزبدة والعطور والصابون والمنسوجات الوطنية والأوروبية خاصةً الملح والكولا وعيدان الكبريت والمرايا والسكاكين .. إلخ .

ويستقر رجال الصرافة هناك ومعهم تلال صغيرة من الأصداف ، وتعد محلات الجزارة من أهم السمات المميزة هناك حيث تباع اللحوم والأسماك ، بينما تنتظر اللحوم الحية دورها فى الذبح ، وفى هذه المدينة تجد السماء المكشوفة والشمس البراقة الضوء والزينات اللامعة والجميلة لمدينة مصرية قديمة حيث تجد جموعًا من الناس من سنغى يرتدون الأبيض .

لقد استقرت الحضارة الإسلامية والعربية فى هذه الأقطار لدرجة أن الكثير من العادات والتقاليد المصرية قد اختفت ولم تعد عملية تحنيط

جثث الأشخاص المشهورين - وهى إحدى سمات شعوب النيل - تمارس بعد ، حيث اعتبر الدين الإسلامى عدم شرعية هذه العملية ، لكنها استمرت تمارس بين شعب سنغى لفترة طويلة .

وتحكى القصص التاريخية القديمة بخصوص علىّ الغازى أنه بعد موت الملك طلب أبناؤه فتح الجثة واستخراج الأجزاء الداخلية ووضعوا العسل محلها حتى لا يتعفن الجسد ، ومن سوء الحظ لم تشر الوثائق وتلقى الأضواء على حالات أخرى ، فلا توجد إشارات عن نظام الكتابة أو الحرف الوطنية . وفى الحقيقة فإنهم استخدموا شرائح رفيعة من الخشب الناعم بدلاً من الورق الذى كان غاليًا جدا من أجل تعليم الكتابة لأطفال المدارس .

وكان الكتبة الفراعنة يستخدمون المواد نفسها لكى يخففوا من استخدام أوراق البردى الغالية . وقد طمست اللغة العربية الكتابات الأخرى كما حدث فى مصر ، ولهذا السبب أثر القرآن الكريم ورجال الفقه من العرب فى التقاليد الوطنية والفقهية .

وما عليك إلا أن تدخل منازلهم وتتعمق فى حياتهم الخاصة ، ولسوف تجد فى عاداتهم وأخلاقهم الكثير من الدلائل عن أصلهم .

ومن بين الأشياء المقدسة والمفضلة فى مصر القديمة نجد التمساح الذى كان غالبًا عند رجال الدين فى طيبة ، ولا تزال هذه العقيدة موجودة فى جنى ، فالمدينة والمناطق التابعة لها ينتشر بها أكلة عشب

خضراء ضخمة تشبه التماسيح ، ففى السنغال وبعض المناطق الأخرى يصطاد الأهالى هذا الحيوان من أجل لحمه اللذيذ كما قالوا لى ، ومن جهة أخرى فإن سكان جنى يعتبرونه مقدسًا ومن يقتله يكون قد ارتكب إثمًا كبيراً ، وعندما نقلت هذه الأفكار لأحد رجال الدين كان رده إن القرآن الكريم لم يحرم أو يمنع أكل لحمه .

وأضاف أننا نحترم أكلة العشب (الأغوانة) لأن آباءنا فعلوا ذلك ، وطائر الحمام الذى يعد طائراً مقدسًا فى معبد الإله آمون يتمتع بالخصال نفسها فى جنى حيث تُعد العشش والأطعمة فى المنازل ، ولا توضع قط موضع الإهانة ، واحترام الحمام بين هذه الشعوب معروف فى دول نيجيريا أكثر من سنغى حيث يطلق عليها (طيور جنى) . إن النزع الطيبة نفسها التى توصف بها الأجناس المصرية تشكل الأساس السيكولوجى لشخصية سنغى ، ويحكى تاريخ الفتاش أن رجلاً من السودان وليس من هذا الجنس قد تأثر بهذا القول ، وتتسم خصائص سكانه كما يقول بالطيبة والكرم .

ولقد أعطونا إيحاءً عن هذه الطيبة وروح الإحسان التى امتلأت بها أوراق البردى المصرية ، وشرح لى أحد تجار جنى طريقة المعاملات التجارية . إننا نعهد بتجارتنا للناس الذين ليس عندهم بضائع ، وهم يقومون ببيعها نيابةً عنا فى كل البلاد ويحصلون على جزء من الأرباح .

وإذا كانت لديهم الإرادة فإنهم يصبحون تجاراً بدورهم ، وأنهى حديثه قائلاً إنه من العار أن تتسول لأن من السهل أن تكسب قوتك بيننا، ومهما يكن الإنسان فقيراً فإنه يحب أن يعمل حتى يُصبح غنيًا

وسوف نقدم بعض المقارنات العامة ، وعلى عكس أهل الشرق والغرب ولكن اتساقا مع عادة قدماء المصريين ، فإن الرجال من أهل سنغى هم الذين يقومون بعملية نسيج الأقمشة وليست النساء اللاتى يقمن بالغزل والصباغة .

وعلاوة على ذلك يعرف الزنجى النيجيرى لونًا واحدًا فقط وهو الأزرق بينما يستخدم سكان سنغى اللون الأسود والأخضر والنحاسى الأحمر وتتشابه أدوات الزينة عند الشعبين .

أما بالنسبة للحرف فنجد تقسيمًا لها فى جماعات ، وتنحصر أعمال البناء والحدادة فى أسر معينة ، كما أن الحرف تنتقل من الآباء للأبناء ، وكل الحرفيين يعترفون بوجود سيد لهذه الحرف يفرض سيطرته على بقية أعضائها . وهنا نجد أن حرفة البناء من اختصاص الرجال لكن فى بلاد الزنوج تقوم النساء بعملية بناء المنازل .

وبينما يميل السودانيون والسنغاليون للون الأزرق فى جلابيبهم فإن سكان سنغى مثل سكان النوبا ، كما أن الأرز وليس الشعير هو الوجبة المفضلة والرئيسية عندهم ، وهم لا يصنعون أكلة الكسكسى من القرع بل يقدمونها فى أطباق من الصلصال الجاف مثل التى نشاهدها فى مقابر قدماء المصريين .

وهذا فضلاً عن أن الأشكال المختلفة من الفخار تعيد للذاكرة العينات القديمة فى الأرض نفسها ، كما أن لديهم أسرة خشبية حقيقية بدلاً من كتلة الطين المغطاة بالجلود التى تساعد الزنجى فى وقت راحته

ومكان نومه . لقد جاء اليوم الأخير فى جنى لقد انشغلت طوال اليوم فى استقبال وفود الأصدقاء الذين عرفتهم ببطء بين سكانها، فعلاً ببطء .

ولم تكن معرفتنا الأولى قد تمت بكثير من التردد بل وحتى الشك ، إنهم لم يستطيعوا فهم الأوروبى الذى شاهدوه لأول مرة والذى لم يكن تاجراً أو جندياً . وكانت أسئلتى المتكررة وغير المتوقعة قد أدهشتهم .

وكانوا ينظرون لبعضهم بعضًا ويضحكون عندما يشرح لهم المترجم ويفكرون بوضوح فى الأفكار السيئة التى أحضرها الرجل الأبيض فى رأسه ، وماذا يريد بالضبط ؟ وعندما علموا أن أعظم رجال الفكر عندهم من المرابطين يقرأون تاريخ الفتاش لى وأنهم يتجمعون حولى وأنا أسجل صفحات طويلة وهم ينصتون ، وبعدما بدأوا عملية تصنيف لى ، قالوا إننى المرابط الأبيض وصار هذا الاسم شائعًا بينهم .

وبالتدريج أصبحت موضوعًا للتحية بينهم حيث يقدم الرجال التحية لى بالطريقة العربية بوضع اليد اليمنى أولاً على الجبهة وبعدئذ على القلب . أما النساء فيؤدين التحية بحركة رشيقة لليد اليسرى تشبه التحية العسكرية ، ومع ذلك فإننى لم أخدع نفسى ، لأن هذه الأعمال توضح وتعبر عن العاطفة نحو رجل معتوه غير ضار ، وكانوا يقولون الرجل كثير الأسئلة ولكن عندما كنت أتحدث وأعطى معلومات عن أجدادهم كانوا يصيحون ويقولون إنك سوف تكتب تاريخًا للبيض عن

السود وبعد ذلك كانوا يقدمون كتبهم طواعيةً ويفتحون أبواب منازلهم لى وكانوا يقدموننى إلى شقق نسائهم ، وهكذا بالتدريج تحول الاحتقار إلى حب ومودة حقيقة ، وقد كشفت زيارات الوداع عن كل هذا الحب واكتشفت أننى أيضاً أشعر بنوع من العاطفة القلبية نحو بعضهم ، وقدم الجميع لى الهدايا وذكريات بسيطة وبعض الإمدادات والقليل من عبارات التحية باللغة العربية ، وكانت هناك أسئلة رقيقة : هل سأعود وأراهم؟ وهل سنتحدث مرة ثانية عن ديالامن وسنى وأسكيا الكبير ونهايته التعيسة؟

ولكى أبرر شهرتى كمرابط أجبتهم ، نعم سوف نلتقى ثانية ، ليس هنا ولكن فى وطن لا بيض فيه ولا سود ، فى أرض الله حيث تكونون بيض اللون مثلنا وهنا ضحك الجميع لآخر مرة ، وبعد الظهر ، وفى ساعة صلاة المغرب انسحب الجميع وذهبت إلى شرفة منزلى .

ومن هذا الارتفاع ظهرت الجزيرة والفروع الثلاثة التى تفصل جنى عن بقية الأرض وكأنها مرسومة على خريطة ، وبعد أن سلمت على الأهالى والأصدقاء تمنيت أن ألقى نظرة على هذه البلاد التى كان لها أثر كبير فى مخيلتى .

لقد كان الوادى مطرزاً ببقع بيضاء متحركة ، وكلها تتحرك نحو هدف واحد تجاه المدينة ، وعلى شواطئ النهر تجمعت البقع البيضاء فى مجموعات ، ومع نهاية اليوم يتسارع الناس إلى منازلهم ،

وينتظرون القوارب لكى تقلهم فوق المياه ، وعلى بعد مسافة ظهرت نقط سوداء تتجه المكان نفسه ، إنها كانت قوافل الخيول عائدة من المراعى ولكنها لا تنتظر القوارب ، بل اندفعت ناحية المياه التى تفصلها عن اسطبلاتها ، وعندما لا تجد من ينتظرها عند البوابات فإنها تهرول مسرعة عبر المدينة مرحة وهى تركل بعضها البعض ، مما يجعل الشوارع مملوءة بالزئير والصراخات والضحك ، ثم تعود هذه الحيوانات إلى منازل أصحابها .

وبعد ذلك ينتهى الصوت تماماً فى المدينة وبعدها يصعد أحد رجال الدين إلى مئذنة المسجد الكبير معلنا (الله أكبر) وينتهى اليوم ، ثم يظهر صوت من القلعة منادياً بتوزيع الأكل على الجنود وأخيراً غطى الظلام الدامس على كل الأرجاء فى هذه المناطق الاستوائية .

وداعًا لكل أصدقائى الذين تتمتم شفاههم بكلمات لا أعرفها ، وداعًا هذه الجزيرة العربية ، وداعًا أم تمبكت ، إنها جنى المصرية التى أدين لها بفرحة لا تقدر بعد أن عشت فيها نهاية القرن التاسع عشر ، فى مدينة الفراعنة .

الفصل التاسع

من مدينة جنى إلى تمبكت

بعد أن جلست مرة ثانية فى قاربى ، شققت طريقى المعتاد فى النيجر لكى أصل إلى تمبكت ، وأسرعت نحو المدينة العجيبة على أمل أن أجد بقايا الحقبة الحضارية التى قامت بها جنى فى النصف الأول من هذا القرن ، وكنت تواقًا لإزاحة الستار الذى أخفى السودان عنا طويلاً ، والذى جعلنا ننظر إلى هذه البلاد باعتبارها ملاذًا للبربرية مع أنها كانت أحد فروع الشجرة المصرية العظيمة ، التى هى مصدر كل الحضارة الغربية .

أصدقائى الشجعان ما هذه الحياة التى عشناها خلال هذه الأيام السبعة ؟ لقد واصلنا الرحلة نهارًا وليلاً ولم أسترح أكثر من ساعتين طوال هذه الفترة ، ولكى يشق الإنسان طريقه عبر هذه الدلتا الثلاثية الواقعة بين جنى وتمبكت - كانت هناك صعوبات جمة ، وكنت مضطرًا للإبحار ومعى البوصلة فى إحدى يدى وخريطة فى اليد اليسرى مثل القبطان الذى يعبر المحيط ، وفعلاً فى شهر يناير وعندما يكون الفيضان

فى أقصى درجات ارتفاعه تصبح الملاحة مغامرة كبرى حيث الإبحار وسط روافد وفروع على طول مجرى النهر ، ونظراً لأن خريطتى غير كاملة طلب الرحالة حرصًا شديداً ، لا يوجد قمر وكان ضوء النجوم خافتًا لا يساعد علىٍ تقدمنا ، ووصلت إلى المنطقة المجاورة الكول هادج El Qual Hadj حيث يتصل فرعان من النيجر ويصبحان فرعًا واحداً ، ودخلت هذه المجموعة من الجزر وتجولت هنا وهناك ، وعند طلوع النهار نجحت فى اجتياز هذه الفروع ، وكنا قد قضينا الليلة ذهابًا وإيابًا فى ظلام دامس ، وفى كل لحظة كنت أعتقد أننى وصلت إلى فتحة – لكن أجد نفسى وقد دخلت فى جزيرة أخرى ، ونظراً لعدم وجود الخمور ، ووجود كميات ضخمة من الماء لم يكن إحساسى مختلفًا .

وفى خلال سبعة أيام نجحنا فى اجتياز هذه المناطق ، وهى مسافة تغطى ثلاث درجات من درجات العرض ، ولكن ما هذه الانحناءات والالتواءات ؟ لقد قطعنا مسافة ٣١١ ميلا ، وخلال هذه الأميال شاهدت مناظر من نورماندى ومناظر من سوريا ، لقد شاهدت موانئ كورنزا وسارافارا ودار السلام والتى تتحد مع جنى فى إمداد أسواق تمبكت بحاجتها ومررت وقابلت الكثير من هذه القوارب الجميلة فى جنى ، وكان بعضها منفرداً والبعض الآخر فى أساطيل من عشرة أو أربعة عشر مركبًا حسب تقاليدهم القديمة ، وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للحماية من قراصنة النيجر ، وكانت القوارب ترابط فى مناطق داخلية ، وكان البحارة يقيمون فى معسكرات حيث يشعلون النيران على الشواطئ ،

وهذا يذكـرنا بالمراكز التجـارية الفينيقية وكأننا نعيش على شـواطئ البحر المتوسط .

لقد صادفنا في طريقنا قلعتين ونعنى سـارافارا Sarafara والكول هادج وكلتاهما تختلف عن أى مكان شاهدته من قبل ، وقضينا عامًا قبل أن نصل إلى هذه المنطقة (حيث مناظر نهب الطوارق والاستغلال المدمر)، وقد فهمت أن هذه المراكز إستراتيجية ومهمة ، وظلت تمارس نشاطها كقلاع وحصون وليست كمراكز إدارية .

لقد لاحظنا المظهر العسكرى لقلعة الكول هادج التى تعد مركزًا رياديًا ، ووسط صفوف أشجار النخيل وجدنا مساكن مخربة للرؤساء السابقين ، وهى تمثل المقابر وليست القصور للرؤساء أنفسهم ، ويصف البكرى أحد الرحالة العرب[١٣] الذين زاروا هذه المنطقة فى منتصف القرن الحادى عشر هذه المقابر قائلاً : "عند موت الملك يقيم الزنوج قبة خشبية عظيمة ، يقيمونها فى مكان حددوه بأنه مقبرته ثم يضعون الجثة على محفة مغطاة بالوسائد وتوضع داخل القبة ، وإلى جانب الجثة يضعون كل الزينات والأسلحة والأطباق والملاعق التى كان يأكل بها ويشرب بها أثناء حياته ، كما توضع أيضا مختلف أنواع الأطعمة والمشروبات الملكية .

ويغطى كل المكان بالحصر والأقمشة ، ويتجمع الناس ويلقون التراب على المقبرة حتى يتكون تل كبير ، ويقدم الزنوج الأضحيات لهؤلاء الأموات ، فضلاً عن المشروبات الكحولية " .

ومن سوء الحظ لم أستطع أن أحدد عما إذا كانت هذه النماذج تضم هذه البقايا من الجثث ، ولكن جاءت أوقات أفضل عندما تم نفى الطوارق إلى أوطانهم الأصلية فى الصحراء وتمنيت أن أجد بين قواد الكول هادج أحد الذين يكشفون سر هذه الآثار .

وبعد حصن سارافارا ، فضلاً عن المناظر المتعددة ، يقدم لنا النيجر صورة درامية مهمة فى الصراع بين النيجر والصحراء وهى معركة الحياة ضد الموت ، وتتضح عملية الصد للصحراء ، وهذه المحاولات أبرزت مراعى خضراء ، امتداداً للحضارة ، وحقول غنية بالأشجار .

ويضعف النيجر كلما اقترب من تمبكت ، وبدلاً من أن يواصل تقدمه المستمر نحو الشمال فإنه يتجه تدريجيًا نحو الشّرق ، ويعاود الرمل هجومه ، وعلى الضفة اليسرى تزداد كتل الرمال ويزداد عددها ، ويحدث الفصل الأخير من العمل الدرامى بالقرب من تمبكت حيث يستسلم النيجر أخيراً شمال الصحراء ، ويتجه فجأة ناحية الشرق ، وينتهى إلى اتجاه بحيرة تشاد ، ووسط هذه الرمال تظهر مياه النيجر عند أسوار مدينة تمبكت نفسها .

والآن أصبحت مملكة الصحراء هدفنا لأن المدينة المشهورة تقع عند بواباتها ، وربما يواصل النهر سيره ، ولكننا نبتعد عنه ، ونتجه نحو بحيرة ديا **Pool of Dai** ويسجل شهر يناير أعلى درجات الفيضان ، وتحمل المياه الأعشاب حتى أعتاب هذه الكثبان الرملية .

وتمتد مساحات شاسعة من الأراضى الخضراء إلى آخر حواف الأشجار التى تؤكد خصوبة التربة ، لكن كلما تقدمنا نجد أن هذا الحد قد حلت محله تلال رملية واسعة أكثر مما شاهدناه من قبل ، وهذا يعلن انتصار الصحراء وخلف هذا مباشرةً تقع تمبكت .

ومع ذلك فإن كابارا **Kabara** وهى قلعة تمبكت تقع على مسافة بعيدة حيث اتجهنا إليها فى خط مستقيم تاركين المستنقع ، نشق طريقنا مباشرةً عبر المناطق الخضراء الصالحة للملاحة ، وكلما اقترب قاربى تظهر مناطق رملية مرتفعة وببطء تتشكل كتل مربعة من الأسوار ، وفى أحد أطرافها يرفرف علم (من المؤكد أنه القلعة) ، وفى الطرف الآخر تظهر أذرع صليب أسود طويل ، وأسفل ذلك تظهر المبانى من الطين والأكواخ من القش الذى يغطى الشواطئ المنحدرة إنها حصن كابارا .

لقد وصلنا إلى حوض من الماء حيث ترسو مجموعة من قوارب جنى وتظهر حركة وضوضاء فى هذه المنطقة ، وبعد ميناء تمبكت لعبة إذا ما قورن بميناء مرسيليا لكن الانطباع الأول متشابه .

وما أن نزلنا حتى لفت انتباهى أمران لم يفارقانى حتى رحيلى وأعنى الرمل والطوارق ، والرمل لأنه بمجرد أن تطأ قدماك الشاطئ تغوص فيها وكأنها فى وحل ، وهذا ينتشر فى كل مكان فى الدولة فى الشوارع وفى المنازل .

أما الطوارق فقد تركوا انطباعًا عندك لأنه رغم أنك لم ترهم من قبل إلا أن كل شىء يذكرك بهم ، حيث تلحظ هذه المجموعة من الحرس الموجودة كلما اقتربنا من القلعة وحاميتها العادية من المشاة تدعمها الفرسان وعدد من المدافع ، والكل فى يقظة تامة رغم مرور عامٍ على احتلالنا ، والدروس المستفادة من كارثة بونيه **Bonnier** ما زالت ماثلة أمام الأعين ، وأيضًا المذبحة التى وقعت فى منطقة أوبى **Aube** التى تبعد قليلاً عن القلعة .

وكان قاربه الحربى رأسيًا على حافة بقعة خضراء حيث هاجمه رجال ملثمون من الصحراء ، وحاول تعقبهم لكنهم سحبوه وسط الصحراء ، وصار هذا الشاب ومعه تسعة عشر من رفاقه على حافة التل وتحت الحزام المربع الذى مد ذراعيه مسافة طويلة .

لقد عانت كابارا مثل سيجو وسانسادنج كثيرًا من الدمار والفوضى العارمة التى عمت وادى النيجر ، وازدادت آلامها باغتصاب الطوارق ، وتدمرت المدينة لكن الإحساس السائد لم يكن هو الفقر ، ولقد أمكن التغلب على البؤس بالحياة الحيوية والحركة التى سادت هناك ، فالميناء يعج بالحركة ، والسلع التى تفرغ أو تحمل على ظهور المراكب ، ويعيش الملاحون والمسافرون فى معسكرات رخيصة فى جماعات هناك ، وعبر الشوارع يلحظ الإنسان حركة مستمرة من عمال الميناء والحمير والإبل وقوافل قادمة من تمبكت بحثًا عن السلع ، وأيضًا بدو الصحراء يحضرون ماشيتهم ليتبادلوها بالسلع الجديدة ، ويقيم فى هذه المدينة ألف ومائتين نسمة ، فضلاً عن ألف من الغرباء عبر هذه القوارب .

إن كابارا ليست الميناء الوحيد لتمبكت ، وهى تشارك ميناءين آخرين ، لكنها هى الوحيدة التى تلعب دورها خلال فترة محدودة (من نوفمبر حتى مارس) من كل عام ، وعندما ترتفع المياه إلى أقصى درجاتها فى يناير فإنها تغطى منخفضين وتصل إلى كابارا وتسير حتى تصل إلى ثمانية أميال وسط الصحراء ، وأحد هذين الفرعين وهو أصغرهما يتجه غربًا ويصبح صالحًا للملاحة ، وتسمى مستنقع كابارا ، ويقولون إنه فى سنوات الفيضان غير العادى (مثل عام ١٨٩٤) استطاعت سفن ذات حمولة ثلاثين طنًا أن تصل إلى بوابات المدينة ، وأن تفرغ حمولتها وتقوم قوارب خفيفة بنقل البضائع ما بين كابارا وتمبكت .

وينخفض نهر النيجر بشكل معقول فى شهر أبريل ، ويمتلئ السهل العظيم بالحشائش الكافية ويصبح امتداداً للزراعة التى تصل إلى ميناء كابارا ، ويتوقف عمل المدينة كميناء وتصبح مركزًا زراعيًا .

وفى الفترة من أبريل إلى يونيو تتوقف القوارب الكبيرة عند مدينة ديا Dai التى تبعد ميلين ونصف ميل عن كابارا ، وتحمل القوارب الحمولة ما بين المنطقتين خلال قنوات صغيرة ، وبعد ذلك فى شهر يوليو تتوقف السفن فى كوريوما دجتافا Koriouma Djtaf على النيجر نفسه وهى تبعد مسافة ستة أميال عن كابارا .

وعلى هذا يخدم تمبكت ثلاثة موانى ، وهذا ما جعل أسكيا الكبير يركز أسطوله فى كابارا ، وهو الذى شق قناة من ديا إلى كابارا ، لكن هذه القناة طمرت وصارت عديمة الجدوى عند انخفاض مياه النهر .

ويفصل تمبكت من كابارا طريق زراعى طوله خمسة أميال ، ولقد وصلت إلى هذه المدينة الغامضة بعد أن رسوت فى مينائها ، لكننى كنت فى حاجة ماسة للراحة لكى أسترد توازنى العقلى قبل أن أسترد حيويتى وأستطيع رؤية المدينة التى من أجلها سافرت هذه الأميال لكى أرى تمبكت ، لقد حلمت بها وأنا طالب فى المدرسة ، والآن صار حلمى على وشك التحقيق ، وعزمت على أن أكون مرهف الحس ، وألا أندفع إليها بشراهة ، وقالوا لى إننى أستطيع رؤية المدينة من ارتفاع القلعة ، ولكننى لم أذهب إلى هناك ، وأريد أن أشعر بالإحساس الأول للمدينة ككل دون أن أفقد جمالها بنظرة سريعة .

وفى أحد الأيام بعد الظهيرة جهزت بغلاً سريعًا وكرسيًا ذا مساند، ووضعت أمتعتى على عدة إبل فى الساعة الثالثة ، وأحدث هذا نوعًا من الأصوات التى هزت سباتها العميق حيث اندفعت إلينا جماعات من الناس والحمير والإبل فى عرض صغير أمام القلعة ، بينما نشهد على بعد عشرين مترًا رجال الحرس ومعهم بنادق على أكتافهم .

إنه يوم الرحيل للحملة اليومية . إن هذه الأميال الخمسة القليلة لا يتم السير فيها حسب الهوى بل مثل الثلاث مائة ميل التى تفصل مدينة كايس Kayes عن النيجر ، واضطررنا إلى السفر والتحرك تحت حماية حربية لأن الطريق ليس آمنًا ، وأنت تعرف السبب ، إنهم الطوارق، ومنذ عشرة أيام مضت هاجمت هذه الجماعات المسلحة بعض الرحالة ونهبوهم بل وقتلوهم .

تقـدمت الجـمـوع نـحـو تمبكت ، والكل يقـول لنا إلى الإمـام نحـو الصـحراء والكل يحمل شيئًا أو يقود شيئًا ما ، ويحمل الرجال الحراب والبنادق التى تصاحب الإبل والنساء يدخن الغليون الطويل وهن يركبن الحمـير والموكب يحمـل طابع هجرة شعب مسلح حاملين معهم كل لوازم حياتهم .

لقد كانت حدود الصحراء مفاجأة كبرى لى حيث إننى توقعت أن أجد امتدادًا شاسعًا من الرمال الناعمة البراقة ، لكن الطبيعة لم تتغير فجأة ، ووجدنا أنفسنا وسط رمال ناعمة حارة لكنها ليست عارية ، وكان الطريق وحده شديد البياض ، أما الطرق الباقية فقد كستها نباتات غريبة لكنها ليست غابة أو أشجارًا سميكة ، إنها غابة من الأشجار الصغيرة التى تحتوى على أشجار النخيل ، والصمغ وأشجار اللبان ولونها شاحب ويكسوها التراب وخضرتها باهتة مع بعض الأغصان المدببة حتى إن ظلها ضعيف .

ولم نشهد الطريق المائى الذى مررنا عليه ثلاث مرات فى الصحراء، إنها مستنقع كابارا فى طريقنا نحو تمبكت ، حمدًا لله وشكرًا أننا لم نعبر هذا الطريق بعد تخيل الصحراء وعليها جسور ، إن المياه تشق هذا الممر وهذا كان مصدر سعادتنا ، إن المياه مرتفعة ورجال الحرس الفرنسى يتحركون بملابسهم الرسمية ، أما الرجال فقد خلعوا ملابسهم من الجوخ الغالى وكذا النساء ، وحملوا كل شىء غالى الثمن والملابس

والأسلحة والسلع على أكتافهم ، لقد جاء دور الحيوانات والحمير ، لقد أخذ الجميع يسبح فى الماء وسط الفرح والمرح .

لقد شاهدت مجموعة من الطوارق وسط هذا الصخب ثم تبدأ عملية هجوم مرة ثانية ، وهكذا يحمل الطريق بين كابارا وتمبكت سمعة سيئة ، وقد أعطاه الأهالى اسما تراجيديا (لا نسمع) ويعنى أنه لا يمكن سماع صراخ الضحايا سواء فى تمبكت أو فى كابارا ، إن هذا المكان يحمل ذكريات مريرة لنا أيضًا وتوجد لافتة مثبتة فى أحد الوديان المجاورة مثل الذى شاهدناه فى كابارا وعليها هذه العبارة "تمبكت" .

وبعد قراءة هذا الاسم المحفور ينظر الإنسان بنوع من الشك والريبة حوله يمينًا ويسارًا ، إن الأمر يتطلب الحكمة وسط هذه الأصوات وهذا الزحام الذى يملأ الطريق مثل الكتاكيت حول الدجاجة لدرجة أن الأفكار والمشاعر للقرب من المدينة قد جاءت وسط النسيان .

ومع هذا ففى لحظة معينة تجمعت كل هذه القوى وانفتح الممر ليصل إلى تل مرتفع ، وبعد أن سرنا فى اتجاهه حتى القمة شاهدنا مدينة تمبكت أمامنا .

الفصل العاشر

مدينة تمبكت

لقد ظهرت مملكة السودان وسط السماء البراقة الواسعة ووسط هذه الأرض الممتدة والتى تحد هذه المدينة موحدة الاثنتين معًا ، وعبر هذه المساحة يبدو كل شىء بسيطًا وقاسيًا ، لقد اختفت الغابة من أمام أعيننا ولا شىء يُخفى هذه الأرض المنبسطة التى تنيرها شمس الصحراء البراقة .

حقًا إنها تعلو فى الأفق بعظمة المملكة . إنها حقًا مدينة الخيال ، تمبكت فى الأساطير الأوروبية .

وتتخلل هذه الامتدادات الواسعة من الرمال عظام وبقايا حيوانات التهمتها الحيوانات المتوحشة ، فضلاً عن بقايا الإبل والخيول والحمير التى سقطت وماتت فى المراحل الأخيرة من الرحلة ، إن مدن الشرق على اختلاف أنواعها تكثر فيها هذه العظام ، كما أن الطرق عبر الصحراء مليئة بهذه الأجساد .

وبالتدريج فإن تفاصيل هذا الشكل البعيد تظهر أكثر وضوحًا ، كما أن الأسوار التى تميز هذه المدينة وسط هذا البحر من الرمال البيضاء قد اختفت ، وظهرت ثلاثة أبراج وضعت فى فترات منتظمة لتحدد المكان، وأمكننا تمييزها شرقًا ، المنازل المربعة والتى تعطى مظهرًا بعمق هذه الكتلة ذات المعالم الواضحة ، وتجدد الإحساس الأول بالعظمة .

وسواء اقتربت من شواطئ النيجر أو من شواطئ المحيط الأطلسى أو من مراكش ، وطريق القيروان أو من سواحل البحر المتوسط من طرابلس أو من غدامس ، فإنك ستشهد المعالم نفسها ، من العمق والعظمة والفخامة .

لقد دخلنا المدينة وخلفنا مشاهد المسرح ، وتوقفنا واختفت كل العظمة فجأة ، وظهر مشهد آخر أكثر تأثيرًا بسبب المآسى التى يحملها بدلاً من جمال المكان ، فبدلاً من أن نجد المدينة متكاملة ومنظمة حسب ما شاهدناه من شكلها الخارجى ، دخلنا مدينة يبدو أنها نكبت بمجموعة متعاقبة من المآسى والدراما نتيجة الحصار والسيطرة والدمار، إن المناظر التى شاهدناها من بعد لم تكن سوى ظلال لكتلة من المنازل المهجورة ، لقد تساقطت الأسقف ، وأزيلت الأبواب ، وتدمرت الأسوار وسقطت ، وصارت مجرد أكوام من الخراب وتناثرت هنا وهناك أكوام من الطوب اللبن والأخشاب المتهالكة فوق المكان المكشوف الذى كان الممر المؤدى إلى هذه المساكن .

وتشـهـد خلف هذه الآثار المدمـرة الســوق أو ربما إحـدى الأســواق ولكن كـانت هذه أوسـعـها وأكـثـرها كمـا قـالوا لى وتمنيت أن يزول هذا الإحساس السيئ عند دخول المدينة ، والمكان واسع حقًا ، ولكن هل كان هذا المكان هو سـوق تمبكت الكبـيـرة ؟ وتجـد النسـاء ومـعـهن الســلال الصغيرة والحصر المستديرة الصغيرة وهن يبعن أشياء بسيطة مثل العطور والخضراوات الطازجة مقابل مبالغ بسيطة من الأصداف مثل أى مـدينة أخـرى فى السـودان ، وهل هذه هى كل التـجـارة العـالمـيـة فى تمبكت؟ لقد استعادت الذاكرة سوق جنى فإنه من أشهر الأسواق فى كل أنحـاء العالم ، وأنا الذى اعتقدت أنها كانت إحدى الأسواق العـظيـمـة فى الماضى ، كمـا أننى كنت أظن أننى سـأجـد منتجـات عربيـة وزنجـيـة وأفريقية بل وأوروبية .

وبدلاً من أن أطمس صـورة هذه الآثار فـإن هذا المشـهـد أصـابنى بالكثير من الدهشة ، ماذا يحدث هنا؟ ومـا الذى وقع هنا؟ سـألت نفسى هذه الأسئلة وأنا فى غاية الدهشة .

إن البيوت حول مكان السوق استطاعت أن تمتد حقًا بل وسكنها أناس . يا أيتها المنازل الجميلة فى جنى كم يبدو وجودك بعيداً عنا ، أين الأشكال والنمـاذج والمعالم المتناسقة ؟ أصبحت الآن أثرية إننا نجد هنا مـجرد منازل من نوع آخر دون هيكل أو سـمـة أو ارتفـاع أو نمط مـعـين بل مـجرد أربعة أسوار وسقف مسطح ، وإذا كـانت هذه المنازل جمــيلة - إلا أن الطوب قـد تآكل بفعل الدمـار والأمطار والرياح والشـمس، ولقـد فشلت كل الجـهـود من أجل إصلاحـها أو إعـادة البناء منذ زمن طويل بل

يبدو أنها هُجرت من عدة سنوات ، وأنه قد أعيد البناء والسكن من جديد حديثًا ، ومنظر السوق والأسوار المحيطة تؤكد هذا الافتراض.

وكلما تقدمنا داخل المدينة وجدنا البؤس والدمار واختفاء كل مظاهر العظمة الخارجية والسماء وحدها هى السماء نفسها الواسعة البراقة ، دعنا نتتبع الطريق الذى يشق قلب المدينة ، فالمبانى المحيطة به عالية ولكن لها قصة إضافية ، حيث إننى كنت مشدوهًا بهذه الآثار التى كانت عرضة للدمار والخراب والإهمال ، وكان بعضها يضم أدورًا ثانية لكنها أيضًا تعرضت للدمار بل وتساقطت أعمدة النوافذ ذات الطراز المغربى وتظهر الأبواب ومداخلها فقط نوعًا من الاهتمام والرعاية من السكان ، وكانت الأبواب غريبة ذات كتل ضخمة مثبتة بمسامير ضخمة، وكانت مغلقة بإحكام على عكس عادة مدن الزنوج .

وخلف هذا الطريق تظهر قطع من الأرض تمثل منظر المنازل المهجورة التى تدمرت والتحمت مع مجموعة من الأعشاب والشجيرات والحصير والأسوار ، وأحيانًا يتخلل هذا البؤس مجموعة من الأكواخ المبنية من القش ، مع أسوار من الحصير ، إنها مساكن الفولانى البدو وسط المدينة .

ومررت هنا وهناك على مجموعة من المنازل المرتفعة ذات الأبواب الضخمة والمغلقة تمامًا وبعدها نجد الدمار والآثار ، ورغم أن الدمار كان قويًا تاركًا أسقفًا معلقة على الحوائط - إلا أن حجمها يدل على أنها

كانت مساكن ذات أهمية وربما تكون مبانى عامة – من عاش فيها؟ يبدو أنها لم تكن مساكن عادية ؛ لأن الرجل الذى عاش فيها كان معروفًا فى كل أنحاء أوروبا وفى كل أنحاء العالم ، وكانت هناك مراسلات بينه وبين ملكة إنجلترا إنه رجل يعرفه المثقفون والمستكشفون من كل الدول ويتذكرون ورعه وتقواه ، وكان مضيفًا لبارث والمدافع عنه أثناء وجوده – إنه الشيخ أحمد البكائى الذى عاش هناك ، ولا توجد من آثار هذه الأسوار سوى سقف ، وكانت بقايا أسرة أحد خدمه قابعة فى أحد الأركان من الحوش الكبير الذى نبتت فيه بعض أشجار القطن ، كان هذا هو كل بقايا وآثار تلك الحياة البراقة فى يوم من الأيام والتى اندثرت الآن .

وعندما تنتقل من أحد أطراف المدينة إلى طرف آخر تتكرر نفس القصة من الطرق المدمرة والمتهالكة حيث تخوض فى رمالها وكأنك وسط الصحراء ، وهكذا اختفت مدينة كانت مثار إعجاب العالم فى يوم من الأيام .

هل كان هذا مجرد سراب؟ لم يكن المنظر متوقعًا وجذابًا لدرجة أننى لم أهتم كثيرًا بالحياة والحركة بين هذه الآثار ، ولم أشاهد وألحظ انعكاساتها على المدينة المدمرة – لكن كل هذه الأشكال الطويلة الزرقاء والبيضاء كانت تتحرك داخل المدينة ، وتقابل فى الطريق الإبل والحمير والحمالين ومعها أمتعة ثقيلة ، ولم أسمع أن كل ما كتبت عن الصحراء والسودان وأماكن أخرى من البحر المتوسط والمحيط الأطلسى إلى بحيرة تشاد – موجودة فى هذا المكان .

ولم أستطع أن أميز تحت العمامة البيضاء أو الطربوش الأحمر كل هذه الأنماط المختلفة من أجناس الزنوج - العرب والبربر وأهل سنغى والموسى ، والبمبارا ، والتوكولور والمالنكا ، ومن بين السود أيضا الفولبى والمغاربة والطوارق وأهل طرابلس بين الشعوب البيضاء ، ويرتدى كل هذا الخليط معاطف ممزقة غير منتظمة وقذرة وهو ما يتفق تمامًا مع المنظر العام الذى يجده الإنسان وسط الخراب ، وتؤدى هذه الأبواب المغلقة بإحكام إلى الاعتقاد بأن كل الذين مروا على المدينة كانوا غرباء .

إن كل مايحيط بهذه المدينة وتلك العظمة هو الدمار الذى قضى على كل ذلك ، وصارت هذه هى الصورة الماثلة فى عقل الأوروبى .

لقد اكتملت الصورة وعرفت أن المدينة لم تحاصر ولم تنهب ولم يطلق عليها قنابل أو حتى دُمرت منذ احتلال الفرنسيين ، لقد تم رفع علمنا هناك منذ عدة شهور دون إطلاق رصاصة واحدة ، إن المدينة على ما هى عليه قبل أن ندخلها ، إنها مدينة تمبكت العظيمة حاضرة السودان والصحراء ، ومصدر الثروة والتجارة ، إن هذه هى تمبكت المقدسة ومهد العلماء ونور النيجر كما كان مكتوبًا عنها ، سوف تصحح النصوص الإغريقية يومًا ما ، وأيضًا النصوص اللاتينية الموجودة هناك، وإننى لم أشهد المدارس المفتوحة التى كانت كثيرة جدًا فى جنى .

إن هذا الدمار وهذا الانحلال وذلك التحطيم للمدينة هو سر تمبكت العجيبة!!

إنك تستطيع أن تتخيل مدى الحيرة عندما حان الوقت للبحث عن سكن ، وكانت أول فكرة خطرت ببالى أن نقيم على الطريق وتنصب خيمتى فى الفضاء الواسع ، على بعد مسافة من هذه المنازل المتهالكة ، وتلك الآثار المدمرة ، وكان خادمى المسن – وهو سنغالى من الجيش الفرنسى – قد بدأ البحث عن مسكن بينما كنت أتجول فى المدينة ، وعاد ليعلمنا أنه قد وجد مسكنًا ، وقادنى بسرعة نحو مكان لا يقل عن بقية الأماكن الأخرى .

ولدهشتى الكبرى رغم هذا وجدت أن مدخله لا يتفق مع خارجه ، إنه ليس قصراً ، لكنه كان نظيفًا وجيد التهوية وفى حالة جيدة ، ووافقت على السكن فيه فى الحال ، حيث كان يضم غرفتين ومطبخًا وحوشًا واسعًا ، ويوجد ممر يؤدى إلى حوش فى الخلف مع سلالم تؤدى إلى السطح ، وقد تم استئجار المسكن بخمسة وعشرين فرنكًا فى الشهر .

وفى الحال تم تفريغ حمولة الإبل ، وكنت منذ لحظة أعتقد أنه لا يوجد أى شىء فى تمبكت أو فى العالم نفسه ، وقد قمت بتفريغ كل أمتعتى والطاولة والكرسى والسرير والأوانى والحلل وفرشة الأسنان ، ووضعتها كلها بشكل منظم وكنت مسروراً ؛ لأن هذه الأشياء وصلت سليمة ولم تتحطم .

وفى الصباح التالى أرسلت خطابات توصية من أصدقائى فى جنى ، وكانت الرسائل الصغيرة تحتوى على كلمات رقيقة ، وفى لحظات سريعة وجدت مدخل السكن وقد اكتظ بعدد من الزوار ، وامتلأ المنزل بالهدايا من البيض والملح وريش النعام والدجاج والكتاكيت والأغنام ،

وكنت مضطراً للتنازل عن الأخيرة لأن المراعى هنا صعبة - لكن أمكن وضع الدواجن فى الفناء الخلفى ، ولأول مرة فى حياتى أصبح عندى مزرعة دواجن أحصل منها على بيض طازج ، وكان ردى على هذه الهدايا القيمة إعطاء الزوار هدايا من الشاى والسكر والعطور ، وكانت خطابات التوصية قد أوضحت الغرض من الزيارة ، وبعد أن عرفوا الكثير عن زيارتى لجنى وعن أخلاقياتى - أسرعت لشرح غرضى من الزيارة ، وكانوا دائمًا يحضرون كل الناس الذين يساعدون فى إنجاز مهمتى ، وبدأت حياة سعيدة وموفقة فى المنزل الذى دخلته وأنا أفقد الثقة فيه .

وكنت أعقد جلسات فى الحوش الصغير المظلل ضد شمس الصحراء ليلاً ونهاراً ، وكان الزوار يجلسون القرفصاء ، بينما جلست على الكرسى الوحيد والطاولة وبعض الأوراق أمامى ، وقد استعادت هذه الصورة لمحات عن جامعة الأزهر فى القاهرة[١٤] ، إنها كانت حقًا فصلاً دراسيًا يضم التلاميذ ومدرسًا واحداً وبدأنا مرحلة القراءة والحفظ لتلك القصص والوثائق عن تمبكت .

لم يكن هناك تعليم حقًا فى هذه التجمعات ، فكل عضو يحكى قصته بحريته ، وينتقل من موضوع لآخر بكل سهولة ، وكانت أكواب الشاى والقهوة والكولا تتخلل هذه الاجتماعات طوال الفترة ، وكانت الدواجن تحدث ضجيجًا من حين لآخر .

وكانت العصافير المغردة والسحالى الصغيرة تشاركنى فى مسكنى، وكانت السحالى تقاطع الجلسة وتمر بين الحاضرين ، الطيور كانت تغنى بشكل متصل ، وكنت أنا الوحيد الذى لاحظ هذا لأن تمبكت قد تعودت على هذه الأشياء .

وجلست عدة أيام داخل المنزل ولم أتحرك خارجه لأن حياتى كانت حافلة بالعمل ولم يكن عندى وقت فراغ ، وكنت سعيداً بهذه الحياة ولم أفكر فى الخروج إلى الشارع ، ولقد شاهدت تمبكت جديدة تبنى أمامنا ، وكان المنظر التعس الذى استقبلنا عند وصولنا قد اختفى تدريجيًا ، وكان السر يحلق حول تمبكت الغامضة ، إننى أرى بعينى أخيراً الصورة لهذه المدينة العظيمة تمبكت الثرية بالأساطير .

الفصل الحادى عشر

تمبكت عبر العصور

أشرنا إلى تاريخ الدول شرق النيجر لكى نفهم أهمية مدينة جنى – ووجدنا أن هناك شريانًا من الحضارة المصرية ، ومع هذا فإننا إذا أردنا أن نعرف أصل مدينة تمبكت فيجب أن نبحث فى اتجاه آخر ؛ لأن ماضيها ارتبط بالحضارة العربية فى شمال أفريقيا . لقد كان الشمال الأفريقى عالم البربر نفسه ، والذى يشمل كل الشعوب البيضاء التى عرفناها تحت اسم (الطوارق) فى الصحراء الكبرى والقبائل فى الجزائر والمغاربة فى مراكش والسنغال والفولبى بكل توسعهم فى السودان .

وحسب التقاليد الخاطئة فإننا نعتقد أنهم بدو رحل من كل أنحاء المعمورة، ولكن مثلهم مثل اليهود ، فإن الظروف جعلتهم ينتهجون حياة التجول والترحال ، وفى الحقيقة فإنهم يمثلون مختلف أجناس سكان أفريقيا على البحر المتوسط من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس ، وقد لاحظ ابن خلدون المؤرخ المشهور[١٥] أن كل شمال أفريقيا حتى حدود أراضى السود قد قطنه جنس البربر منذ فترة لانعرف بدايتها

ولاحدودها . وعاشت هذه الأجناس على سواحل أفريقيا وزرعوا الأودية الجميلة فى التل ، قبل وصول المستعمرين الفينيقيين والرومان .

وقبل وصول المستعمرين الفينيقيين والرومان – حركت كل من قرطاج وروما البربر للتجمع ودفعتهم إلى الداخل ، وهم الذين حولوهم إلى شعب بدوى – لقد كان البربر فى مراكش أى المغاربة آخر الأجناس التى عانت كثيراً . وكان الاستعمار القديم الذى كان مكثفًا فى الجزائر وتونس أقل أثرًا فى مراكش والتى لم تتغير تمامًا بوصول المستعمرين . ولقد تحول نصف سكانها إلى ساحل الأطلسى حتى وصلوا إلى أرض السود ، بل بقى النصف الآخر إلى جانب القادمين الجدد . وظل هذا الجزء ثابتًا ومتكاملاً حتى الفتح العربى ، وعندئذ اختلط المغاربة والعرب واتجه الغزو إلى بلاد الأندلس (أسبانيا) حيث لقوا على مدى ثلاثة قرون الكرم والحضارة من أوروبا ، ومن المعروف تمامًا الفضل الكبير والخدمات الكبرى والأخلاق الطيبة والفنون الجميلة التى قدمها العرب للحضارة الغربية فى عصرالنهضة من خلال الأدب والثقافة والصناعات المتطورة . ونتساءل ما الذى تبقى من هؤلاء الشعوب الذكية عندما تم طردهم من أسبانيا؟

إذا عدنا إلى مراكش فسنجد أن تراثهم أصبح فى أيدى العرب الذين أُجبروا على توسيع هجرتهم ناحية الجنوب بعد أن ساروا مع سواحل المحيط الأطلسى والدول الزنجية ، صاروا بدورهم بدواً مثلهم ، وتجول المغاربة الأسبان حول البحيرات الكبرى على الشاطئ الأيسر

لنهر النيجر فى المناطق المجاورة لوالاتا Oualata وتمبكت حاملين معهم اسما جعلنا فى شك فى أصلهم ، وقد أطلق عليهم اسم (الأندلسيين) حتى يومنا هذا .

وكما نلاحظ بعد ذلك فإن هؤلاء المغاربة بعد عودتهم أصبحوا أهم عناصر عظمة تمبكت . فأرباب فالفن المعمارى الجميل والقصور الضخمة ومساجد قرطبة وغرناطة ، تعيش اليوم فى خيام من الجلد على رمال الصحراء الكبرى ، كما أن هذه الرمال كانت مكان الصلاة الوحيد أمامهم . ولقد قضت هذه الحياة البدوية على عظمة تلك الحضارة الراقية التى كانوا قد وصلوا إليها . وصارت ثروتهم الوحيدة عبارة عن قطعان من الماعز وبعض الثيران وقطعان الأغنام ، وكانت المصنوعات الجلدية المزركشة والمحافظ الجلدية والوسائد الفاخرة والبارود وبعض المجوهرات هى كل ما يتذكرونه من سمات الفن الراقى الذى أدخلوه إلى أوروبا .

دعنا الآن ندرس ماحدث للبربر فى الجزائر وتونس ، وقد كانت أحداث الماضى أشد حدة وأكثر وحشية ، حيث استقرت أعداد صغيرة منهم – وقد اندفعوا خلف جبال أطلس ليجدوا أرضًا تدر عليهم ما يحفظ حياتهم فى الجبال ووديان القبائل – وظلوا تابعين هناك طوال هذه القرون .

لقد شق الجزء الأكبر منهم طرق الصحراء فى ذلك الوقت ، وسيطروا على الأجناس السوداء ، وكانت رمالها الواسعة خصبة ومكتظة بالسكان

أكثر مما هى عليه الآن لأن عدم خبرة هؤلاء القادمين الجدد مع فقدان الكثير من قطعانهم - قد قضت على مزايا طبيعة الصحراء .

وكان هذا النفى قد فرض حياة جديدة عليهم ، وبالتدريج تغير كل الجنس والمكان وكل شىء وجدوه هناك وأجبرهم على حياة خاصة وعادات وتقاليد جديدة ، ولقد أطلقنا على هذا الجزء من شعب البربر لفظ (الطوارق) وهو لفظ من أصل عربى وهو اسم يتجاهلونه تمامًا ، بل يعترفون فقط بألقاب العولمنيز والنجروف والتادمكا والهجر والأزير والأير وهى أسماء قبائلهم الأصلية .

وكانت حرفتهم الأولى هى رعى الماشية والماعز ، وكان غذاؤهم اللبن واللحم ، فضلاً عن التمور التى صارت الغذاء الرئيسى .

وكانت الزراعة نادرة تحت سماء لا تسقط أمطارًا إلا شتاء أو ثمانى مرات فى السنة .

ونظرًا لأن عيونهم لم تتعود على وهج الصحراء القوى ، كما أن رؤيتهم لم تتعود على عواصف الصحراء ، فإنهم اتخذوا لباسًا للرأس من قناعين ، أحدهما هو النقاب الذى يلف حول الرأس ويتدلى إلى الأمام ليحمى العيون ، والآخر اللثام الذى يصل من الأنف إلى حافة الملابس ويغطى الجزء الأسفل من الوجه .

ولا يكشفون هذا النقاب حتى فى فترة تناول الوجبات ، وكل من لم يرتد النقاب لا يعترف به أصدقاؤه أو أقاربه . وإذا قتل أحدهم

فى معركة وانكشف قناعه فإن أحداً لا يعرفه حتى ينقل من مكانه ، رغم أن الحقيقة أن الجزء الأكبر من الأنف والعيون تكون مكشوفة .

إن ندرة المياه وسرعة استغلال المراعى الخضراء واستهلاكها يجعلهم فى حركة دائمة .

ومع هذه الحركة المستمرة كان من المستحيل الاعتداء عليهم ، كما اختفت كل التنظيمات السياسية والاجتماعية ، كما أنهم فقدوا أى سلطة أو قانون ، ومثلهم كاليهود وكل الشعوب التى طُردت من أراضيها الطبيعية وتحولت طبيعتها وعقولها إلى الرذيلة ، وظلوا فترة طويلة ضحية غرائزهم الأصلية ، وحولتهم حياتهم البدوية إلى لصوص ومتشردين .

وكان القانون السائد الذى يعرفونه هو قانون الحق مع الأقوى . وكانت السرقة هى حرفتهم الأساسية وهى فرع التعليم لديهم ، وحقًا إنهم كانوا يضاعفون ثرواتهم وقطعانهم من تعويضات جيرانهم ، وسلب الآخرين . وكان الرحالة والمستكشفون ضحيتهم الطبيعية والأساسية ، وعندما يفشلون فى ذلك فإنهم ينهبون ويسرقون بعضهم بعضًا كما يقومون بقتل البعض الآخر ، ولذا فإنهم يتحدون فى قبائل يسودها الحقد والكراهية . لقد اعتنقوا شكلاً غامضًا من الإسلام الذى وصل إلى درجة الاعتقاد فى التعاويذ ، ونظراً لعدم وجود أخلاقيات فإن أى مسلم يحل عندهم سرعان ما يتأثر بأسوإ الخطايا ولا تبقى سوى صفة

التحمل الجسماني ، وعند تزايد عدد اللصوص والقتلة يتحولون إلى متسولين ويصلون إلى مرحلة من الضعف فإنهم يصبحون بلا عقيدة تمامًا . ويقول مثل سوداني : (إن كلمة طوارق مثل الماء الذى يسقط على الرمل لا يمكن الحصول عليه ثانيةً) ، وعندهم 'النبلاء والخدم والعبيد لكن لا توجد نبالة بينهم ، وإذا أردت أن تجد أية صفات عدا الكبرياء والفخر فإنها تتواجد بين العبيد والزنوج ، ولاتوجد لديهم شفقة أو عطف أو احترام بسبب السن أو الأنوثة ، وتظهر شجاعتهم بالليل أثناء نوم ضحاياهم أو أعدائهم ، والخدع هى سلاحهم المفضل رغم أنهم لا يظهرون أنفسهم بدون حربة فى أيديهم وسيف على جانب أجسامهم ، كما يوجد الرمح على الذراع اليسرى . لقد نعتهم السودانيون بثلاث صفات فهم لصوص ، وقتلة ، ومخالفون للشريعة الإسلامية . ومع ذلك فإن تمبكت تدين بأصولها لهؤلاء الناس الذين صاروا أكثرهم سوءًا على وجه الأرض . وفى أواخر القرن الخامس الهجرى (١١٠٠ ميلادى) ظهرت قبيلة من الطوارق تدعى ماكسار Maksara ترعى قطعانها ما بين مدينة أروان Arwan فى الصحراء وقرية (أمتاه) التى تقع على شواطئ النيجر . وفى فترة الصيف فى موسم الجفاف يقومون برعى قطعان الماشية على شواطئ النهر ويعودون إلى الصحراء عند فيضانات الشتاء ، وفى إحدى رحلاتهم وجولاتهم اكتشفوا واحة وسط الرمال كونتها زيادة فيضان النيجر ، وكانت منطقة ضيقة منخفضة تشبه نهراً عميقًا وجد فرس النهر طريقه إليها ، وصارت مكانًا يجد الطوارق فيه بعض الزرع فضلاً عن وفرة من المياه النقية .

لقد صار هذا المكان مناسبًا لكل من الإنسان والحيوان ، فضلاً عن أشجار النخيل التى ازدهرت هناك والتى أضافت للمكان رونقًا وجمالاً . وشيدوا معسكرًا فى هذه البقعة لمنع أى جماعات أخرى من احتلالها أثناء غيابهم . وقاموا بقطع الأشجار الشوكية من المناطق المجاورة وأقاموا منطقة معزولة لمنع الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور ، كما قاموا ببناء أكواخ من القش خلف هذه المناطق ، وتركوا بعض العبيد هناك لحراستها تحت إشراف امرأة عجوز تدعى (تمبكور) الأم ذات النفوذ ، ولقد أصبح المكان مألوفًا ومعروفًا فى المنطقة ، وساهم فى شهرة ومزايا هذا المعسكر ، وتوقف الرحالة هناك ، كما يقول تاريخ السودان - لقد ازداد السكان بقوة وإرادة الله وبدأ الناس بناء مساكن ثابتة ، وجاءت القوافل من الشمال والشرق (الجزائر وطرابلس) فى طريقها إلى مملكة مالى ، وكانوا يتوقفون فى المعسكر لتجديد نشاطهم ومؤنهم ، وبسرعة تم بناء سوق كبيرة ، وصار المكان ملتقى الناس المسافرين بالقوارب أو الإبل ، ومع ذلك فإن هذا المكان لايستحق أن يطلق عليه اسم مدينة ، حتى استقر تجار جنى وهى مدينة زاهرة منذ أكثر من ثلاثة قرون هناك . ولقد تأكد أصل مدينة تمبكت من سكانها أنفسهم عندما أخبرنى صديقى ، أن الطوارق هم آباء المدينة ، وعندما تكون صغيرًا ماذا تسمى الشخص الذى يرضعك من صدره ؟ أنت تطلق عليه أمك أليس كذلك ؟ حسنًا إن جنى والدة تمبكت لأنها هى التى عاشت ونمت وترعرعت هناك ، وهى التى احتضنت تجارتها وجعلت

منها سوقًا عظيمة للتجارة . لقد علم تجار جنى تمبكت كيفية بناء المنازل من الطوب المحروق ، واستبدال الحصر بالحوائط الطينية . Ghingarber ، كما قامت سيدة قرية من أهالى سوكوتو ببناء مسجد آخر صار فيما بعد جامعة أو مسجد سانكورى Sankore ، وهكذا اتسعت تمبكت ودخلت فى منافسة مع والاتا .(١٦)

وكانت المدينة الأخيرة أكبر وأوسع أسواق غرب أفريقيا فى القرن الثانى عشر ، وكانت القوافل تتاجر مع والاتا ، وهناك عاش أكبر الرجال العلماء والأثرياء ورجال الدين وكانوا يفدون إليها من كل الأقطار من كل القبائل من مصر ، وفزان ، وسوسة ، وتوات ، وتافيليت ، وفاس، وقد عاش هناك هؤلاء السكان الأذكياء الذين اقتبسوا الحضارة العربية واستفادوا من مزايا تمبكت العديدة ، ومع هذا فإن الغزوات العديدة لملوك مالى هى التى أثارت القلق فى أفريقيا الغربية فى القرن الثالث عشر – كل هذا حول طرق تجارة القوافل تدريجيًا بعيداً عن والاتا وهاجر تجارها وعلماؤها إلى المدينة الجديدة ، وأيدهم هناك عدد كبير من قبيلة صنهاجة . ومع حلول القرن الرابع عشر أفل نجم والاتا تماماً ، وعلى أنقاضها قامت عظمة تمبكت . أما الطوارق الذين واصلوا حياة الترحال والتنقل فى الصحراء، فقد قنعوا بتعيين حاكم للمدينة لكى يجمع الضرائب باسمهم . وزادوا من مطالبهم حسب الرخاء وثروة المدينة حتى أجبر السكان وطرق القوافل على دفع ضرائب غير عادية ، وصار

السكان قلقين من هذا ، فطلبوا من كونكور موسى الذى كانت دولته فى مالى قد وصلت إلى أقصى اتساعها وازدهارها لكى يستولى على المدينة، وكان قد عاد لتوه من حملة ضد سنغى ورحلة الحج إلى مكة فدخل تمبكت فى عام ١٣٣٠ ، وشيد مأذنة للجامع الكبير على شكل هرم، وبنى لنفسه قصراً ، وعين حاكماً على المدينة قبل رحيله . ومع ذلك فإن ممتلكات المالنكى لم يتم فتحها بسهولة فلقد انزعج السكان فى موسى من عظمة تمبكت ، وظهر سلطانها أمام أبواب المدينة على رأس جيش كبير ، وهرب أسياد المدينة الجدد بينما قام العدو بنهبها وإحراقها . وعندما انسحب سلطان الموسى محملاً بالأسلاب والغنائم سيطر شعب مالى من جديد على تمبكت ، وظلوا يسيطرون عليها لمدة قرن من الزمان (١٣٣٧- ١٤٣٤) ونمت المدينة الشابة من جديد من بين الأطلال وتوسعت تمبكت فى الفترة التى انهارت فيها مملكة مالى ولم يفشل أسيادها الأصليون من الاستفادة من تدمير وانهيار أعدائهم ومنافسيهم ، فلقد نهب الطوارق ضواحى المدينة ، وخشى المالنكى من إظهار أية مقاومة وأرسل عقيل زعيم الطوراق رسالة إليهم فى النهاية يقول فيها : "إذا فشلتم فى الدفاع عن تمبكت توقفوا عن احتلالها" وبناءً عليه انسحب شعب مالى .

لقد حكم البدو لمدة أربعين عاماً وارتكبوا أفظع الجرائم وأثبتوا أنهم طغاة ، يحصلون على ضرائب باهظة ، ويصطادون الناس من مساكنهم، وسلبوا النساء ، وللمرة الثانية اضطرت المدينة إلى البحث عن سيد

جديد . وبعد أن اعترض سكانها من الطوارق على حاكمها عمر ، قرر سراً الانتقام ، ولتحقيق هذا الغرض أرسل رسولاً إلى سنى علىّ يعطيه معلومات عن عقيل والطوارق ، ويكشف ضعفهم ، ويعد بتسليم المدينة ، أخذ الرسول حذاء معه كضمان لحسن النية ، وقبل سنى علىّ – الذى كان فى ذلك الوقت يضع أسس إمبراطورية سنغى فى منتصف القرن الخامس عشر – هذه الدعوة ، وعندما ظهرت قواته من الفرسان على جانب النهر المواجه لتلال آمتاج Amtagh قرر عقيل الهرب ، ورحل ومعه شعبه وعدد كبير من رجال الفكر والعلم فى جامع سنكرى بحثًا عن ملاذ فى والاتا . وقد تضايق سنى علىّ من خروج رجال الدين والمرابطين ، وتشكك فى البقية باعتبارهم أصدقاء لهم ، فأوقع عليهم أشد ألوان العذاب ، ولكن هل ظهرت قسوته على بقية السكان بالطريقة نفسها ؟

رغم الروايات القديمة أعتقد أنه لم يفعل ذلك ، وقد ذكرت الأسباب عند الحديث عن تاريخ سنغى . ويعتبر عام ١٤٩٦ – وهو عام استيلاء سنى علىّ على تمبكت – تاريخًا مهمًا فى حياة المدينة ؛ لأن مستقبلها صار جزءًا من إمبراطورية سنغى ، وظل تاريخها يتطور تدريجيًا وبشكل منتظم حتى صارت تمبكت العظيمة ، مدينة الشهرة العالمية ، مملكة السودان الأسطورية .

لقد عاشت المدينة قرنًا من الزمان يسودها الأمان والهدوء وهو قرن الأسكيا الكبير ، ونظرًا لأنه كان حكيمًا عند إنشاء جيش قوى دائم فترة حكمه العظيمة لم يترك آثارًا مدمرة فى السودان . وكانت التنظيمات

العظيمة فى المناطق التابعة للسلطات التى منحها للمناطق الخاضعة له، وكل هذا جعل السيطرة أمرًا سهلاً .

وامتدت مملكة سنغى الواسعة على الصحراء من تكدا إلى تعزا وأغاديس ، وصار الطوارق عناصر مسالمة ومساعدة فى أيدى الأسكيا ، وصارت طرق التجارة فى الصحراء آمنة تمامًا وتحركت طرق القوافل ذهابًا وإيابًا فى أمان كامل . وبنشاط وهمة غير معروفة من قبل ولم يكن هذا الأمان الذى انتشر شمالاً وجنوبًا هو العنصر الوحيد لرخاء وازدهار المدينة - لكن دعمه وأيده تنظيم أسواقها ، والإشراف على الموازين والمكاييل ، ومعاقبة الغش بكل قسوة . واستفادت تمبكت أكثر من أى مدينة أخرى فى السودان من انتصارات أسكيا الكبير .

لقد توسعت المدينة وتضاعفت مساحتها ، وتمت إعادة بناء المنازل بشكل منتظم ، واتسعت شوارعها وصارت أكثر تنظيمًا . وكانت هجرة أعداد ضخمة من شعب سنغى قد دعمت أهل جنى ، وهذا ما أعاد التوازن بين العناصر العربية والبربرية التى سادت هناك . وصارت اللغة العربية وسيلة الاتصال والتفاهم بين الغرباء ولغة العلم والثقافة ، ووصلت جامعة سنكرى إلى أوج عظمتها وازدهارها وصارت شهرة علمائها معروفة ، ليس فقط بين الشعوب السوداء بل فى كل أنحاء أفريقيا الغربية نفسها ، وتوافد عليها العلماء والطلاب من مراكش وتونس ومصر ، وتعانقت الحضارة العربية مع الحضارة المصرية ، واتحدت الحضارتان، ومن اتحادهما برزت عظمة تمبكت (١٤٩٤ - ١٥٩١) .

وهكذا كانت عظمتها التى ألهبت خيالنا لمدة ثلاثة قرون ، وكانت أمجادها كبيرة لدرجة أن الدمار - الذى حل بالمناطق التابعة لها - لم يؤثر على حيويتها ولم يطفئ جذوتها . لقد بدأ انهيار تمبكت مع الغزو المراكشى فى عام ١٥٩١ حيث انهارت الصلات القوية التى أقامها الأساكى العظام ، واهتزت كل أفريقيا ، وبينما كان آخر الأساكى يحارب من أجل الاستقلال الوطنى على الشواطئ الشرقية لنهر النيجر - ثارت مدينة جنى فى الغرب وسارت على مخطط كل من الطوارق والفولبى والمالنكا ، كما حلت الفوضى فى كل من الشمال والجنوب ووجدت تمبكت أن تجارتها قد انهارت فقامت بالثورة هى الأخرى - لكن الغزاة قمعوا ثورتها بعنف ، وتم نفى علمائها إلى مراكش فى عام ١٥٩٤ وحدثت مجاعة كبرى بسبب نقص الأمطار واضطر سكانها إلى أكل لحوم الحيوانات وجثث القتلى .

وعندما استعاد السودان هدوءه أصبحت تمبكت بسبب قربها من حدود المغرب عاصمة للغزاة . وحكم المتنافسون من الرماة Roumas داخل أسوارها ، وتنافس الباشاوات على السلطة العليا ، وحلت قواتهم هذه المشكلات فى الشوارع وصارت المدينة مسرحًا مستمرًا لهذا الدمار . ومنذ لحظة عدم تنظيم هذه المستعمرة المغربية أصبح الانهيار سريعًا . وثار الطوارق وغيرهم من القبائل البدوية مرة ثانية ، وكان رد فعل الرماة عنيفًا . ويستطيع المرء أن يتخيل الأثر المدمر الذى أحدثه هذا التمرد على التجارة فى المدينة . وصار الصراع مريرًا

بين الرماة المتنافسين والمغاربة . وكان التنافس على منصب الباشا قد أحدث دمارًا وسوء معاملة للسكان فى المدينة ، وانقسم السكان وتواصل القتال فى الشوارع ، ونهب الفقراء ثروات المدينة ، وفى عام ١٧١٦ استمر أحد هذه التمردات أربعة أشهر ، وأقيمت المتاريس والحواجز، واستمر الصراع طول الوقت وتوقفت حركة الأسواق ، وفى إحدى المرات (فى عام ١٧٣٥) استولى المتنافسون على (كابارا) ومنعوا القوارب من إنزال حمولتها وتجارتها وحولوها إلى تمبكت . وعلى هذا لم يكن مدهشًا أن تخلو المدينة من سكانها وقلت القوافل التجارية ، وتباعدت فترات قدومها . وزادت جماعات الطوارق والبربر والفولبى من حدة هذه الفوضى العامة ، ومنعوا التجار من الوصول إلى تمبكت . وأخذت مقاومة الرماة طريقها للضعف والبطء ، وفى عام ١٧٧٠ أصبح الرجال الملثمون أقوياء بدرجة جعلتهم يسيطرون على المدينة لمدة ثلاثة أشهر ، ولما فشل الرماة فى إعادة السلام إليها اضطروا إلى بيعها ودفعوا إلى الطوارق جزية قدرها ثمانية عشر من أفضل خيلهم فى المدينة ، وألف ومائتان من الجلباب وسبعة آلاف من الذهب ، وانتشر البدو بحرية على شواطئ النيجر ، حيث نهبوا القوارب المتجهة إلى كابارا وبالتالى أثروا بشكل كبير على تجارة تمبكت .

وفى بداية القرن التاسع عشر مرت المدينة بالحالة نفسها التى كانت عليها قبل غزو سنى علىّ ، وصار الرماة مجرد ممثلين للطوارق وفرضوا حكومات وضرائب باسمهم ، وزادت أعداد الأكواخ من القش ،

وهجر الناس الأحياء الجديدة التى تأسست فى شمال مدينة الأساكى، وحل الدمار والخراب بالمنازل ، وحيث إن الدمار كان شاملاً ، فإن امتدادات وتوسعات المدينة قد انكمشت إلى حدودها فى القرن السادس عشر ، وفى عام ١٨٢٧ أمكن تخليص تمبكت من أيدى الطوارق حيث شن الشيخ أحمدو الزعيم الفولبى حربًا ناجحة ضد البدو واستولى على المدينة – لكن الطوارق صاروا أشد شراسة فأثاروا القلاقل لخليفته الذى وافق على دفع ثلث الضرائب التى يحصل عليها من المدينة مقابل فرض شروط السلام ، واستمر هذا الأمر حتى دخل الحاج عمر المدينة وقضى على الفولبى .

وهكذا بدأت الفترة الحاسمة والحرجة فى تاريخ تمبكت ولم تعد طرق مواصلات السودان والصحراء – على حد سواء – آمنة ، وكما أن تجارتها واجهت مصاعب جمة ، واختفى الأمان فى المدينة ذاتها ، وإذا كانت تمبكت بدون سيد فإنها أصبحت فى أيدى ألف طاغية حيث قسم الطوارق والتنجور المدينة بين أنفسهم وزينوها بالمآسى والحياة القاسية التى أحاطت بمملكة السودان ، لقد وصف الناس لى هذه الفترة فى الكلمات التالية :

إنك تشهد هؤلاء الرجال الملثمين الذين يرتدون ملابس سوداء وقد غطوا صدورهم وظهورهم بأغطية حمراء وصفراء ، وعندما يأتون إلينا الآن فإنهم متواضعون ، ولكن قبل وصول الفرنسيين كانوا يسيرون فى الشوارع حاملين حرابًا حديدية ، وفى كل عام ندفع الجزية

لهم ذهبًا أو عينًا من القمح والملابس والعمائم وغيرها . وكان رؤساؤهم مع حاشيتهم مسلحين تمامًا ، وكانت قوافل التجارة المتجهة إلى المدينة تدفع ضرائب ومكوس فى الصحراء ، كما كانوا يجبون ضرائب على النهر أيضًا ، ومن الأساطيل المتجهة إلى كابارا ، ولم يكن هذا كافيًا لهم بل كانوا يعاملوننا كأسرى حرب وكعبيد ، وكانوا يصلون فى مجموعات ويتجولون فى المدينة ، وكانت الأبواب تغلق بمجرد ظهورهم وكانوا يطرقون الأبواب ونستطيع أن نرى آثار ضربات رماحهم فى كل مكان . وكنا مضطرين إلى فتح الأبواب ودون أدنى اعتبار لسيد المنزل أو عائلته وكانوا يجلسون فى أفخم الحجرات ، ويسلبون كل الوسائد والملاءات ، ويطلبون الطعام والشراب ، بل يصرون على طلب السكر والعسل واللحوم .

وعندما يرحلون إلى معسكراتهم كان التصرف الوحيد منهم هو سرقة شيء ما من المنزل ثم يبصقون على صاحبه . وإذا تصادف وجود رجل فقير لايستطيع إشباع رغباتهم فإنهم ينفسون عن أخلاقهم السيئة بتحطيم كل ممتلكاته ، وإذا حاول المقاومة فإنه يواجه بالرماح الموجهة إليه وإذا وصلوا فى منتصف الليل فيجب تقديم كل واجبات الضيافة لراحتهم ويستولون على كل شيء يجدونه فى الأسواق ، وكان أصحاب المتاجر بائعو الملابس يضعون رجالاً فى أنحاء المدينة ليبلغوا عن قدومهم حتى يغلق كل إنسان بابه ، وكانوا يسلبون الرحالة فى الشوارع ، وإذا تصادفوا مع رجل يرتدى روبًا مطرزًا أو جلبابًا جديدًا أو حتى نظيفًا

فإنهم يسلبونه منه . ويسرقون الزينات الذهبية والعقود من الكهرمان والودع وكل زينات النساء ، كما يسلبون الأطفال والعبيد بالطريقة نفسها. وفى الفترة السابقة كانت المدارس تقام أمام منازل الأسياد وكان أطفالنا يلعبون فى الشوارع مثل أى جزء آخر من السودان ، ولكن اعتاد الطوارق القبض عليهم وحملهم بعيداً ثم يعيدونهم بعد الحصول على فدية كبيرة ، وإذا شكوا فى أن أحد الرجال الأغنياء قد أخفى كل أمتعته القيمة فإنهم يأخذون كل شىء تاركين فقط بعض الأشياء التافهة وبعد أخذ كل شىء يضطر الرجل إلى دفع غرامة كبيرة لاسترداده . لقد كانوا يقصون علينا هذه الحكايات ويقولون هذه مشيئة الله . وعندما سألتهم : لماذا لا تتوحدون ضد أعدائكم ؟ يقولون : إذا قاومناهم ستحل بنا الكارثة والدمار. ففى أحد الأيام التقى أحد الطوارق بشاب صغير كان عائداً من السوق ومعه بعض اللحوم التى اشتراها لأسرته فأخذوها منه ، وعندما عارض ذلك السلب قتله هؤلاء المشركون بالحراب ، كل هذا من أجل قطعة من اللحم .

وفى مرة أخرى كانت سيدة تجلس بمفردها فى المنزل فعاملوها أسوأ معاملة ، وقد استجاب أخوها لصراخها والذى استطاع إصابة أحد الطوارق بجرح مميت وهو فى ثورة غضبه ، وهرب حالاً وطلب اللجوء إلى مدينة سارافارا – لكنه اضطر إلى العودة ، وقام الملثمون بذبحه كما تذبح الشاة .

ولم نستطع مجاراتهم لأننا تجار ولسنا محاربين ، وحتى لو أخضعناهم لسيادتنا فى المدينة ؛ فإنهم يظلون أسيادنا لأنهم

يتحكمون فى طرق القوافل والطريق إلى كابارا ، كما أنهم يستطيعون تدميرنا وتركنا نموت جوعًا عندما يرغبون فى ذلك .

وأحيانًا يقوم الغرباء بتلقين هؤلاء درسًا ، ومنذ أربع أوخمس سنوات استقرت قافلة قادمة من الجنوب وتتكون من ثلاثمائة رجل من جماعات الموسى فى المدينة ، وكان أحدهم يرتدى عمامة جديدة فالتقى بأحد الطوراق الذى قام بخطفها من فوق رأسه وهرب بها بعيداً ، لكن شعب الموسى نشيط وشجاع ، وقام الرجل بمطاردة اللص وتغلب عليه، ورغم ذلك فقد حضر رجال آخرون من الطوارق الذين أنقذوا زميلهم وأسرع الرجل من الموسى إلى رئيس القافلة الذى قال: اقرعوا الطبول وأخبروا أهل موسى بالاستعداد . وعندئذ أسرع رجال الموسى حاملين الدروع والرماح والسهام لتلبية النداء ، وفى الحال قام الرئيس بتوزيعهم لتعقب الطوارق ، وحاول الرجال البارزون فى تمبكت منع هذا التصادم - لكن الرئيس أجاب بالنفى ، وقال نحن غرباء هنا وكذا ضيوفكم الأعزاء ، لقد تعرضنا للإيذاء وسوف ننتقم لأنفسنا أو نموت . وعرض قاضى المدينة إعطاءهم عمامة مشابهة ورفض رئيسهم العرض ، وقالوا : إنهم الطوارق هم الذين سرقوا العمامة ، وإنهم هم الذين يدفعون التعويض ، ولم يهدأ بالهم إلا بعد أن ترك الطوارق المدينة .

وهكذا كانت الحياة فى تمبكت خلال الثلاثين عامًا الماضية . وعلى المرء أن يتخيل النتائج المدمرة التى وصلت إليها الحالة فى المدينة ، وعندما وجد الأجانب سوء المعاملة فى المدينة انسحبوا منها وتناقصت

أعدادهم ، وخوفًا من حالة الذعر المستمر فى المدينة وخوفًا من الخضوع لهذه الجزاءات التى لا نهاية لها - بدأ الناس عمليات الهجرة . وعاد الأجانب الذين استقروا فى المدينة إلى أوطانهم الأصلية ، كما انضم الأهالى الذين لهم أقارب فى المناطق المجاورة إلى ذويهم هناك وتدمرت المنازل المهجورة وسقطت الحوائط وتكسرت إلى قطع كثيرة مكونة هذه الأكوام من الدمار الذى يستقبل أى واحد منا عند وصوله .

لقد ظل الفقراء والأغنياء وحدهم هم المخلصين للمدينة ، فالجماعة الأولى من الفقراء عاشوا فى أكواخ من القش لا يمتلكون شيئًا ، وبالتالى ليس لديهم ما يفقدونه . أما الفئة الثانية من الأغنياء وتضم التجار الأثرياء الذين تحملوا هذه المضايقات ، وكانت هجرة التجار الصغار قد زادت من أعمالهم وبالتالى زادت أرباحهم .

ومع ذلك لم يتعود أى واحد على السلب والنهب وسوء المعاملة مهما تكن التعويضات ، ولكى يتجنب الإنسان عمليات السرقة فى الشوارع العامة . فضلاً عن نهب منازلهم فقد قام السكان بانتهاج وسيلة جديدة للمعيشة حيث بدلوا ملابسهم ومساكنهم ، وتوقفوا عن أن يكونوا سكان تمبكت العظيمة وصاروا سكان تمبكت العجيبة .

وبدلاً من أن يلبس الأهالى العمامة البيضاء والشال الأسود الجميل من حرير المغرب - غطى الرجال رءوسهم بقطع بالية وقبعات رخيصة جدًا وتركوا الأحذية واستبدلوها بالشباشب التركية الرخيصة الثمن

واختفت كل الملابس والجلاليب المطرزة البيضاء ، ولبس الناس بدل ذلك ملابس قديمة وقذرة حتى لا يقدموا للطوارق أى ألوان من الإغراءات ، وبدلاً من العصا الطويلة المطرزة بالجلد التى يعتمد عليها السودانى فى السير – فإنهم استخدموا عصا بسيطة من الخشب الأبيض ، وكانت فكرتهم الأساسية هى تجنب أى تدفق لهؤلاء الغزاة ، و فى المرات القليلة التى تخرج فيها النساء – كن يخلعن كل وسائل الزينة من الذهب ، كما أن العبيد الذين يذهبون لإحضار الماء من بوابات المدينة ، يخفون أيضًا كل مجوهراتهم المتواضعة ، وكان الأطفال يمنعون من الخروج ويحجزون داخل الأحواش ، فضلاً عن أن ناظر المدرسة يدرس للطلاب داخل منزله .

لقد اختفت المنازل مثل أصحابها ، ولكى يتجنبوا زيارات الرجال الملثمين – أخفوا كل الممتلكات والثروات ، وكانت أعاصير الشتاء قد أزالت الطوب الأحمر من الواجهات وتحطمت أسوار الشرفات ، كما تساقطت المنازل المغربية ، واختفت أيضًا من أمام المنازل المصاطب التى كان الناس يجلسون عليها لقضاء أوقات الفراغ .

وبهذه الطريقة ظهرت المدينة بهذا الشكل من الخراب والدمار والسقوط ، ولقد سقط كل شىء فى الشوارع عدا الأبواب التى وقفت صامدة ومغلقة وأثارت دهشتى عند وصولى ، وكانت هدف دراسات مكثفة مهما تكن التكلفة . لقد تم إحضار كتل ضخمة من الخشب الصلد لهذا الغرض وكانت مزينة بالمسامير القوية ، وهكذا عاش الناس

فى حالة من البؤس حياة العزلة الصامتة وتخلوا عن أكل وجبة الكسكس الشائعة فى السودان .

وكانوا يطحنون الحبوب بين حجرين ويحركونهما دون إحداث صوت لأن أى صوت ثقيل سوف يغرى أحد الطوارق للبحث عن وجبة ، وإذا سمع الأهالى أى طرق على الباب فإن السكان يخفون كل ممتلكاتهم ، ويواصلون حياة الصمت المميت . وكان على الزائر غير المألوف أن يُعلن اسمه بصوت مرتفع وسبب زيارته ، فإذا اتضح من حديثه أنه مقبول فإن مزيداً من الأسئلة توجه إليه قبل أن يتم فتح الباب فى النهاية .

إن هذا السر نفسه قد ساد كل الصفقات التجارية ، وعندما يعرف السكان أحد الطوارق على بعد مسافة ، فإنهم يختفون بسرعة وإلا كان عليهم الانتظار حتى قدوم الليل . لقد عرفت تمبكت ومظهرها المؤلم ، ومع الذين يحكون هذه القصص من المرشدين تجولت فى الشوارع وشاهدت المنازل التى صادفتنى عند قدومى ، وفتحوا لى الأبواب القوية المدرعة حيث ظهرت كل الأشياء المدمرة . لقد ازدادت دهشتى لعظمة هذه المدينة وماضيها وتماسكها وصمودها وعبقريتها حتى اليوم .

الفصل الثانى عشر

التجارة والحياة فى تمبكت

تعد تمبكت مكان التقاء لكل الذين يسافرون بالقوافل أو بالقوارب .

إن هذا القول البسيط لأحد الرواة القدامى السودانيين يعبر بكل وضوح عن العظمة التجارية للمدينة ، حيث إن القوارب تؤدى إلى جنوب تمبكت أيضًا (السودان) وتمثل الإبل اتجاه الصحراء وكل شمال أفريقيا ومراكش والجزائر وتوات وتونس وطرابلس وأخيرًا أوروبا .

وصار التبادل بين الشمال والجنوب أساسيا ، وتقوم تمبكت بدور كبير فى تقديم الخدمات لتوحيد البربر والعرب مع عالم الزنوج ، ولقد صار هذا الدور سهلاً بفضل موقعها الفريد ، حيث إنها تقع عند مخارج فروع الروافد فى نقطة ينثنى فيها النيجر بشدة من المجرى الغربى إلى الشرقى ، وهذا يسهل نقطة الالتقاء بين الشمال والجنوب ، وهنا يستطيع السودانى أن يجمع الكثير من المنتجات ، ويرضى كل زبائنه من الشمال فى الوقت نفسه . وتعتبر تمبكت مثل الميناء الذى يضم

أحواضًا للسفن على ساحل القارة مع بحر من الرمال يمتد أمامها حيث تصل أساطيل الصحراء ذهابًا وإيابًا . لقد قامت القبائل العربية والمراكشية القاطنة أطراف الصحراء بتنظيم طرق القوافل ، والمناطق التى يشيدون فيها الخيام لاتسمح بأى نوع من الزراعة ولكنها تسمح برعى أعداد كبيرة من الإبل . ويقوم التجار الوطنيون البدو بتأجير هذه الحيوانات المفيدة مقابل الحصول على الحبوب والملابس ويتكلف إيجار البعير الذى يعمل بين مراكش وتمبكت مابين أربعين إلى خمسين فرنكًا . ويستخدم التجار عادةً مابين ثلاثين إلى أربعين بعيرًا ونتيجة إلى قربها وقرب مراكش لها – فقد أصبحت المغرب الزبون الرئيسى لتمبكت وتندوف والصويرا ومراكش وفاس وتافيليت التى صارت نقطة رحيل القوافل ، وبالطريقة نفسها تنقل تجارة تونس وطرابلس عبر غدامس .

وكانت القوافل القادمة من الساحل محملة أساسًا بالسلع الأوروبية، وأهم مصنوعاتها النيلة والقطن الأزرق المسمى (غين) والذى يستخدم فى كل أنحاء أفريقيا ويتكلف نحو أربعة وعشرين فرنكا فى تمبكت ، وفقط سبعة فرانكات فى السنغال ، وهناك طلب مستمر على القماش الأبيض ، كما أن الحرير مطلوب ولكن بكميات قليلة بين المنسوجات المختلفة ، وعمومًا فإن الأنماط والأشكال والألوان المطلوبة على الساحل لا تجد من يحبذها فى أفريقيا الزنجية حيث حلت محلها أنماط وأشكال من أصل عربى ، وتوجد أنواع أخرى من السلع مثل البارود والأسلحة النارية والأوراق والمقصات والإبر والمرايا واللؤلؤ والعقود والبخور والسكر والقهوة والعطور والتبغ ، وتأتى جميعها

من توات ، فضلاً عن أوانى الشاى والفناجين وعلب النشوق والبلح والسجاد والطرابيش والبرانس والقفاطين ... إلخ .

وكانت القوافل تحمل نصف حمولتها عند بداية الرحلة ، وبعد منتصف الرحلة تكمل حمولتها بتلك السلعة الفريدة وأعنى الملح ، وقد ركزت أساسًا على هذه السلعة المهمة فى الفصول السابقة ، ويبقى أن أوضح كيف يتم استخراجه من منخفض كبير فى الصحراء الغربية اسمه الجوف **Eldjouf** وهو منجم واسع من صخر الملح ، ولقد رأينا كيف تأتى الإمدادات من منجم تكدا **Thegazza** ، لكن أهملت هذه المناجم فى القرن السادس عشر وحلت محلها مناجم تويدنى **Toudenni** الواقعة بالقرب من تمبكت .

وحسب آراء سكان الصحراء تعد تويدنى نقطة من أكثر النقاط جفافًا على وجه الأرض حيث لاتوجد بها أشجار ولا زرع ، بينما نجد أن المياه القليلة الموجودة عبارة عن مياه مالحة ، وأما المياه الصالحة للشرب فإنها تأتى من آبار حوض تلى **Teli** التى تبعد مسيرة يوم ، بل لا توجد كميات من الطمى الصالح لبناء المساكن ، ولذا تبنى المساجد والمنازل من الصخور ، وتغطى أسقفها بجلد الأغنام ، ويعيش السكان على التمور التى تجلبها القوافل القادمة إلى تمبكت ، فضلاً عن الحبوب وغيرها من المؤن التى تركوها عند عودتهم ، ويوجد المعدن تحت طبقة رفيعة من الرمل ، ويكون فى طبقات واضحة تمامًا .

ويقوم العبيد باستخراج كميات كبيرة ، ويتم تشكيلها فى كتل حجمها حوالى ثلاث أقدام فى سبع بوصات وقدم واحدة فى ثلاث بوصات حيث تشبه أعمدة من الرخام الأحمر أو الرمادى وبعد استخراجها من المنجم توضع عليها علامة تجارية حسب المتعاقدين عليها .

ويساوى العود مابين اثنين إلى ستة فرنكات حسب نوعيتها ، ويستطيع الجمل أن يحمل مابين أربعة أو خمسة من هذه الأعمدة فى كل مرة .

وفى تمبكت تتم عمليات تحسين منتظمة قبل أن تدخل إلى أقطار الزنوج ، حيث يتم صبغها باللون الأسود ، ويكتب عليها اسم المصدر المحلى المشهور باللغة العربية مثل سيدى يحيى تمبكت ، وعبد القادر الجزائرى المشهور وشيخو أحمد والحاج عمر الفوتى وغيرهم ، وبهذا يتم تكريم هؤلاء الزعماء ، وبعد أن تزين تربط سويًا بسيور جلدية تجمعها سويًا . وفى الحقيقة فإن صباغة هذه السيور الجلدية تشغل جزءًا مهما من الصفقة من بداية السنة حتى نهايتها ، وهذا يؤكد أهمية تجارة الملح فى تمبكت ويكثر الطلب على الكتل البيضاء والسميكة ، أما الكتل الحمراء فهى أقل جودة ، ويتراوح سعرها فى تمبكت حسب درجة الأمان عبر الطرق السودانية . وقال أحد الرجال المسنين إنه قد جاء وقت كانت هذه الكتل تكلف الواحدة فقط مابين خمسة وستة فرنكات ، لكن أثناء فترة إقامتى كان سعرها مابين ثلاثين أو أربعين فرنكًا .

وكان أحد التجار المصدرين من جنى قد اشترى خمسمائة كتلة فى وقت واحد ، وعلى سبيل المثال لو اشترى الواحدة بثلاثين فرنكًا ، فإنه يساوى خمسة وأربعين فرنكًا إذا بيع فى سارافارا Sarafa وضعف الثمن فى جنى ، وفى سان San أو ساساندبج تزيد القيمة وتصل إلى سبعين أو ثمانين فرنكًا .

وتصل إلى موسى Mossi ومناطق بحيرة تشاد ويقوم تاجر التجزئة هنا بوضعها فى أكياس صغيرة حسب الطلب ، وهى فى العادة تخدم الرحالة كوسيلة للمقايضة لأن السودانى الذى يرفض بيع مؤنة مقابل الأصداف أو الفضة أو حتى الذهب لا يرفض قبول قطع صغيرة من الملح .

وبعد أن تكمل حمولتها فى تودينى ، تباع عدة أعمدة منها للطوارق وتصل القوافل إلى تمبكت إذا لم يتم نهبها فى الطريق . ولا تدخل المدينة التى ترفض زحمة الإبل لها ، لذا توضع أمام الأسوار الشمالية فى أحياء القوافل التى تعيد للذاكرة مساكن الطوارق الأولى التى كانت بداية ميلاد مدينة تمبكت . ويسكن التجار المرافقون للقوافل فى المدينة ، أما قواد الإبل فإنهم يجدون المأوى فى حى القوافل Abaradion ، وترتوى الإبل من المستنقعات الواسعة المجاورة ، كما تقوم بالرعى فى المناطق الرطبة حيث الحشائش الخضراء وغيرها من النباتات ذات الأشواك ، ويعد هذا هو الغذاء الرئيسى لها .

ويعتقد المرء أن عدد وأهمية القوافل إنما يختلف حسب الأمان السائد فى الصحراء من جهة ، وحسب رخاء السودان من جهة أخرى ، وتشمل القوافل الكبرى مابين ستمائة إلى ألف بعير ، وما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة رجل ، وتمثل قيمة حمولتها ما بين ستمائة ألف إلى مليون فرنك من السلع . وفى العادة تصل مابين ديسمبر ويناير ، ومابين يوليو وأغسطس ، أما القوافل الصغيرة التى تضم ما بين ستين أو مائة ألف بعير فإنها تصل طوال العام حيث تستقبل المدينة سنويًا حوالى خمسين أو ستين ألف بعير . وفى العام التالى لوصولنا(وهو عام غير عادى) كانت العائدات الرسمية حوالى أربعة عشر ألف بعير .

وتتكون حمولات الأساطيل مثل حمولات الإبل من جزءين متميزين، ويتجه الجزء الأول إلى تمبكت والمدن الأخرى والقبائل البدوية فى الصحراء ، وتتكون من مواد أساسية مثل الأرز والقمح والعسل والكولا والتبغ والدقيق وخبز العسل والتمر الهندى والبصل ، والسمك المجفف ، فضلاً عن الصابون والحديد والأمونيا والقطن ، والقبعات من القش والصناعات الفخارية ، وأما الجزء الثانى فإنه يتجه إلى مراكش وتوات وغدامس ويتكون من الذهب والعاج وريش النعام ، والجلد الخام والشمع والبخور وسن الفيل والصمغ وغيرها ، فضلاً عن بعض الرقيق .

وهكذا شرحنا مختلف وسائل النقل الشمالية والجنوبية . ويظهر منها بساطة كل تجارة تمبكت ، وتقوم الإبل بنقل حمولتها إلى القوارب ، كما تنقل القوارب حمولتها إلى الإبل وتصبح تمبكت وسيلةً للنقل ،

فالمدينة مجرد محور مؤقت يقع بين حدود الصحراء والوديان النهرية فى الجنوب ولذا فإنها مدينة لأحواض السفن والمخازن ، ولا يملك أى تاجر عملاً أو قارباً، ولكن ما هو إذن الدور الذى يلعبه شعبها إذا لم يكونوا مصدرين أو مستوردين ؟ هم الوسطاء والمقاولون وأصحاب الأرض ، ويقول مثل عربى : إن الضيف هبة من الله خاصةً فى تمبكت التى لا يوجد بها رجال قوافل ، ويقوم أهل المدينة بتدبير الإقامة المجانية والسكن لأى تاجر غريب فى الأيام الثلاثة الأولى من إقامته ، ويعامله معاملة حسنة وبأسلوبٍ راقٍ ، وهناك تفاهم واضح عند رحيله فى اليوم الرابع إذا أراد أن يستأجر أحد مساكن مضيفه حيث إن بعضهم يمتلك الكثير من هذه المساكن التى استأجرت واحداً منها ، بل إنها واسعة بشكل يسمح باستخدام جزء منها كمخزن ، فضلاً عن الإقامة . وعلاوة على ذلك فإن مهمة صاحب المنزل لا تنتهى عند هذا الحد ، فمن المتوقع أن يخبر هذا الغريب بالأسعار السائدة ومدى وفرة أو ندرة السلعة التى جاء لشرائها أو بيعها الموقف المالى لأى زبون ، كما أنه يساعد ضيفه فى الحصول على مشترياته وإيجار المساكن ، فضلاً عن فوائد السمسرة .

وأنا شخصياً استفدت من صاحب البيت الذى قطنت فيه حسب العادات ، وطلبت منه أن يقدم لى النصح فى اختيار التجار ، كما كنت ألجأ إليه فى كل معاملاتى التجارية وطلبت منه أيضاً أن يصحبنى أثناء جولاتى فى المدينة وكأننى أحد تجار الموسى أو تافيلاليت ، وفعلاً

رافقنى فى السوق ودخل معى فى المنازل المدمرة التى خدعتنى أثناء وصولى إلى المدينة ، ولدهشتى الكبرى وجدت متاجر مجهزة تماماً تحت هذه الأنقاض ، وبها كل المصنوعات المختلفة من كل أنحاء أوروبا والسودان ، كما أنها تحتوى على أصناف السلع والمنتجات المحلية وتابعت السير فى ذلك الطريق الملتوى الذى أتيت منه فى اليوم الأول ، وتحت سقف أحد الأكواخ المفتوحة من كل الجهات وجدت ترزياً ومعه تسعة من الصبية يعملون بالإبرة فى الأقمشة البيضاء والزرقاء ، بينما شاهدت رجلاً مسناً يرتدى نظارة بنية اللون ويقرأ القرآن الكريم لهم ، وكان بعضهم يصنع البنطلونات والآخرون يصنعون الأثواب الواسعة المشهورة فى السودان ، بينما يقوم آخرون بوضع التطريز عليها حسب النمط المغربى ، وكانت هذه الأثواب المطرزة هى أهم صناعة فى تمبكت وشهرتها فاقت كل السلع الأخرى أيام عظمة وازدهار السودان ، وكانت مصانعها عاجزة عن سد حاجة مراكش وباماكو وجاو وكانت تكلفة القطعة مابين ثلاثة أو أربعة آلاف فرنك ، وكانت رائعة الصنع وعليها تطريز من الورد الجميل على الظهر والمقدمة وتزين بخيوط حريرية براقة. وفى السابق كان صنَّاع الأحذية يستخدمون أسلوباً مشابهاً لأفضل أنواع الجلود فى المنطقة ، وهو الجلد المغربى الأصيل ويصنعون منه أحذية ووسائد وأحزمة صفراء وملونة ، ولقد تابعنا السير إلى أحد المبانى المنهارة والتى تدمر الدور الثانى فيها وكانت سكناً لأحد التجار المشهورين ، وقبل أن نصل إلى الباب بدأ المرشد يتلو بعض

الأحاديث ووجدنا أنفسنا داخل حوش واسع تظلله شرفة واسعة تضم منحنيات من الجوانب الأربعة مثل المنازل الأسبانية ، وكانت درجة الحرارة فى الشارع رهيبة - لكن داخل هذا المبنى كانت الرطوبة مناسبة ولا توحى بوجود بؤس أو خراب ، وكل شىء كان نظيفاً حقاً ومنظماً بشكل مدهش ، وكأنه جنة .

وكانت السجاجيد والوسائد تنتشر فى كل أنحاء البهو ، لأنه مكان الاستقبال ، فيه أيضاً تتم كل الصفقات التجارية ، وقدموا لى وسادة من الجلد للجلوس عليها وقدموا لنا الشاى والقهوة والسكر والتمر اللذيذ القادم من واحة توات .

وبعد تقديم واجب الضيافة قمنا بزيارة المتجر الممتد فى أنحاء المنزل وحيث توجد أكياس من القمح والأرز وكتل من الملح تعد بالمئات فضلاً عن كميات من التمور وريش النعام وسن الفيل - لكن هذا البيت الذى يبدو من خارجه أنه مدمر ، يضم داخله ما يساوى قيمته خمسين ألف فرنك من السلع .

وإلى جانب السماسرة غير الرسميين يوجد السماسرة الرسميون الذين يتخصصون فى سلع معينة مثل الملح والذهب والماشية والمنسوجات وهم ينتقلون من منزل لآخر يقدمون خدماتهم ويعرضون عينات ويشرحون أسعار السلع . وعندما استفسرت عن عدد المتخصصين فى هذا العمل ، كانت الإجابة إنه يوجد ثلاثمائة يقومون

بهذا العمل ابتداءً من الأب إلى الابن بل حتى النساء والأطفال من سماسرة تمبكت . وعندما يحصل الشخص على رأس المال المناسب ويرى أن الوقت قد حان فإنه يقوم بالعمل لحسابه . وفى بعض فترات السنة عندما يكون من المحتمل وصول القوافل ، يشترى التجار الأغنياء كل سلع التجارة الرئيسية من الملح والحبوب والمنسوجات ، وهذا يؤدى إلى ارتفاع مفاجئ فى الأسعار ، ويظل الأمر كذلك حتى يعلن الوكلاء عن قدوم القوافل أو السفن ، كما أنهم يشترون كميات ضخمة من الكولا والبصل والسلع الأخرى التى يبيعها الأطفال والعبيد فى الأسواق والشوارع ، والتزييف والغش والمضاربات معروفة تمامًا ، ويمارسها الأسكيا الكبير ، وقد خصصت صفحات مطولة عن غش الموازين والمكاييل ومقايس وخلط النحاس بالذهب وغش اللحوم واللبن وغيرها .

ومن الواضح تمامًا أن الشركات الكبرى فى مراكش وتوات وغدامس تحاول مثل أسواق جنى وساساندنج – التخلص من تدخل السماسرة المحليين ، وفى الحقيقة إن كل هذه المدن تمتلك مساكن فى تمبكت ، ويتواجد هناك عبيد مخلصون لهم ويقوم رئيس الشركة بزيارة سنوية لكى يراجع الحسابات ويشرف على أوجه الإنفاق ، وأحيانًا يقيم التجار من الشمال والجنوب فى المدينة ويعودون إلى أوطانهم بعد أن يجمعوا الثروة المطلوبة ، ويقوم هؤلاء بالبيع والشراء من القوافل مباشرةً . وفى السابق يشكل التجار العرب الجزء الأكبر من هذه الصفقات التجارية ، وكانوا أغنى عناصر السكان فى المدينة ، حيث

أدخلوا نظامًا للبنوك . ويستطيع الرحالة أن يحصل منهم على خطاب ضمان لكل مناطق شمال أفريقيا ، كما أنهم يقدمون ضمانات للتاجر الزنجي . وبالطبع يتطلب هذا شجاعة معقولة لأنه لا يوجد بوليس فى السودان ، وأحيانًا تمر ثلاث سنوات دون أن يشاهدوا المدن مرة ثانية ، وفى بعض الأحيان لا يظهرون إطلاقًا ليس بسبب عدم الأمان ولكن بسبب الحروب العديدة وعدم الأمان فى الطرق التجارية المختلفة ، وكان يطلق على الأحياء التى يقيم فيها العرب اسم باجندو Baghindo ، وكان السكان والوطنيون من مراكش وتوات وطرابلس يبلغون حوالى ثلاثمائة نسمة ، وكانوا يكونون مستعمرة عرفت باسم "مجتمع البيضان" تشبه المستعمرات الأوروبية فى المدن الشرقية ، ويرأسهم نائب يشغل منصباً يشبه القنصل ويطلق عليه رئيس البيضان وهو دائمًا عضو فى مجلس المدينة ، وعندما دخلنا تمبكت قابل أتباعنا رئيس البيضان ووجدوه من طرابلس واسمه ميلاد Milad وكان رجلاً ذكيًا وله معاملات مع الأوروبيين فى البلدة واستطاع أن يقدم لنا خدمات جليلة ومساعدات مالية فى فترة تواجدنا .

ولكن مثل بقية السكان الوطنيين انهارت هذه المستعمرة وتدمرت بسبب عنف وقسوة الطوارق ، ولكن رغم كل هذا فإنه من الخطإ أن نقول إن تمبكت كانت مدينة مكتظة بالسكان ، وأستطيع أن أقدر عدد سكانها بحوالى أربعين ألفًا أوخمسين ألف نسمة حتى فى فترة ازدهارها وعظمتها ، إن قلة أو عجز أى صناعة يمثل رقمًا بسيطًا لا يقارن مثلاً بالتجارة فى القاهرة ودمشق ، لكن من المهم أن نقول إن السكان فى تمبكت يعملون فقط فى التجارة .

وإذا نظرنا إلى المدينة من هذا المنظور فإن هذه الأرقام تعد مثيرة وعجيبة ، ففى يناير ١٨٩٥ توضح الإحصائيات أن المبالغ المتداولة كانت ٤٦٠,٠٠٠ فرنك ، وفى وقت ذكر هذه المبالغ أشاروا إلى أنها لا تمثل ثلث المبلغ الحقيقى ، ولم يتم بذل جهود جادة للحصول على معلومات عن هذه الأمور ، ولم يكن لدى رئيس ميناء تمبكت مترجم يقوم بشرح كل خدماته ، ويكون الإنسان راضيًا فقط بما يعلنه التجار للسلطات العسكرية والمشرفين على البوليس المحلى فى كابارا وتمبكت ، ولا يحاول التاجر الأفريقى ، أن يفصح لزميله الأوروبى عن كل أسرار أعماله .

ومن الضرورى أن نذكر إنه منذ احتلال فرنسا لهذه المناطق أُقيمت الأسواق على النيجر الأسفل ، وتوجد سوقان وهما كيارجو Keirago وبمبا Bamba تضمان سكانًا يقلون على سكان تمبكت ذاتها ، ويجب أن نضع فى الحسبان كل هذه التقلبات قبل أن ندرس بالدقة إمكانيات تمبكت ، وأعتقد أنه يمر وقت طويل قبل أن تسترد المدينة تجارتها السنوية وتصل إلى عشرين مليونًا أى ما يعادل ضعف الكمية التى أمكن حصرها فى عام ١٨٩٣ من كل أنحاء المستعمرة فى الكونغو الفرنسية .

ولم تكن تمبكت مركزًا تجاريًا عظيمًا فحسب ، بل تمثل مدينة المرح والمتعة فى كل أنحاء أفريقيا خاصةً بالنسبة للعرب ، وفى السنغال تحدثت مع أحد هؤلاء التجار المغاربة الذى كون مستعمرة غنية ونشيطة فى سانت لويس ، وحيث إنها فى الطريق إلى تمبكت فقد كان من الطبيعى أن أسأله عما عرف أو سمع عن المدينة لأنه لم يزرها

من قبل ، وصاح الرجل قائلا : « ياه هل أنت ذاهب إلى تمبكت؟ ياه في تمبكت نساء كثيرات ويتمتعن بقدر كبير من الجمال » ، وحسب الصورة فإن المدينة تمثل حياة مرحة أكثر منها مدينة لرجل الأعمال . ويعد الذهب والعاج وريش النعام أهم الأشياء الجذابة في هذه المدينة ، كذلك الأخلاق الطيبة التي يتمتع بها سكان المدينة وفي كل السودان ، وقد ذكر هذا الجغرافيون القدامى .

ولقد اكتفى ليو الأفريقي[١٧] بالقول إن سكان تمبكت مرحون ويقيمون حفلات الرقص كل مساء حتى ساعات متأخرة من الليل ، وكان يكتب للفاتيكان الذي قدر جهوده . وكان ابن بطوطة[١٨] أكثر وضوحًا فلقد لاحظ عند وصوله للسودان أن السكان هناك يتمتعون بأخلاقٍ فاضلة والرجال ليس لديهم غيرة على نسائهم ، ورغم أنهن مخلصات ويؤدين الصلاة - إلا أنهن يسرن دون نقاب ، ولهن رفاق وأصدقاء من الرجال ، كما أن للرجال رفيقات من النساء ، وقد حدث أن رجلاً عندما عاد إلى منزله وجد زوجته تتسلى مع صديق .

وبعد أن حصلت على إذن من قائد والاتا لزيارته دخلت منزله يومًا ما ووجدته يجلس مع امرأة شابة وجميلة وكنت على وشك الخروج عندما شاهدتها ولكن دون أن تظهر أي نوع من الخجل ، انفجرت في نوبة من الضحك أثناء انزعاجي وضيقي ، وقال القائد لا حرج إنه صديق حميم لي .

لقد أصابتنى دهشة كبيرة عندما شاهدت رجل فقه وعالمًا حج إلى بيت الله الحرام فى مكة وهو يتصرف بهذا الشكل ، وعرفت بعد ذلك أنه تقدم للسلطات يطلب السماح له بالحج فى هذه السنة فى صحبة صديقه الحميم .

وفى مناسبة أخرى زرت رجلاً ووجدته يجلس على خرقة بالية بينما تجلس زوجته على كرسى وهى تتحدث إلى رجل يجلس بجوارها ، وعندما سألت : من يكون هذا الرجل ؟ كانت إجابته : (إنها زوجتى) ، ومن هو الرجل الذى يجلس بجوارها ؟ كان رده : إنه صديق لها ، وسألته متضايقًا : كيف تتحمل هذا الشىء إنكم يا من تسكنون فى دولنا الشمالية تعرفون قواعد القرآن الكريم ؟ فأجاب عندنا تقيم النساء صداقات شريفة مع الرجال وليست لدينا أى شكوك نحوهن ، لأن نساءنا لسن مثل النساء عندكم وقد انفعلت بهذه الحماقة وتركت المنزل فورًا ولم أعد إليه ثانيةً .

وفى أواخر عام ١٣٥٠ كان ابن بطوطة قد استاء من الأخلاقيات فى والاتا وأوضح التاريخ لنا أن تمبكت قد تطورت نتيجة هجرة سكان المدينة السابقة إليها ومن الطبيعى أن يستورد التجار والعلماء أخلاقهم مثلما يستوردون تجارتهم وثرواتهم وعلومهم .

ويستمر هذا المؤلف فى فصل بعنوان " كل ما وجدته من شرور فى مسلك السود " ، ويقول : إن العبيد من الذكور والنساء والبنات

الصغيرات يظهرن فى الشوارع وهن عراة تمامًا . ولقد وجدت عددًا كبيرا منهن فى شهر رمضان ومن العادات عند كل الشخصيات الكبرى أن يفطروا فى رمضان مع السلطان ، ولهذا الغرض يرسلون فرقًا من عشرين أو أكثر من الرفيقات اللاتى يظهرن عراة أمام السلطان ، وتفعل بناته الشيء نفسه . وقبل أول مساء فى رمضان وجدت العديد من الرقيق ومعهن الطعام ويغادرن القصر فى صحبة اثنتين من بنات السلطان كانتا عاريتين مثلهن .

وكان ابن بطوطة رجلاً مثقفًا ومتدينًا وعلى قدر كبير من العلم ومتأثرًا تمامًا بقيم وتقاليد الإسلام ، وكل هذه الأعمال أثارت غضبه – لكن كان أثرها على التجار العاديين والكتبة وقائدى الإبل مختلفًا تمامًا . وحيث إنه عاش فى عالم عربى حيث لا يجلس الرجال مع النساء ويلبسن الحجاب ، ومن ثم فإن مشاهدة هذه الأشياء مثيرة وغريبة تمامًا عليه .

وقام الأسكيا الكبير بعدة إصلاحات بعد أن شاهد المظاهر الإسلامية فى مصر حيث أجبر النساء على تغطية أجسادهن من الرأس إلى القدم ، وأنشأ جهازًا مهمته ممارسة الرقابة الكاملة والقبض على أى رجل يضبط متحدثًا لأى امرأة بعد قدوم الليل – لكن هذه الإجراءات لم تستمر مع تولى أبنائه ، وعاد الناس لهذه الحرية مرة ثانية .

لقد كان وصف ابن بطوطة لتمبكت واضحًا وكافيًا وأنا أفضل الحديث عن نساء المدينة أى نساء الطبقة الأرستقراطية وإنه نتيجة

للتزاوج المستمر بين الجنس العربى والبربر أصبحت الملامح منتظمة وإلى حد ما مهذبة ، ورغم أنهم من الزنوج السود اللون - فإنهم ينتمون إلى النمط الإريانى أكثر من الزنجى وصار الأنف مفلطحًا والفم أكثر وضوحًا . كما كان الوجه جميلاً ، بعيون جميلة ومدهشة ، ومثل هذا الشكل اللطيف يثيرك عند النظر إليه .

يضاف إلى هذه السمات الطبيعية أن النساء تقمن باستخدام كل أدوات الزينة ويصففن شعورهن ويستخدمن اللؤلؤ وكل الزينات من الذهب والحلقات التى تتدلى من الأذنين ، كما يقمن بتنظيم الأظافر وطلائها بالحناء ، ويصبغن شعورهن ، وفوق كل هذا يعرفن كيف يغطين أجسادهن حتى الأقدام بكل الملابس من الأقمشة التى يجدونها فى تمبكت والمصنوعة فى أوروبا وجزيرة العرب والمصنوعات المحلية .

وتلعب المرأة فى تمبكت دورًا كبيرًا على عكس الزنجية ، فهى تقوم بالأعمال المنزلية والاهتمام بالأطفال والعبيد وتطمئن إلى تنفيذ كل أوامرها ، كما تشغل وقتها فى القراءة واللعب على البيانو وتقوم بزيارة صديقاتها وأحيانًا تدخن الغليون ، وفوق كل هذا وذلك تمتلك تمبكت كل هذه الوسائل للتسلية ، وفى الجزء التالى شرح مفصل عن الحياة العصرية التى قدمها أحد أبنائها .

إن الأعمال التجارية فى المدينة تسمح بالمزيد من وقت الفراغ وعلينا أن ننتظر حتى وصول سلع معينة أو حتى تختفى أو ترتفع أسعار

سلع أخرى ، ويقوم التاجر الغريب بالجلوس مع أصدقائه فى منتصف النهار أو فى المساء لقضاء بعض الوقت والتسلية ، ويأكلون جوز الكولا والتمور والبسكويت والكسكس ولحوم الحمام والماعز ، ويشربون الشاى والقهوة أحيانًا ، ويقدمون الهدايا لرجال الدين الذين يدعون للحضور ، ويقصون القصص التاريخية المسلية ، ويحكى كل ضيف قصته عن بلاده وبهذه الطريقة يعرف الكثير من المعلومات عما يدور فى مراكش وتوات وطرابلس وأيضًا معرفة الكثير عما يدور فى أوروبا وفرنسا ذاتها ، ويعيش فى تمبكت الكثير من العرب وأحيانًا يبنى بعضهم بيوتًا من أقماع السكر لأن القوافل تحضر الكثير من هذه المادة ، ويفضل سكان غدامس وتونس وفاس العيش فى تمبكت ويعلمون عبيدهم إعداد وجبات مختلفة مع الحلوى ويقومون بإشعال البخور فى كل أنحاء المنزل .

وبعد أن أفردنا هذه الصفحات للحديث عن المرأة فى تمبكت نعود ونقول إن شعب جنى وساساندنج وباماكو ينافسون العرب - لكن سكان توات أكثر جشعًا ، ومن جهة أخرى فإن شعب موسى لا ينفقون أموالهم بهذه الطريقة نفسها لكن يغادرون المدينة بمجرد انتهاء أعمالهم التجارية .

إن الذين عندهم أسر كاملة يقيمون الولائم لعدة ساعات ويشربون كميات كبيرة من الخمور ، ويتحول الناس إلى مخمورين مثل شعب البمبارا . وتعزف فرق الموسيقى ويبدأ الرقص طول الليل ، وينفق الرجال ثلاثمائة قطعة من الذهب للحديث مع سيدة ، ويقال إن تاجرًا من ساساندبج قد قدم زوجته هدية للحصول على خمسمائة من ألواح

الملح ، ويسكن هذا الرجل بجوار المسجد وقضى الليلة فى هذه الاحتفالات ويقضى اليوم كله نائمًا ، وهو يسمع نداء المؤذن للصلوات الخمس يوميًا يقول : أنا متعب إن صوتكم يزعجنى ، وإذا لم أسمع صوتكم طول النهار فسوف أقدم هبة كبرى للمسجد .

إن أناسًا كثيرين يحضرون للإقامة عدة أسابيع ويواصلون التواجد لشهور أو سنوات ، والذى يمنعهم من الرحيل ، إما الحياة السعيدة التى يعيشونها فى المدينة أو لقضاء بعض الوقت فى أمور خاصة وإن كثيرًا من الذين جاءوا لجمع الثروة عادوا بعد أن خسروا كل شىء .

الفصل الثالث عشر

جامعة سنكرى

إن مملكة السودان سوف تتوج بتاجٍ ناقصٍ إذا كانت فى حاجة إلى عظمة تاج الفن ، فلقد عارضت عوامل كثيرة أن يكون فى حوزتها أية آثار حيث لا توجد أحجار ولا أخشاب فى المناطق المجاورة لها بل لا توجد تحت يديها حتى مادة البلاستر ولا حتى الطمى عظيم القيمة الموجود فى جنى عند أعتاب الصحراء .

وتعد كل هذه الحقائق عذرًا كافيًا لعدم إعطاء تقرير مفصل ومطول عن الفن المعمارى لهذا المسجد العظيم فى تمبكت . (جنجهارير وسنكرى) وضريح سيدى يحيى . إن أبعاد هذه المبانى تفوق كثيرا تلك المبانى العادية ، ولكن مجرد مجموعة من الأسوار المرتفعة والمنخفضة والطويلة أو السميكة لا يمكن أن نسميها عملاً فنيًا ولا يمكن لهذه الآثار أن تستعيد الأيام السعيدة والانسجام فى مسجد جنى ، وعلى بعد مسافة من المدينة تظهر المآذن الثلاث مثل الأهرامات المصغرة ، ويمثل هذا اهتمامنا الوحيد .

وعلى هذا فان تمبكت لم تكن قادرة على تطوير فنون معقولة - لكنها وضعت كل قوتها فى المجال الفكرى ، وهنا كان مجالها كبيراً فقد أصبحت المدينة مركزًا دينيًا وعلميًا وأدبيًا فى الأقاليم النيجيرية . ويأتى الملح من الشمال والذهب من الجنوب والفضة من بلاد البيض - لكن كلمة الله العلى القدير وكنوز الحكمة توجد فقط فى تمبكت ، كما يقول مثل سودانى .

وربما يكون من المبالغ فيه أن تضع مدرسة تمبكت على المستوى نفسه مع تلك المدارس فى سوريا وأسبانيا ومراكش وفوق كل هذه مدارس مصر ؛ لأننى يجب أن أعترف أننى لم أجد بين مكاتبها أى عمل يوازى العظمة الأدبية والأعمال البارزة فى الفكر واللغة العربية مثل مقامات الحريرى والهمذانى أو القصائد العربية - ولكل هذه الاشياء لا تعد تمبكت فقط نواة الفكر العظيمة فى السودان بل فى أرض الزنوج كلها ، إنها تعد واحدة من أعظم المراكز العلمية الإسلامية حيث تعد جامعتها الأخت الصغرى لجامعات القاهرة وقرطبة وفاس ودمشق ، والمجموعة والمخطوطات القديمة تؤكد ذلك ، ولا تدع مجالاً للشك عند دراسة هذا الجزء البسيط بالتفصيل .

ففى أفريقيا الشرقية نبحث عن المجد الفكرى لتمبكت ، ويرجع الفضل فى هذا إلى المغاربة ، ونحن نعرف أن هذه الفئة من شعوب البربر قد اعتنقت دين الغزاة من العرب ،[١٩] ومن خلال هذه القبائل القاطنة على حواف الأطلسى - شق الإسلام طريقه إلى أرض السود

فى القـرن التـاسع ، وفـى كل مكان انتـشـر الدين الإسـلامـى كـان من الطبيعى أن تنتشر اللغة العربية (لغة القرآن) والعلوم العربية ، ويضم القـرآن الكريم كل شىء مـفـيـد لأبناء الملة المحـمدية ، حـيث يضم تعـاليم للإنسـان وينظم العقيدة سـواء أكانت دينية أم فلسـفية ، ويـعتبـر القرآن الكريم دسـتـوراً يفـسـر كل شىء عن هذه الدنيـا وأمـور الآخـرة ، ويـعنى تفسـيـره أن تتـعلم الدين والفلسـفة والفقـه ، وفـضـلاً عن ذلك فـإنه يضم قواعد اللغة والأدب حيث تتم تدريسها وفق قواعد اللغة الموجودة فى هذا الكتاب المقدس ، مع الاستفادة من الأمثلة الواردة فيه .

وهكذا انتـشـرت اللغـة العـربيـة وثقـافـتـهـا حـول حـدود دول الزنوج ، وصـارت (والاتا) التـى يعـيش فـيـهـا مـعظم رجـال الفكر والفـقـه بمثـابة الحصن الحصين لهذه اللغة . وبعد أن هاجر رجالها إلى تمبكت أصبحت الأخيرة معقل الدين الإسلامى ، وجلب الشـعراء المغاربة وعلمـاء أسبانيا حـصاد قرطبة وغرناطة ، ونشرت القوافل القـادمة من الشمـال كل تقدم فى فـاس ومراكش وتونس ، كما أن رحلة الحج السنوية إلى مكة والمدينة عدلت ونشـرت الكثير مـن المزايا فى القـاهرة ، واسـتطاعت تمبكت أكـثـر من أى مـدينة أخـرى أن تسـتـفـيـد من هذا الغـزو الفكرى العـربى ، وأن تؤسس الكثير من المكتبات الكبيرة ، ونظراً لأنها كانت مركزاً تجارياً ، فقد عدت أيضاً مصدراً للغة العربية وعلومها التى انتشرت وتوسعت مع منسوجاتها وملحها .

لـقـد كان اختـلاف الألـسنة السـائدة فــى المـناطـق الحضرية فى السـودان يتطلب وجـود لغـة مـشـتـركة ، ولذا اسـتـخـدم أهل سنغى

والفولانى والتوكولور والطوارق والبمبارا والموسى والهوسا والمالنكى وغيرهم - اللغة العربية كوسيلة للتفاهم المشترك .

وتخصص عدد كبير من السكان فى دراسة اللغة العربية وأصبح يطلق عليهم الفقهاء والشيوخ حسب الوثائق القديمة أو لفظ المرابطين بالمفهوم فى السودان اليوم ، ويحمل المصطلح الأول معنى الفقيه أو هؤلاء الذين يفهمون القانون ، ومن الأمور الشيقة أن الحركة العلمية بزغت من دراسة المبادئ الفقهية الواردة فى القرآن الكريم ، وحسب المصطلح الحالى يفضل اسم الشيخ أو المرابط لأنه يعنى الفقيه والطبيب وهذا يعبر بشكل أفضل عن الصفة المزدوجة لعالم السودان .

والمرابط هو ذلك الرجل الذى اعتنق الدين الإسلامى وطبق الشريعة حسب ما ورد فى القرآن والسنة ، ودرس القرآن الكريم بكل عناية ودقة فضلاً عن حياته الشخصية التى جعلت منه مثلاً يحتذى لكل المؤمنين الصادقين ، وهو عمومًا ينتمى إلى عائلة إذا جاز أن تطلق عليها متبحرة فى العلم والفقه ، وهذه الصفة الثنائية تنتقل من الأب إلى الابن ، ويدعمها القيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة ، ويقيم فترة طويلة فى الجامعات العربية ، ولدينا حصر بعدد كبير من هؤلاء العلماء وسيرتهم الذاتية ، والكل ينتمى إلى أسرة أو أصل واحد .

إن هؤلاء العلماء والأسر المثقفة تقيم داخل أسوار مسجد سنكرى ، وتشكل هيكلاً يماثل مربع اللاتين فى باريس ، ويكن لهم السكان كل

احترام وتبجيل ، فلقد أصيب العالم أحمد (والد أحمد بابا المؤلف) بمرض خطير ، واعترافًا بفضل وتقوى هذا الرجل الطيب - كان السلطان يذهب كل ليلة ليقضى ساعات طويلة بجوار سريره وهو يعانى الآلام وظل على هذا الحال حتى تم شفاء الرجل شفاءً تامًا .

وكان جزء كبير من الضرائب (الزكاة) يخصص لهؤلاء المرابطين من الشيوخ ، وكان ملوك سنغى يقدمون هبات وعطايا ومكافآت للمشهورين منهم خاصةً فى شهر رمضان .

وكان يعهد إليهم بتعليم أبنائهم حتى يضمنوا لهم الهدوء الضرورى لرجل الفكر والأدب ، وكانت أمورهم ميسرة ، ويقوم العبيد بقضاء احتياجاتهم بل وزراعة أراضيهم ويمارس كل مرابط وظيفته الخاصة ، حيث يتخصص البعض منهم لدراسة أمور الدين وخدمة العقيدة الإسلامية وإدارة أمور المسجد ، ويمارس آخرون أمور القضاء ويصبحون حكامًا أو قضاة ، وليس غريبًا أن تجد رجلاً واحدًا يجمع بين حرفتين أو أكثر ، وكان الجميع يمارس فن الكتابة وتدريس الكتب الدينية.

ويمكن الآن بعد دراسة ووصف المدينة الغنية بالملذات والمتعة وبمساعدة المرابطين الذين كرسوا حياتهم لخدمة العقيدة الإسلامية أن نقول عن المدينة المقدسة حسب وصف تاريخ الفتاش ، "فإن هذه المدينة لم يدنسها وثنى قط ، ولم يسجد أحد على أديمها إلا المسلمون الذين

يعبدون الله الرحيم ، إنها مقر ومستقر رجال الحكمة ، وخدمة الرحمن ، كما أنها المسكن الدائم لكل رجال الدين والعلم" .

ويقوم المرابطون تحت إشراف شيوخ الإسلام بإقامة الصلاة ، وتلاوة القرآن الكريم فى حلقات عامة ، وتقديم دروس دينية فى شهر رمضان المعظم حيث إنه شهر الصيام ، وهناك من ينعزل عن الحياة الدنيا ويصوم بصفة مستمرة حيث يقضون الليالى الطوال فى الصلاة والدعاء فى المسجد ، وكانوا يعطفون على الفقراء واليتامى ، وهناك آخرون يقومون بأعمال كثيرة لكن دعنا نلقى صورة كاملة عما ورد فى النص الأصلى .

" إن الشيخ الفقيه فى الدين أبو عبد الله لا يمتلك أى ثروة وكل سلعة خصصها لمساعدة الفقراء والمساكين بل إنه اشترى العبيد لكى يعتقهم ويعطيهم الحرية ، وليس لمنزله باب حيث يدخل أى شخص دون إعلان ، ويأتيه الناس من كل مكان وفى أى ساعة خاصةً فى أيام الأحد بعد صلاة الظهر ويتوافد عليه المغاربة والعرب بمجرد أن يسمعوا عن طيبته وكراماته وإحسانه" .

وربما نقرأ عن حياة بعض رجال الدين المسيحيين وقيامهم بالكثير من المعجزات والكرامات التى تشبه ما يوجد عند هؤلاء الناس ، وفيما يلى حديث لأحد المرابطين الذين عاشوا فى مكان ما فى عام ١٣٣٠ "كان الفقيه الحاج جد القاضى عبد الرحمن يعيش فى مدينة بانكو

Bankou عندما غزا ملك مالى هذه المدينة وتجمع الناس حوله قبل الذهاب إلى المعركة ، وطلب منهم أن يأكلوا نوعًا معينًا من الحشائش (الأعشاب) وقد فعل الجميع كل ما طلبه باستثناء رجل واحد ، وعندئذ قال الشيخ لهم : "اذهبوا مباشرةً إلى المعركة ، ولن تستطيع سهام الأعداء أن تصيبكم بسوء أو أذى ، وعاد الجميع من المعركة سالمين ومنتصرين باستثناء الرجل الذى لم يأكل والذى مات أثناء الصراع" .

وحدث شىء مماثل لجد الكاتب المشهور أحمد بابا أثناء وجوده فى المدينة المنورة فقد طلب السماح له بزيارة قبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكن لم يسمح له القائم بهذا العمل ، فجلس على العتبة وأخذ يقرأ آيات من القرآن الكريم ، وفى الحال انفتح الباب حسب طلبه ، واندهش رجال الدين من الفقهاء بهذه المعجزة ، وانحنى الجميع أمامه يقبلون يديه .

إن حياة سيدى يحيى حاكم مدينة تمبكت مملوءة بالكثير من الخوارق والمعجزات ، ففى أحد الأيام وعندما كان يقرأ القرآن فى مكان عام مكشوف ظهرت سحابة أمامه وسقط المطر الذى أعقبه رعد شديد وبرق وأسرع تلاميذه بالهرب بحثًا عن مأوى ، لكنه قال لهم : "يظل كل واحد فى مكانه" ، وهكذا حدث ، وهناك قصة تشابهها ، فقد كانت الرفيقات من النساء يرغبن فى طبخ سمكة ، وطوال يوم كامل وضعوها على النار دون فائدة ، واندهشت النساء لكن سيدى يحيى

عندما سمع حديثهن قال لهن :" عندما ذهبت لصلاة الفجر فى المسجد لمست رجلي شيئًا رطبًا ربما تكون هذه السمكة لأن ما يلمسه جسدى لا تمسه النار أو يحترق" .

إن المعجزات كثيرة ومتعددة ولا توجد دهشة فى أن المرابطين من الشيوخ يقومون بالكثير من هذه الكرامات ، ولقد كان رحيل الجيش المغربى من مراكش لغزو السودان قد أخطر به الفقيه عبد الرحمن لشعب وسكان تمبكت فى اليوم نفسه .

وكما يقول تاريخ الفتاش : "بعد الانتهاء من صلاة الفجر تلا اسم الله ثلاث مرات ، وقال : سوف تسمعون هذا العام أشياءً كثيرةً لم تسمعوا مثلها من قبل وسوف تشهدون أشياءً كثيرةً لم تشاهدوها من قبل" .

ففى المراحل الأولى من حياة سيدى يحيى لم يظهر الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - كل ليلة ولكن عندما تقدم فى السن صارت هذه الزيارات أمرًا عاديًا حتى إنه فى النهاية كان الرسول يظهر له مرة فى السنة ، وعندما سأله الناس عن سبب هذا ، أجاب سيدى يحيى "إن السبب الوحيد الذى ظهر أمامى هو أننى فى السابق لم أهتم بالتجارة ولكن الآن كرست جزءًا كبيرًا من وقتى لها ، ولكن لماذا أفعل ذلك ؟ لأننى لا أرغب فى الاعتماد على الآخرين" كان هذا رد الشيخ .

وكان محمد نيدو – الذى حكم تمبكت باسم الطوارق لفترة قصيرة قبل أن يغزوها سنى عليّ – على علاقة طيبة بسيدى يحيى ،

وفى أواخر أيام حياته ظهر لمحمد نيدو فى أحد الأحلام إنه رغم غروب الشمس فإن القمر لم يسطع ، وعندما تم نقل هذه الرؤيا إلى صديقه قال : "ألا تخشى من معرفة معنى هذا الحلم؟" ، وكان الرد : "إننى لست خائفًا" وعندئذ كان الرد : " إن هذا يعني أننى سوف أموت حالاً ، وأنك سوف تموت بعدى بفترة قصيرة" .

وانتابت محمد نيدو حالة من الحزن وعندئذ سأله سيدى يحيى : "هل أنت خائف ؟ "، فأجاب نيدو : " إن هذا الحزن ليس بسبب الموت ولكن بسبب الحب الكبير الذى أكنه لأطفالى الصغار"، وقال الرسول "دعهم تحت رحمة الله ، ومات سيدى يحيى بعد فترة قصيرة من هذا الحديث وتبعه محمد نيدو الذى دفن بجوار صديقه فى المسجد الذى بناه" .

إن العلامات التى ميز الله بها المرابطين المخلصين عن غيرهم من المؤمنين تتجلى بعد الموت ، وكان أحد الشيوخ قد أعطى تعليمات بأن يتولى أحد تلاميذه عملية غسل الجثة بعد الموت ، وعندما حانت لحظة الفراق وجد التلميذ لفة خفيفة بجوار الجثة وأمر بأن تفتح وأن يعد الكفن ، وعندما تم فتح هذه اللفة على جسد المتوفى أعطت فى الحال ضوءًا قويًا لدرجة أنه أنار كل الغرفة ، وتحكى الروايات القديمة ، والقصص التاريخية الآلاف من الأحداث التى نلحظها كما أحكى أنا سرها ، وقد اقتنع أحد أطباء تمبكت بالقول بأن الرجال المؤمنين فى هذه المدينة لا يقلون إيمانًا وتقوى عن أصحاب رسول الله ، وقد أطلق على هؤلاء الرجال لقب الأولياء ، وكان الرجال الأشرار الذين حلت عليهم

المنية يرغبون فى أن يُدفنوا بجوار هؤلاء الشيوخ فى رحمة الله ويقوم الناس بزيارات لهؤلاء المشايخ كنوع من التبرك وحتى يقوموا بزيارتهم فى حدائقهم ومنازلهم .

إن المعجزات مطلوبة وتمنح لأنه لا يوجد سبب لعدم منحها عندما تطلب من المؤمنين الصادقين .

ففى الشمال والجنوب والشرق والغرب من المدينة وعلى حواف تلك المناطق التى تغمرها المياه كانت تقام المقابر التى تشكل نوعًا من القدسية حول المدينة ، وكانت عندى رغبة لزيارة هذه المقابر ، بعد أن سمعت كل هذه القصص عن الذين دفنوا فى التراب فى هذه المقابر وفى أحد الأيام أبدى خادمى استعداده للقيام بهذه الزيارة لولا الخوف من هجمات الطوارق - لكن تقدمنا إلى إحدى هذه المقابر والتقينا برجل عجوز وهو أحد رجال الدين جاء لزيارة أخيه الذى توفى منذ فترة وكان قد فتح باب إحدى هذه المقابر ، وظهرت داخلها قطعة من الطين مغطاة بقطع من مادة خشنة وكان الرجل يجلس عند مدخل المقبرة وهو يقرأ آيات من القرآن الكريم .

لقد كان هذا هو الصوت الوحيد الذى سمعناه والرجل الحى الوحيد الذين قابلناه وسط هذه الرمال البيضاء ، ووسط هذا الحقل الضخم من الأموات الذى يوجد بالمدنية وفى كل خطوة نخطوها تدوس الأقدام على جمجمة أوحتى جثة كاملة أو بقايا عظام أجيال مضت ،

فضلاً عن أجساد دفنت من قبل في الرمال وتعرضت لهجمات من الحيوانات المفترسة في الصحراء ، وكان هذا الجو القاسي والجاف في الصحراء ، ومناظر الموت حولنا قد أعاد للذاكرة المقابر المنتشرة أمام أسوار أورشليم القدس المقدسة التي تشبه تربتها هذه الأرض المملوءة بجثث الأموات .

إن المرابطين من الشيوخ الذين كرسوا جهودهم لدراسة الفقه الإسلامي يطبقون العدالة حسب مبادئ القرآن الكريم والنصوص الإسلامية التي احتوتها كتب الفقه بأقلام الفقهاء العرب ، كما أنهم يقومون بتوزيع الميراث حسب الشريعة ، ويقومون بدور المحامي للدفاع عن هذه الحقوق .

إن علماء تمبكت لا يؤمنون بهؤلاء الشيوخ ومعجزاتهم أو كراماتهم، وأثناء فترة إقامتهم في الجامعات الأجنبية في فاس وتونس والقاهرة بهروا أشهر علماء الإسلام بمعرفتهم الواسعة ، ونظراً لأن هؤلاء العلماء من الزنوج لا يقلون عن العلماء والفقهاء العرب ، فقد تم تعيينهم أساتذة في مراكش ومصر ، وإذا قارنا هذا بعلماء تمبكت نجد أن العلماء العرب لا يصلون إلى المكانة التي تتطلبها جامعة سنكرى ، فلقد وصل أحد الفقهاء من الحجاز بقصد التدريس في تمبكت ، ووجد المدينة مملوءة بعلماء من السودان ، ووجد أنهم يتفوقون عليه في العلم فانسحب إلى فاس حيث نجح في الحصول على وظيفة .

إن مهنة التدريس حرة تماماً ، ومؤهلات المدرس الوحيدة تكمن في وجود عددٍ كافٍ من المستمعين ، وإذا حاولنا دراسة تاريخ حياة

هؤلاء العلماء نجد أنهم يتميزون بالشفقة والنيات الحسنة نحو تلاميذهم، ويدركون تمامًا المسئولية الملقاة على عاتقهم ، ويرفضون وظيفة الأئمة حتى يواصلوا عملهم فى مهنة التدريس ، ولقد واجه أحدهم مشكلات كثيرة ومتزايدة حتى يوفق فى تعيينه فى وظيفة القاضى الأعظم .

وسوف نحاول أن نقدم وصفًا تفصيليًا عن الأعمال اليومية للشيخ محمد بن أبى بكر ، وهو أحد العلماء المشهورين فى عصره ، "إنه يقوم بإلقاء محاضرات فى مختلف الموضوعات منذ الصباح الباكر من الساعة العاشرة ، وبعد أن يعود إلى منزله لأداء فريضة الصلاة يذهب إلى القاضى ليدرس القضايا ويحل مشكلات الجماهير ، ثم يقيم صلاة الظهر فى المسجد جماعة ، ويقوم بالتدريس فى منزله الخاص حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ثم يؤدى صلاة العصر ، ويخرج لإلقاء محاضرة عامة فى المسجد" ، وتوجد صورة لأستاذ كتب عنه قائلاً : "إن السودان لا يمتلك أستاذًا مثقفًا مثله فى علمه وطيبته" ، حيث حباه الله بهبات عظيمة ، ولا يقل إطلاقًا عن سيدى يحيى حاكم تمبكت ، وهنا نجد أنه يقوم بدور ثلاثى ، رجل الدين والقاضى والعالم المثقف" .

لقد حباه الله بذكاء هادئ فضلاً عن ذاكرة قوية ، وكان علمه وثقافته عالية ، وشخصيته الكبيرة تجبرك على طاعته وتنفيذ أوامره ، وإن كثيرًا من الرجال لا يفعلون أى شىء إلا الذى يصدر من بين شفتيه، ويتهافت الناس إلى مجالسه طلبًا للبركة ، حاملين معهم الهدايا القيمة ، وكان يستقبل كل هذه الجموع بكل تواضع ، ويفسح دائمًا المجال للزوار

الآخرين ، وعندما تم تعيينه قاضياً قام بالقضاء على الكثير من المساوئ والفساد الذى يمارس داخل المحاكم ، وكان نموذجًا للعدالة فى أعين كل المؤمنين حقًا .

إن هذه المهام فى مجال القضاء لم تقلل من حماسه للتدريس ، وبفصاحته كان يجذب اهتمام وحب كل الذين يستمعون إليه ، وقد تميز بالوضوح فى الشرح ، وكانت طريقة إرشاده سهلة ، إن مثل هذه الموهبة ما خلقت إلا لإحداث نقلة فى الفكر ، وحقًا فإن سيدى يحيى قد غير كثيراً فى العلوم فى بلاد الزنوج ، ودرس للكثيرين من العلماء الشبان الذين صاروا رجال علم وأدب ، وعاش حتى بلغ سن السابعة والثمانين (١٣٧٣ - ١٤٦٢) ، وعمل بالتدريس لمدة خمسين عاماً من حياته .

وليس من الضرورى التأكيد على أن هؤلاء العلماء يمتلكون مكتبات مدهشة حيث أشار الكتاب السودانيون إلى فهارس هذه المؤلفات القيمة، وكانت الكتب الدينية والفقهية واللغوية تحتل المكانة الأولى فى هذه القوائم .

وهى تضم مجموعات ومجلدات عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل صحيح البخارى ، وجائزة السيوطى، وصاحب مسلم، والمدونة الصغرى التى يقول فيها المؤلف : إنه بعد أن انتقل إلى الجنة شاهد سيدنا إبراهيم وهو يعلم الأطفال الصغار كيف يكتبون وينسخون ، وهناك أيضًا الألفية التى تعد كتاباً فى قواعد اللغة وكتاب الترمذى

الذى يضم وصفًا عن صفات الرسول وحياته الخاصة وسياسته ، وأخيراً توجد كتب عن الفقه على مذهب الإمام مالك بما فيها من تعليقات كثيرة هيأت المجال للإمام سيدى خليل ورسالة أبى زيد القيروانى وغيره .

وفضلاً عن كل هذا توجد أعمال من الشعر والخيال والأدب العربى الرفيع مثل مقامات الحريرى والهمذانى ، وقد وجدت نسخة من اختيار معجزات أبو عبد الله بن عبد الرحمن الغرناطى فى الموصل فى عام ١١٦٠ ، وكانت الأعمال التاريخية والجغرافية فى كل من مراكش وتونس والقاهرة تلقى شهرة فى تمبكت (ابن بطوطة دائمًا يشار إليه) ، كما ظهرت الكتب العلمية البحتة من خلال كتابات عن الفلك والطب ، وباختصار تضم مكتبات تمبكت كل كتب ومؤلفات الأدب العربى .

وفضلاً عن كل هذه الفنون تضم المدينة مجموعة ضخمة من المخطوطات ، وكما قال ليو الأفريقى ، إن الكتب تباع بشكل جيد هناك ، ويتم الحصول على ربح كبير من جراء بيع الكتاب أكثر من أى سلعة أخرى ، وكان الأطباء المثقفون يستخدمون تعبيراً يبدو غريبًا عندما يطبق على الزنوج ومؤلفاتهم ، وطبقًا لأحسن فهم للمعنى إنهم يستخدمون الكتب الأصلية وليست الكتب المنقولة ، ونجدهم يبحثون عن المجلدات الأصلية التى لا يمتلكونها ويقومون بنسخ أعداد منها إذا كان من المتعذر شراء نسخ أصلية بسبب فقرهم ، وبهذه الطريقة يجمعون ما بين سبعمائة إلى ألفى مجلد ، وإذا قارنا هذا بالبخل الذى يعيش فيه محبو الكتب فى عصرنا هذا ، فإن هؤلاء كانوا يتبادلون هذه المخطوطات بكل فرح وسرور .

لقد أحب أبو بكر أصدقاء العلم ، وأولاهم عنايةً خاصةً وكان يعيرهم أفضل وأغلى الكتب عنده ، ولم يطالبهم بردها مرة ثانية رغم ندرتها ، ولقد ضيع مكتبته كليةً بهذه الطريقة - بارك الله فيه - وكان كل طالب يأتى بابه ليستعير كتابًا يجد استجابة فورية ، وكانت هذه ملاحظة قوية لأنه كان محبًا للكتب ، وسوف ينال جزاءه عند الله .

لقد تدهورت مكتبات تمبكت نتيجة غزوات الفولبى والتوكولور ، وفى الوقت الحالى حصل القضاة والمرابطون على أعداد معقولة من الكتب - لكن أى مواطن ثرى يتفاخر بأنه يمتلك بعض الكتب القليلة ، إنه لا يقرؤها فى الغالب لكن يحب عرضها وهذا عمل جيد فى حد ذاته .

ورغم كل هذا فقد وجدت صعوبة كبرى فى الحصول على أى كتب فى الجزء الأول من فترة إقامتى لأنهم كانوا يخشون أن أمارس العادات الشنيعة التى يقوم بها التوكولور والفولانى ، وبعد أن كسبت بعض الثقة لديهم أعارونى بعض الصفحات القليلة ، وعندما عرفوا أننى أتعامل معها بكل رقة وإخلاص وأعيدها إليهم ؛ قرروا منحى الثقة وإعطائى مجلدات كاملة ولم أنجح إطلاقًا فى إغرائهم لبيع بعض الكتب لى مهما عرضت من ثمن لها ، واقتنعت بأن أقوم بنسخ كل ما هو مفيد لى ، وقام أحد الرجال بشرح تاريخ أحد هذه المجلدات الذى كان قد أحضره أحد التجار من الجنوب ، ودفع مبلغ أربعين قطعة ذهبية ثمنًا له وقيمة كل قطعة عشرة فرنكات ، وهذا يعتبر مبلغًا محترمًا لقيمة كتاب حتى فى فرنسا ذاتها .

ننتقل من الأساتذة إلى الطلاب الذين يتوافدون إلى المدينة من كل مكان ، من الصحراء ، ومن مراكش ومن كل أجزاء السودان ، وتقوم جنى والمراكز الثقافية الثانوية مثل تندرما وديا Dia وساى وكورنرا وغيرها بدور المدارس الإعدادية لتمبكت ، وكان أبناء ملوك سنغى قد تركوا قصورهم فى جاو ، كما هجر أطفال الطوارق خيامهم الكبرى ليتلقوا العلم فى جامعة سنكرى ، ويذكر تاريخ الفتاش هذه الحقيقة المسلية ، ولقد جمع أحد الأساكى ويدعى محمد بانكورى جيشًا ليحسم نزاعًا حول صاحب السيادة مع أحد الملوك الذين يدعون السيطرة على جاو ، وتوقف هذا الأسكيا فى تمبكت ، وتحدث مع القاضى الأكبر ، وطلب منه أن يكتب خطابًا إلى منافسه يقول فيه : إن بانكورى قد تخلى عن العرش وإنه سوف يواصل حياة الدراسة فى هذه المدينة (مدينة العلم والثقافة والكتب) .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء وأبناء الرؤساء ، جاء أبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة الساعون للعلم والمتعطشون للمعرفة ، يؤيدهم فى ذلك عظماء المدينة أو التجار الذين يحبون العلم ويجلونه .

يصل التلميذ أو الطالب وهو مسلح بأسس العلم ويضيف بعض المعارف الدينية والتاريخية ، وبعد أن يحفظ جزءًا من القرآن الكريم يقوم آباء الطلاب بتقديم هدايا أسبوعية من الأصداف عينًا أو نقدًا للأساتذة ، وفى النهاية يقدمون هدايا كبيرة إلى الأستاذ المشرف ، ويقومون بعمل وليمة (من الفتة) لأصدقائهم ومعارفهم .

ويصبح الشاب الصغير بعدها مستعداً لقراءة أعمال أكثر أهمية ومن نوع آخر مثل قراءة الكتب العربية التى تعطيه تعليمات وإرشادات لتأهيله أكثر من شرح هذه الكتب .

وبعد أن يصبح الطالب مستعداً تماماً يرحل إلى مدينة تمبكت وهناك يدرس فى العادة تحت إشراف عدد من الأساتذة حيث يقوم كل أستاذ بشرح وتدريس بعض الأعمال الخاصة وينتقل الطالب من أستاذ لآخر حسب قدراته ، وحسب ما تمليه عليه مخيلته ، وكانت الدروس تشرح تحت أسقف مسجد سنكرى أو فى داخل أحواش وحدائق منزل الأستاذ .

وتتنوع أفرع العلم وتتشعب ، حيث يبدأ الطالب بدراسة الفقه ويحلل ويشرح الكتب المقدسة الكبرى ، ويدرس البلاغة والمنطق والفقه لكى يصبح الطالب مستعداً لنشر الدين الإسلامى على نطاق واسع .

ويقوم الفقهاء بتطبيق مذهب الإمام مالك ، كما يقوم آخرون بالتخصص فى البلاغة والشعر والفلسفة والفلك والأنثوجرافيا ، هذا فضلاً عن تخصص آخرين فى دراسة الحوليات والبيلوجرافيا وتاريخ الجنس البشرى ، أما الرياضيات فلم تنل نصيبها فى هذا المضمار ، أما الطب فقد نال جزءاً من الدراسة ، ولقد شاهدنا أحد الشيوخ وهو يعالج أحد المصابين بآلام الأسنان مستخدماً قطعة من الطمى من حديقته ، والأسوأ من ذلك أن أحد الشخصيات المهمة أُصيب بمرض

الجذام ، فجاء إليه الأطباء من كل أجزاء أفريقيا لوصف هذا المرض ، وقال أحدهم : "إنه يمكن علاجه بأن يأكل قلب رجل شاب"، وفى الحال طلب الأمير قتل أحد الشبان لكن دون جدوى ومات الرجل المهم بسبب مرضه.

لقد كانت هذه الدراسات طويلة جداً لقد قضينا ثلاث سنوات فى شرح "الإمام مالك" قبل أن يدرس الطالب اللغة العربية كما يقول أحد كتاب تمبكت .

ومن جهة أخرى فإن العلوم الجسمانية والتربية البدنية مهملة تماماً ، وحتى فى عصر سنى علىّ كان الطلاب يمنعون من ممارسة التمارين الرياضية ، وعندما يجبر أحد الطغاة الرجال المثقفين على مغادرة تمبكت فإنهم لا يعرفون كيف يتسلقون جبلاً ، ويسقطون بلا هوادة على الأرض، وبعد أن يكمل الطلاب تعليمهم فإنهم يحصلون على دبلوم أو شهادة ترخيص بالتدريس ، ويصبحون بعد ذلك من المرابطين ، وتصير كل المهن والحرف فى السودان متاحة أمامهم ، ويصبح من حقهم دخول المسجد والقيام بأعمال الإمامة والتدريس فى بعض المدن الصغرى ، أو ربما يطمعون فى منصب القاضى أو مساعده فى بلادهم ويقوم بعضهم بمهام أساتذتهم ويؤسسون عائلات جديدة من الفقهاء .

ويقوم التجار الأغنياء باختيار أحد الشباب والسماح له بالإقامة معه حيث يقوم بدور يشبه الدور الذى كان يقوم به رجال الدين فى العائلات الأوروبية ، ويقوم بالتدريس للأطفال ، ويقرأ القرآن بصوت

مرتفع حتى يسمع كل أهل البيت كما يقوم بكتابة الرسائل ، وفى الوقت نفسه يبدى رأيه فى المسائل الخاصة بالتغذية والأخلاقيات ، كما يشرف على هبات التاجر والأموال التى ينفقها فى أوجه الخير ، كما يقوم بسرد القصص المسلية ، ويقوم طلاب آخرون بإعطاء دروس فى اللغة العربية والكتابة للغرباء من الزنوج الذين يمرون على مدينة تمبكت ، ويشغل عدد كبير منهم مناصب الكاتب العام ، ويتعهدون بأعمال المراسلات لمختلف التجار ، هذا فضلاً عن قيام بعضهم بنسخ الكتب التى يحصل منها على ما بين خمسين أو مائة فرنك حسب أهمية العمل .

وفى هذا المجال نستطيع إحصاء اللصوص والمنافقين بين هذه الأعداد حيث يقومون بزرع الخرافات بين الناس ويحاولون إنقاص الدين الإسلامى وتشويه صورته إلى أعمال السحر والشعوذة ، تلك الأعمال التى جلبها من مصر أبناء السنغى ، ويتنبأون بفشل أو نجاح رحلة أو مشروع ما ، ويقومون بإعداد التعاويذ واستخدام السحر الذى يعتقد فيه الطوارق والزنوج ، وكانت هذه التعاويذ تكتب على قطعة من الورق أو الجلد وتعلق على أسوار المنزل لتمنع دخول الجان ولتحمى السكان من الأعداء ، وفى يوم الجمعة أو الاثنين تتم قراءة بعض التعاويذ لتحمى المسافرين أثناء رحلاتهم ، ولقد اكتشفت وصفة تطرد الجراد بعيداً حيث تقول : "إن أى شخص يرغب فى هذا أن يكتب على أربع صفحات من الورق الدعاء الذى ألفته ، واضعاً واحدة فى كل ركن من حقله ، وبعدها يأخذ جرادة صفراء وأخرى حمراء ويقرأ الآيات الأولى من الدعاء سبع مرات وبعدها يجب أن يقول :

أيها الجراد إذا لم تغادر الحقل فسوف تحل عليك اللعنة وعلى كل من له علاقة بك من الأم والبنات" .

لقد كتب عالم مشهور يدعى المغيلى كتاباً عن هذه الأمور بعنوان "نصيحة للرجال الأمناء ضد من يخدعون من جانب الذين يدعون العلم" .

الفصل الرابع عشر

السياسة والأدب

لقد وسع المرابطون من رجال الدين من نشاطهم فى مجالات السياسة والأدب ، فضلاً عن دورهم كرجال دين وفقهاء وعلماء ، فلقد لاحظنا عمليات هرولة النساء إلى بيوت هؤلاء العلماء بحثًا عن نصيحة أو الاستفسار عن فتوى أو الاستفادة من علمهم وحكمتهم ، وبهذه الطريقة تعود المرابطون العلماء تقديم النصح دون أن يطلب المجتمع ذلك منهم ، وكان هؤلاء العلماء يقفون موقفًا حازمًا من كل الطبقات حتى مع الأمراء أنفسهم ، والمثال على ذلك أن القاضى العقيب كان يتمتع بقدر من الحزم والاستقلالية جعلته فوق كل الشبهات ، وكان يعبر عن رأيه للسلطان بكل صراحة بالأسلوب نفسه الذى كان يتبعه مع أدنى الفئات من الشعب ، وعندما كان يلحظ مسلكًا من الأمراء مخالفًا لما ورد فى الكتاب والسنة المحمدية ، كان يقول رأيه بصراحة ، وكان يستقيل ويجلس فى بيته إذا لم ينفذ ما أفتى به .

وهكذا انغمس المرابطون فى طريق السياسة الصعب ، وأدى تدخلهم فى عالم السياسة إلى النظر إليهم بعين الريبة والشك ، وكاد الأمر ينتهى بسقوطهم والقضاء عليهم ، وكما شاهدنا فإن القبضة الحديدية لسنى علىّ كانت قوية جدا على كل من يعارضونه ومع ذلك فقد استعاد المرابطون مكانتهم المفقودة فى ظل الأساكى ، حيث أظهر مؤسس الأسرة سواء من خلال الاقتناع أو المنفعة – صداقة قوية لهم ، وبالتالى فإنهم قدموا كل الدعم لهذا المغتصب ، واستخدموا النصوص الدينية المقدسة لإثبات شرعية الاستيلاء على السلطة ، وكانوا يقفون دائمًا إلى جانبه فى كل شىء ، وكان يأخذ رأيهم ومشورتهم فى قضايا الحرب ، ويلجأ إليهم فى كل الفتاوى الشرعية والقانونية ، ويعاملهم مثل وزرائه . ولقد وجدنا وثيقة عن هذه الفترة فى مكتبة فى تمبكت تصف الدور الذى لعبه هؤلاء المرابطون ، ولم يكن مؤلفها سودانيًا ولكنه أحد الأطباء العرب ، سافر إلى السودان فى فترة حكم الملك المشهور ونجد أنفسنا فى أمس الحاجة إلى وصفه ، وربما نحتاج إلى دراسة المغيلى نفسه لنملأ الفجوات والثغرات فى هذه الوثيقة .

وكما يقول كاتب سيرته : "إنه ولد فى تلمسان بالجزائر وكان يمتلك موهبة الذكاء مع الحب وشغف بالعلم ، وكان معروفًا بالطيبة وحسن الخلق ، ونظرًا لأنه كان متحمسًا للقرآن وجريئًا فى مواقفه – فقد كرس كل جهوده ومعارفه لقضية الدين ، وبعد أن كسب نفوذًا كبيرًا فى مجمع

العلماء والمشاهير أثناء فترة إقامته الطويلة فى اتحاد توات الكونفدرالى – حيث حثهم على اضطهاد اليهود ومضايقتهم ، ولم يكن راضيًا عن الوضع السيىء الذى وصل إليه هؤلاء الناس وحرمانهم من أية امتيازات ، بل حث الناس على قتلهم وتدمير ممتلكاتهم ومعابدهم ، لكن القاضى الأعظم فى الدولة لم يوافق على هذا العنف ، وطلب استشارة علماء فاس وتونس وتلمسان حول هذه القضية ، ودافع اثنان منهم عن رأى المغيلى(٢٠) ، وأما الثالث فقد أرسل رسالة مطولة عن شرعية محاربة اليهود وعن حقوقهم ، وخاطب حاكم توات قائلاً : "كل الشكر والعرفان إلى أخينا العالم المتحمس الذى كانت لديه الشجاعة فى هذه الأزمان الفاسدة ليعلن رأيه بصراحة ، ويقاوم المفاسد ، ويثير النفوس السيئة ويدعو هذه النفوس التى تحتاج إلى الحماس للعودة إلى الدين الإسلامى الصحيح ، إنه شرف له أن يعارض بكل هذا الحماس مشروعات اليهود (الذين لعنهم الله) ، إنه هو الوحيد المؤمن حقا لكى يوقظ الشعوب التى انهمكت فى الأمور الدنيوية ، وأغلقت آذانها عن صوت الحق ، وصوت الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

وعندما تسلم المغيلى هذا الخطاب أعلن انتصار رأيه إلى أعوانه ، وطالب بهدم معابد اليهود ، ووضع ثمنًا لليهود ودفع سبعة مثقال ذهبًا (تسعين فرنكا) على الرأس منهم من جيبه الخاص ، وكانت المذبحة التى وقعت بعد ذلك قد أجبرته على ترك الدولة واللجوء إلى قلب السودان حيث وجد الملاذ والمأوى بل ووظيفة فى بلاط أسكيا العظيم .

وسأله ملك سنغى سبعة أسئلة حول موضوع الإصلاحات التى كانت تشغل باله ، وهى تنظيم المعاملات التجارية ، والقضاء على الغش ، وفرض ضرائب على الأرض ، والعشر على المناطق المهزومة حديثًا ، وقضية الميراث ، والإجراءات الواجب اتخاذها لضمان حسن السير والأخلاق الطيبة بين السودانيين .

إن الوثيقة التى فى حوزتى تضم كل هذه المسائل والرد عليها من جانب الشيخ العربى والتى أصبح لها حجة القانون وقوته ، حيث حاول مستشارو المغيلى مع الآخرين إنشاء أجهزة التفتيش على الأسواق وضمان حسن الأخلاق ، وضبط المكاييل والموازين وفضلاً عن كل هذه الإصلاحات العظيمة – اقترح اتخاذ الإجراءات الصارمة التى تحمل بصمات القسوة التى طبقها ضد يهود توات ، وطبق تنظيمات قوية بما فيها عقوبة الإعدام ، وكان يسيطر على كل المناقشات الدينية والقضائية.

لقد أدى هذا الحماس القوى الزائد ونفوذ المغيلى القوى الذى مارسه فى السودان (والذى يعد حجة هناك) إلى موضوع لم نجد فرصة لدراسته ، ولكن رغم هذا يُعد موضوعًا مهمًا ألا وهو "سيكولوجية المسلم الزنجى" . إن شخصية السودانى بوجه عام وأهل سنغى بصفة خاصة تقوم أساسًا على الفضيلة وسهولة الانقياد ، كما أنه يعوزها العناصر الضرورية لإظهار روح التعصب الشائعة فى شمال أفريقيا وآسيا ، فلقد اعتنق السودانيون عمومًا الدين الإسلامى بروح عالية لأن الغزاة اعترفوا بذلك ويعكس هذا روحًا من الكرامة والعزة ، وعلى هذا فإنه فى ظل

الحكم الأوروبى لم يوجد مبرر لتحويلهم إلى الديانة المسيحية ، وإذا تركناهم لأنفسهم فإنهم يكونون نمطًا من المسلم المتسامح طيب القلب ، وبعد خمسة قرون من دخول الدين الإسلامى فى السودان نجد المعبد إلى جوار المسجد حتى فى أعظم المراكز مثل جنى حيث توجد مذابح الأوثان والتى لم تدمر حتى عام ١٤٧٥ .

إن تاريخ حياة هذا العدد الضخم من المرابطين لم يظهر أى إساءة إليهم أو عدم تسامحهم ، وعلى العموم فلقد تلطخ الحماس الفاتر للسكان نتيجة الشك فى مبادئ الدين والتى أظهرها سنى علىّ فى الحوادث السالف ذكرها ، ونادرًا ما كان السكان يراعون قواعد الدين وصوم رمضان بكل حماس ، ولقد ذكرت استهلاك كميات ضخمة من المواد الكحولية مرة أو مرتين من قبل ، وتشكل عادة الختان والصلوات اليومية أهم ما يلاحظونه ويطبقونه من الديانة المحمدية .

ومع هذا فإن التاريخ المعاصر للسودان يكشف عن الكثير من الحروب المقدسة والصراعات التعصبية ، وقد كشف تاريخ حياة المغيلى أحد هذه الأسباب لهذه الاضطرابات وأعنى أثر المسلم العربى والذى يمكن الإحساس به فى الوقت الحاضر من الدعاية التى أطلقتها السنوسية ، وهناك ثمرة أخرى وسبب مفيد نجده فى الحج إلى مكة ، وعلى هذا فإنه من خلال الاتصال المباشر أو غير المباشر مع العالم الإسلامى للجنس الأبيض تحول السودانى إلى رجل متعصب ، وإنه من خلال هذا الاتصال تنظر إليه لكى تحافظ على السلام فى الأقطار النيجيرية .

وأخيراً ومن الأمور الأكثر شيوعًا أن الزنجي النقى المولد بين السكان في السودان هو الذى ينقاد إلى الحروب المقدسة ، بل إن هذه الشعوب التى يجرى فى عروقها دم الأجناس البيضاء من الفولبى ذات الأصل البربرى والتوكولور الذين هم خليط من الفولبى وزنوج مالى .

ومن بين المرابطين السودانيين المشهورين كوزراء لأسكيا العظيم ذلك الرجل الذى يدعى محمد كوتى أوكوتو Koutou والذى يستحق الإشارة إليه ونستطيع من خلاله أن نتحدث عن الإنتاج الأدبى فى السودان من بين الكتاب النيجيريين الذين يستحقون الإشارة إليهم وهو أولهم .

وحسب رأى البعض فإنه من المالنكى - لكن يرى آخرون أنه من سنغى وولد فى كاراميو Karamiou وكان قد بدأ تعليمه فى تندرما وأكمله فى تمبكت ، وصار أكثر مستشارى الملك احتراماً بل وحتى طاعةً وكانت سلطته ونفوذه تظهران بهذه الطريقة ، ففى أحد الأيام وزع الأسكيا بعض البلح الجاف على حاشيته وكان كوتى قد وصل حديثًا إلى البلاط - وإلى حد ما - تجاهلوه ، وبعد ذلك بقليل جمع الأستاذ المثقف تلاميذه ، ووزع عليهم تمراً من جديد ، ونظراً لأن السودان لا ينتج تموراً فقد وصلت هذه المعجزة إلى مسامع الملك الذى أعلن فى الحال أن كوتى يمتلك قوة غير عادية ، ومنذ ذلك التاريخ أعطاه الأسكيا الثقة الكاملة ، ومنحه ثروة ضخمة جعلته يتفرغ تماماً للأعمال الأدبية .

واستطاع مؤلفو السودان إضافة أعمالهم إلى جانب المؤلفين فى بغداد والقاهرة وغرناطة والتى كانت أساس مكتباتهم ، وكانت هذه المؤلفات متنوعة ومتعددة سواء فى المجال الفقهى أو المدرسى ، كما كان الجزء الأكبر منها لا يهمنا بشكل خاص ، ومن جهة أخرى فإن جزءًا منها له قيمته الكبرى حيث تضم أعمالاً تاريخية تلقى الأضواء على هذا الجزء الغامض من تاريخ هذه المناطق الواسعة .

لقد حرر كوتى تحت عنوان "الفتاش" تاريخًا لممالك غانة وسنغى وتمبكت منذ بدايتها حتى عام ١٥٥٤ م (٩٥٠ هجرية) ورغم البحث الدءوب والمتواصل فإنى لم أستطع الحصول إلا على أوراق بسيطة من هذا العمل المهم ، ويعرف كل واحد كل شىء عنه لكن لا أحد يمتلكه إنه يُعد الكتاب المثالى فى السودان .

ولد محمد كوتى فى عام ١٤٦٠ وعاش بعد الأسكيا العظيم بحوالى أربعة عشر عامًا وكان على اتصال بكل الأمور العامة وتعد مؤلفاته عن هذه الفترة المضيئة للسودان ذات قيمة كبرى ، وتؤكد الوريقات التى حصلنا عليها هذه الأهمية لقد أخبرونى أننى يمكن أن أحصل على نسخة كاملة من هذا المؤلف فى مدينة ديا أو كورنزا – لكن كل ما اكتشفته كان لأحد أتباع المؤرخ الكبير ويدعى أحمدو سانساريف Sansarif الذى واصل مهمة كوتى كقاضٍ فى تمبكت ، وكان رجلاً مثقفًا وأعاد مراجعة المخطوطة التى نسخت له ، وتلك هى الحقائق التى أضافها إلى هذا العمل الكبير .

إن تاريخ الفتاش لم يكن معروفًا مثل كتب التاريخ الأخرى عن السودان لأنه يعالج شعوبًا كثيرة ودولاً عديدة ، فلقد أظهر الأسر والعائلات التى صارت غنية وقوية ورؤساء الدول المختلفة على أنها كانت من أصول وضيعة وأحيانًا أصلها من الرقيق ، ولهذا السبب أحدث الكتاب مضايقات لعدد كبير من الناس ، وقام الأشخاص المعنيون الذين تناولهم الكتاب بشراء كل النسخ المتاحة ودمروها .

ومع ذلك فإن المخطوطة الأصلية أرسلت إلى أسرتى وورثتها إحدى عماتى التى تقيم فى تندرما ، وحافظت عليها بشكل أمين ، ولكى تتجنب المضايقات وللحفاظ عليه من الدمار فقد وضعت الكتاب فى صندوق خشبى وأخفته فى تل صغير بالقرب من منزلها وكانت عمتى أرملة وكانت ملكة الحديث من أهم مواهبها ، وكان منزلها مركزًا للاجتماعات وعندما كانت الأسئلة توجه إليها ، ماذا يوجد فى حديقتى ؟ وكان ردها دائمًا : " إنه أحمد كوتى أعز أحفادى المدفون هناك" ، وكان الزوار يدعون له عند الزيارة لأن كوتى ترك خلفه شهرة عظيمة فى الحكمة والطيبة .

ونجح أحد رجال الفولبى فى إقامة علاقة ودية مع عمتى التى أفشت له السر ، وفى الحال غادر تندرما وذهب إلى مملكة الشيخ أحمدو ليكشف له عن وجود نسخة كاملة للفتاش ، وبعد ذلك بقليل أرسل الملك قوة من الجنود للحفر فى هذا التل بحثًا عن هذا الكنز الثمين ، ولكن بينما كانوا فى طريقهم إلى حمد الله بهذا المجلد الضخم والقيم ، انقلب القارب مع حامله ، وفقدت الدنيا هذا الكتاب للأبد .

لقد شاهدنا ذلك لكى نبرر حربه المقدسة وغزواته حيث أعلن الشيخ أحمدو شيخو أنه الخليفة الثانى عشر واعتمد على قصة مختلقة واضحة استخرجها من الفتاش ، أليس من المحتمل أن يكون الفولبى قد نظموا عملية القضاء على هذا الكتاب ليضعوا نهاية لبراهين وخدع ملكهم؟ " .

لقد ازداد النفوذ السياسى لرجال الدين فى ظل خلفاء الأسكيا الكبير ، وشاهدنا كيف أنهم يندمون على الأبناء غير الطبيعيين لهذا الرجل العجوز ، وكان الدور الذى قاموا به مهما ، وغير متوقع ؛ لأنه يمثل ما نسميه اليوم بالرأى العام ، وسوف نرى أن ملوك سنغى يشكون فى هذه الأعمال ، ويحكى تاريخ الفتاش "إن الملك أسكيا موسى بعد هزيمته فى دول بحيرة تشاد ، واضطراره إلى الهرب بجيشه قال لقواده : "رغم مرارة الهزيمة إلا أنها أقل بالنسبة لى وما أتحمله أكثر مما يحدث فى تمبكت عندما تصل أخبار هزيمتى هناك لأن الثائرين سوف يجتمعون سوياً خلف مسجد سنكرى ، ويقولون : "أيها الشباب هل سمعتم ما جرى فى كانتا **Kanta** ، لقد أجبر الملك على الهرب خوفاً من أن يسحق جيشه ، إن الذين انتصروا عليه سوف يسحقونه " ، إننى أستطيع أن أسمعهم وكأنى موجود معهم" .

وتوضح روايات أخرى إن رجال الدين يعاملون السلطة الملكية بحرية تتسم بالغطرسة والإهانة ، ومن جهة أخرى أظهر الملوك روحاً معنوية منخفضة ، وفى القرن السادس عشر صار رجال الدين يشكلون خطراً وعنصراً للقلق فى الدولة .

وكان هذا هو الذى جلب عليهم النفى المراكشى ، حيث إن الغزاة رغم أنهم مسلمون لكنهم رأوا أن المسجد يشكل مصدر الخطر الوحيد، ومما لا شك فيه أنه نتيجة تحريض المرابطين ثارت تمبكت ضد الحامية الأجنبية ، واستخدم الباشا محمود وسيلة عسكرية لقمع هؤلاء العلماء ، ورغم أنها طريقة (راديكالية) فلقد قبض على عدد كبير منهم مع أسرهم وسلب ثرواتهم التى كانت عظيمة ، كما قتل عدداً منهم ، أما الباقون فقد سجنهم وبعد فترة نفاهم إلى مراكش عام ١٥٩٤ .

لقد فاقت مآسيهم ما تحمله أسلافهم فى ظل حكم سنى علىّ لأنهم كانوا يربطون بسلاسل ويؤخذون إلى الصحراء ثم يشحنون إلى مراكش ، ورغم أنهم أساءوا استخدام سلطاتهم فى أيام قوتهم إلا أنهم لم يستسلموا لضربات أعدائهم ، وكان صمودهم أمام ضربات الغزاة العنيفة جعلهم موضع إعجابنا ، وكان أحدهم قبل موته قريباً منه فكلف رفاقه بأن يسلموا خطاباً إلى السلطان يحتوى على هذه الكلمات:

"إنك أنت القاهر وأنا المقهور ، لكن القاهر والمقهور سوف يقفان على حد سواء أمام الواحد القهار والقاضى الأعظم" .

ورغم أن هذا النفى كانت له آثاره على السلطان - إلا أنه كان ذات دلالة تاريخية مهمة حيث كان حجر الزاوية فى أن نعرف العلوم السودانية والوثائق الموجودة فى المكتبات الوطنية لأننا وجدنا علماء سنكرى يواجهون التطورات الكبرى فى الحضارة العربية ، ولكن كيف واجهوا وتحملوا هذه المأساة؟

لقد أثبت الاختبار أنه كان فى صالحهم ، لقد كان العالم أحمد بابا من بين المنفيين ، وهو الذى ولد فى القيروان فى عام ١٥٥٦ من أبوين من قبائل صنهاجة ، ورغم أنه كان فى مقتبل الشباب فقد نال شهرة معقولة فى تمبكت زمن الغزو المراكشى ، فأطلق عليه إخوانه لقب "اللؤلؤة المتكاملة لعصره" وزادت شهرته فى مراكش وصار شخصية عالمية وامتدت من مراكش إلى بوجى **Bougie** وتونس وحتى طرابلس ، ولقد أطلق عرب الشمال على هذا الزنجى ، الرجل المثقف والعظيم ، "وإنه رجل الفصاحة والبلاغة" كما قال معجبوه ، وبناءً على طلب العلماء المغاربة تم فتح أبواب سجنه بعد عام من وصوله فى عام ١٥٩٦، ولقد ارتاح المسلمون كثيراً للإفراج عنه ، وقادوه منتصراً من سجنه ، إلى المسجد الكبير فى مراكش ، وطلب منه عدد من رجال الدين أن يبدأ سلسلة من دروس الدين ، وكان قد أبدى الرفض فى البداية لكنه أمام إصرارهم وافق على وظيفة فى مسجد الخلفاء فى مراكش ، وأخذ يدرس البلاغة والقانون والفقه ، وكان يحضر محاضراته عدد كبير من الطلاب الذين كانوا يسألون أسئلة مهمة حول أخطر القضايا ، وكان رأيه فى هذه القضايا قاطعًا ونهائيًا ، وبتواضع العلماء كان يقول : "لقد درست هذه الموضوعات من كافة الجوانب حسب الأسئلة التى وجهت لى ونظراً لأننى لا أثق تمامًا فى حكمى فقد اعتمدت على العلى القدير الذى أنار لى الطريق للرد على هذه القضايا"، وتحكى القصص التاريخية القديمة فى مراكش تفاصيل كثيرة شيقة ، ويقول مؤلف **Bedzlek Mouasha**

القصص التالية عن أحمد بابا - هو من بين أصدقائى - فإننى أقلهم استحواذا للكتب ، ولكن عندما هاجم الجنود هذه الكتب أخذوا ١٦٠٠ مجلد .

وتعطى Nozlel Eltteji مثالاً عن شجاعة وكبرياء هذا الشيخ الزنجى ، بعد أن أطلق صراحه ، فقد ظهر فى بلاط المنصور وسمح له السلطان بالحديث معه من خلف ستار .

وقال الشيخ : "لقد قال الله فى القرآن الكريم - ما معناه - إن الله لا يسمح بالحديث معه خلف حجاب ، وإذا كانت رغبتك الحديث معى أخرج فوراً من خلف هذا الستار" .

وعندما رفع المنصور الستار واقترب منه واصل أحمد بابا حديثه قائلاً : "ماذا كنت تريد من الهجوم على منزلى وتدميره وسرقة كتبى ووضعى فى الأغلال وإحضارى إلى مراكش؟ وبسبب هذه السلاسل والقيود سقطت من على ظهر جملى وانكسرت ساقى" ، ورد السلطان قائلاً : "كنا نود فرض الوحدة على العالم الإسلامى وحيث إنك كنت من أعظم الممثلين للإسلام فى بلادك وتوقعنا أن تكون السيطرة عليك وإخضاعك سبباً فى استسلام كل السكان فى بلدك" .

وإذا كان الأمر كذلك لماذا لم تبحث عن إقامة وحدة بين الأتراك فى تلمسان ودول أخرى قريبة منك - حيث يقال : "دع الأتراك فى أمان طالما أنهم لا يتدخلون فى شئونك" ؟ وأجاب أحمد بابا : "لقد كان حقًا وصادقًا فى وقت ما ، ولكن منذ ذلك قال أبو عباس : "لا تدع

الأتــراك فى أمــان حتى ولو لم يتـدخلوا فى شئـونك" ، وعندمـا فـشل المنصور فى الرد على ذلك أنهى اللقاء .

ورغم أن أحمد بابا كان حـراً من الناحيـة المظهرية - إلا أنه ظل محـجوزًا فى مراكش لمدة اثنى عشر عامًا ولم يطلق السلطان سراحه خـوفًا من تأثيـره ونفـوذه على بنى وطنه ، وظل الأمـر كـذلك حـتى وفـاة المنصور ، فـأصدر ابنه إذنًا بالسـمـاح له بالعودة إلى السـودان ، ورحل أحمد بابا إلى الوطن الذى كان شوقه إليه يزداد ، والذى لم يتحدث عنه دون إذراف الدموع من عينيه ، ولقد كتب أشعـارًا كثيرة وهو فى منفاه "أيها الذاهب إلى جاو ، ابتـعد عن طريقى حتـى أتنفس سـمـا ع اسمى فى تمبكت" .

"احمل تحياتى من المنفى الذى يتنهد من أجل التراب الذى تعيش عليـه أسـرتى وأصـدقـائى ، احـمل عزائى إلى كل عـزيز علـىّ انتـقل إلى العالم الآخر" .

وعند رحـيله من مـراكش قـام العلمـاء بوداعـه فى مـوكب رسـمـى ، وعند لحظة الودا ع أمسك أحدهم بذرا ع أحمد بابا وحياه بهذه السورة من القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ
قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

سورة القصص آية ٨٥ .

وهو حديث عادى ومعتاد لأى رحالة يرغب فى أن يعود سالمًا إلى بلاده .

وعندما سمع الشيخ هذه الكلمات سحب يده فجأة وصاح "ادع الله ألا يعيدنى ثانية إلى هذا الاجتماع ولا أن أعود إلى هذا الوطن" .

ووصل أحمد بابا إلى تمبكت سالمًا ومات فى عام ١٦٢٧ ودفن إلى جوار والده سيدى أحمد ، ولا يزال قبره موجودًا فى شمال تمبكت .

وكان أحمد بابا رجلاً واسع المعرفة وكاتبًا حاذقًا حتى إنهم أعطونا عشرين من مؤلفاته ، وباستثناء كتابه عن العلوم الفلكية الذى كتبه بالشعر وبعض الشروح والتعليقات على النصوص المقدسة – فإن كتبه تعد مرجعًا أساسيًا فى الفقه وعلوم القانون ، والتى أوضحت أنه فوق كل شىء ، كان قاضيًا ، وهناك كتابان من مؤلفاته يستحقان الاهتمام على نطاق واسع بين الناس وأمكن الحفاظ عليهما ، وكنت سعيدًا عندما تمكنت من أخذ نسختين منهما ، وكان أحدهما يسمى الميراث **Miraz** وهو كتاب صغير يعالج مختلف الشعوب الزنجية والذى كتبه أحمد بابا وهو فى المنفى حتى يعرف المغاربة شعب السودان ، أما الكتاب الآخر فهو بعنوان "نيل الابتهاج" وهو قاموس بيليوجرافى واسع عن علماء المسلمين على مذهب الإمام مالك ، وفى هذا الكتاب استكمل أحمد بابا العمل الكبير لابن فرحون واعتبره امتدادًا لكتابه الأخير "الديباجة" حيث أضاف العالم الكبير حياة كل العلماء الذين لم يذكرهم ابن فرحون ، وقد

أكمل أحمد بابا هذا الكتاب فى عام ١٥٩٦ ، ونال شهرة كبيرة فى الشمال وفى أفريقيا الزنجية لدرجة أن المؤلف اضطر لطبع نسخة مشابهة تضم أهم الشخصيات فقط .[٢١]

ويرجع الفضل إلى كتاب نيل الابتهاج أنه صار ممكنًا بواسطته دراسة الماضى الفكرى لتمبكت ، ولهذا السبب يستحق اسم أحمد بابا كل التقدير والتبجيل من علمائنا لأنه لا يقل عن علماء العرب فى شمال أفريقيا ، وحتى هذا اليوم يمثل اسمه كل جهد بذله السودانيون للوصول إلى هذا المستوى الفكرى فى العالم الإسلامى وحتى كل عمل سودانى غير معروف الهوية ينسب إلى أحمد بابا ، ومع ذلك فإن عائلة أحمد بابا ليست متميزة وقد وجدت أحد أحفاده يعيش بالقرب من سنكرى فى بيت متواضع الحجم كان بيت جده ، وكان أحد أحفاد الشيخ أحمدو بابا أبو بكر القاضى والذى نال شهرة كبيرة فى العلم والآخر هو عمرو بابا الذى يعيش على طبع هذه الكتب بخط جميل ، وتحتفظ الأسرة بكرسى يعود إلى العالم العظيم والذى قدموه إلى السلطان زيدان ، وهناك تقاليد غريبة مرتبطة بهذه القطعة الفنية المحترمة ، فعند زواج أحد أفراد الأسرة يسمح للعريس بأن يجلس على هذا الكرسى فى يوم زفافه ، وكما قالوا لى إنهم يأملون فى أن تحل عليه بركات وسمات الشيخ الكبير هو وذريته .

لقد شهد القرن السادس عشر النهاية المحزنة والمؤلمة لهؤلاء العلماء الذين كانوا نقطة توهج وازدهار العظمة العلمية والأدبية لتمبكت .

ولقد كان القبض الجماعى وتشريد علمائها ضربة قاصمة لجامعة سنكرى ، فلقد انهار العلم كما انهار كل شىء بسبب هذا الاحتلال المغربى ، لكن العمل الكبير لكل النهضة الأدبية فى السودان قد تجلى فى الأيام الأولى فى كتاب "تاريخ السودان" والذى نشير إليه من حين لآخر .

لقد كان المستشرقون يدركون ويرقبون هذا الكتاب القيم والذى يرجع إليهم فضل البحث عنه فى طرابلس والجزائر ومراكش والذى كان ينسب بشكل جماعى لأحمد بابا ، وكان الرحالة الألمانى هنرى بارث هو أول من اكتشف بعضًا من أوراقه وأكد هذا الخطأ خطأ يشبه كتاب تاريخ السودان لأحمد بابا التمبكتى ، ولكن كيف يخدع رجل على علم كامل بالموضوعات العربية؟ إن الأوراق القليلة التى جمعها بارث تدحض هذا الرأى لأنها تشير إلى أحمد بابا على أنه المؤلف ، ولكن المؤرخ الألمانى لم يتأثر بهذه الأمور التافهة ، "إنها عادة هؤلاء العرب أن يقلدوا أنفسهم" ، ومن يقرأ كل الكتاب بتركيز أكثر يجد هذا التاريخ والسنة والشهر واليوم الذى ذكر فيه المؤلف وفاة أحمد بابا ، وأنه فى مكان آخر ذكر تقريراً مفصلاً عن نفسه وعن ممتلكاته واسمه عبد الرحمن ابن عبد الله بن عامر السعدى التمبكتى والذى ولد فى تمبكت من إحدى هذه العائلات التى نقلت إليه العلم ، وعند ذكر وفاة هذا العالم المشهور لاحظ أن عبد الرحمن كان تلميذه ، ومن هذا نستطيع أن نفهم أنه قضى فترة شبابه فى التحصيل والدراسة ووصل إلى سن الرجولة .

وفى مكان ما بين عامى ١٦٢٥ ، ١٦٣٥ فى وقتٍ كانت سلطة باشوات تمبكت فى مرحلة الانحلال ، وكان المغاربة قد تزاوجوا مع السكان المحليين ، وبدلاً من إعدام رجال الدين كما كان يحدث فى السابق ، دافعوا عنهم وقدموا لهم الحماية ، بل واستفادوا منهم عندما كانوا فى حاجة إلى الرجال الفقهاء الأذكياء والنابهين والمخلصين لدينهم ، وهكذا وجدنا الاحترام والتقدير الذى لقيه رجل مشهور مثل عبد الرحمن السعدى وتُبرز رحلته إلى ماسينا ومناطق أعالى النيجر مدى الشهرة والاحترام الذى تمتع به هذا العالم ليس فقط فى مدينة تمبكت بل فى كل الأقطار التى شاركت فى الحياة الفكرية فى هذه المدينة ، وفى كل مكان حل به كان يلقى الترحاب والاحترام ، وكان الناس يغدقون عليه الهدايا .

وفى عام ١٦٣١ عين السعدى إمامًا لمسجد جنى ، لكن قاضى المدينة حرمه من هذا الشرف واتهمه بأنه غير عادل ، وعاد السعدى إلى تمبكت حيث واساه الناس على ما حدث له فى جنى ووقفوا بجانبه ، وقد حكى أنه عندما زار قاضى المدينة ، نهض الرجل من مقعده بمجرد أن رآه وأخذه من يديه وأجلسه على الكرسى الذى تركه .

وعاش عبد الرحمن السعدى فترة من الزمن فى تمبكت وفترة أخرى فى جنى وكان يشارك فى المفاوضات والبعثات التى يرسلها الباشاوات وكان يعمل سكرتيراً لأحد أعضائها ، وكان يقضى وقت فراغه فى إلقاء المحاضرات ، ويعقد المؤتمرات ، وفوق كل هذا ، قام

بتأليف هذا السفر التاريخى الضخم الذى احتوى على كل دول النيجر ، وإننا نقدم الشكر لهذه الرحلات والسفريات فى وظيفته الرسمية ومكانته الشخصية التى أعطته فرصة للحصول على كل الوثائق الموجودة التى كان جزء كبير منها مختفياً فى هذه الدول ، ويعد هذا العمل الكبير الذى قضى الجزء الأخير من حياته لإنجازه من الأعمال القيمة[٢٢] .

لقد وضع السعدى تاريخ السودان حسب خطة منطقية واضحة تماماً حسب أفضل قواعد التأليف الأدبية ولم ينقصه شىء ولا حتى المقدمة التى أقتبس منها جزءاً لأنها توضح بين أمور أخرى الوضوح التام وتقدير المؤلف لأسباب انهيار الإمبراطورية فقد ذكر فى مقدمته :

"حمداً لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأول والآخر . . إننا نعرف أن أجدادنا كانوا يجدون متعة فى ذكر صحابة رسول الله والشيوخ والأئمة وملوك أوطانهم وحياتهم ومنجزاتهم وأهم الأحداث التى وقعت فى عصرهم ، لقد حكوا لنا كل ما رأوه وسمعوه عن العصور الممتدة خلفهم .

أما فى الوقت الحاضر فلم نجد أحداً يهتم بهذه الأمور أو يسير على نهجها أو يتبع أسلافها ، وحيث إننى أشهد بانحلال هذا العلم وأعنى التاريخ الذى أعتبره بفضل ما قدمه للجنس البشرى من معارف فقد توكلت على الله وبعونه فى كتابة كل ما قرأته وشاهدته وسمعت عنه بخصوص ملوك السودان ، والأحداث المرتبطة بالحملات الحربية عند شعب سنغى .

وسوف أتحدث عن تمبكت وعن تأسيسها وأمرائها الذين نسجوا تاريخ عظمتها ، وسوف أتحدث عن علمائها الذين عاشوا هناك ، وسوف أواصل هذا التاريخ حتى نهاية حكم وسيادة سلاطين مراكش" .

وبعد هذه المقدمة افتتح تاريخه بالتواريخ الأولى التى عرفها ، وتحدث عن أصول مملكة سنغى وتأسيس جنى وتمبكت ، وعن الإمبراطوريات فى غانا ومالى ، واستطاع بسرعة ووضوح أن يحيط القارئ بالمدن الرئيسية والشعوب التى وردت فى السرد ، ثم دخل فى الموضوع مباشرةً عن سنى علىّ ، ووصل بنا إلى عام ١٦٥٣ وأعطانا فكرة ممتازة عن الفولبى والطوارق والموسى والولوف ، ويصف السعدى بإسهاب مراكش ومملكة ماسينا ، ويضيف سلسلة من مشاهير العلماء والشيوخ وتاريخهم وحياتهم وأرفق سيرته الذاتية .

ولم يعتبر السعدى أن عمله قد انتهى بالمهمة التى حددها لنفسه ومع ذلك فإن المؤرخ تولى بنفسه مهمة المحلل فقال : "إن ما سيحدث بعد ذلك سوف أحكيه بالطريقة نفسها مثلما حدث فى الماضى طالما أننى على قيد الحياة" .

كما تقول الصفحة الأخيرة من كتاب "تاريخ السودان" وأرفق ملحقًا يتضمن كل الأحداث حتى عام ١٦٥٦ " ، وهو التاريخ الذى نأخذه كتاريخ وفاته" .

هكذا كانت الخطة فى هذا العمل المهم الذى كان مرشداً لى وموجهًا خلال رحلتى عبر السودان ، وهو يشكل باستثناء الكتابات

الدينية أفضل مجلد عن الزنوج ومشهور فى كل أطراف غرب أفريقيا من شواطئ النيجر حتى حدود بحيرة تشاد .

لقد اكتشف بارث أجزاءً منه فى بواندو وسمعت عنه فى السنغال ، ووجدت نسخة ممتازة فى جنى ، وتم تصحيحها على نسخة فى تمبكت وهكذا نمتلك الكتاب بشكله الكامل قدر الإمكان (ويقوم عالم الدراسات الشرقية المستشرق هودامس بإعداد ترجمة كاملة للكتاب) .

إن أسلوب الكتاب واضح وبسيط ، ويبتعد تمامًا عن المحسنات الأدبية التى تزخر بها المؤلفات العربية ، ويعرض المؤلف تفاصيل غير عادية ولم يتردد فى إعطاء تفاسير متعددة عن أحداث مشكوك فيها .

كما يوضح عند سرده لحياة سنى علىّ أنه ضعيف الإيمان وأنه حيادى تمامًا ويعد كتابه مرجعًا مهمًا للفلسفة الإسلامية السائدة هناك ، إنه عمل يتسم بالأخلاق الطيبة وقد تم إعداده وتكييفه ليواكب عقلية الزنجى لأن عبد الرحمن السعدى لم يكن قانعًا بمجرد سرد الأحداث ، بل كان يشرحها ولكن بدون اللجوء إلى التعقيب الذى شاع بين المسلمين الذين يتحدثون عن الأحداث المؤلمة ، فهو يعلل الأحداث على أنها مكافأة من الله عندما يكونون سعداء وكعقاب منه عندما يكون الأمر خطيرًا ، فهو يحكى كل شىء حسن بكل وضوح ويمجد كل أشكال الشجاعة خاصةً المدنية منها ، إن الكتاب كله يعد مجموعة من الأخلاقيات الإيجابية ، ويعد من أكثرها جاذبية عن القصص الخرافية أو المغامرات

أو الكرامات والمعجزات التى ارتبطت واندمجت مع الأحداث الحقيقية ، وإننى ألحظ أن تاريخ السودان يعد المرجع الأساسى للسودان ، وفضلاً عن الأمور الجذابة بين صفحاته ، فإن له جاذبية السودانيين والتى لمسناها عن قرب وأعنى بها البساطة والعفوية وحسن الخلق والإخلاص الذى ساد صفحات الكتاب ، ومثل الشاعر الإغريقى هومر Homer نجد السعدى يتجول فى الخيال أحيانًا والقلم فى يده . فإلى جانب الأحداث الخطيرة يذكر "إن غرابًا أبيض اللون ظهر فى الثانى والعشرين من ربيع حتى الثامن والعشرين من جمادى واستطاع الأطفال الإمساك به وقتله" .

وفى أماكن أخرى من السرد لرحلته إلى ماسينا قدم إليه أحد مضيفيه ابنته للزواج ، وكان قد بلغ من العمر خمسين عامًا فى ذلك الوقت ويمتلك نساءً أخريات كثيرات ولم يكن راضيًا فى سرد الأحداث للأجيال القادمة ، وأضاف يقول : "إن ارتباطى بفاطمة قد انتهى فى اليوم الثانى عشر من شهر محرم – لكن الزواج لم يستمر حتى الجمعة يوم السادس عشر "، إن كتابه يعكس الحياة ، وعقل السودانى وفكره فى الماضى .

ويستمتع الإنسان من صفحاته بالسرد الجميل الذى كان يقدمه كل من هومر وهيرودوت ، ولهذا السبب أطلق على كتابه إنه أفضل باب للأدب السودانى ، لقد اشتريت من تمبكت أعمالاً تاريخية أخرى تم تأليفها فى تواريخ لاحقة على نمط تاريخ السودان نفسه ، ويطلق عليها اسم ، ديوان الملوك فى سلاطين السودان (ديوان الملوك – كتاب عن

سلاطين السودان) وهو يحكى الأحداث التى وقعت ما بين عام ١٦٥٦ وحتى عام ١٧٤٧ لكن اسم المؤلف غير معروف .

وعلى العكس هناك كتاب آخر بدون عنوان لكنه معروف لدينا تحت اسم مؤلفه مؤلاى حسون وهو يواصل أحداث الديوان حتى عام ١٧٦٩ ، ولهذا لدينا معلومات حتى بداية القرن التاسع عشر ، ولقد ساعدتنا الوثائق الأخرى والروايات الشفوية على استكمال ترتيب التواريخ والأحداث ، أو على الأقل الخطوط العريضة لها ، وصار كل ماضى السودان معروفًا لدينا .

ورغم أهمية هذين الكتابين نظرًا لقيمتهما التاريخية إلا أنهما يفتقدان الجاذبية والسحر الذى نلمسه فى تاريخ السودان .

ومنذ القرن الثامن عشر ظهر التخلف الفكرى بخطوات سريعة وكما يقول مؤلف الديوان فى الصفحات الأولى :

"لقد وصل رجال عصرى إلى نقطة لم تعد فيها قريحتهم تمتلك شيئًا، أما بالنسبة لكبار السن الذين يعرفون أعمال أجدادهم فهم قليلون، وأما الذين يمتلكون أى ذكاء فإنهم قليلون أيضًا ، وعندما سألتهم عما يحدث فى المدينة لم يستطيعوا الرد بأى شىء مهم" .

وتكشف روايته حقيقة أنه هو نفسه قد انخدع فى الأخطاء التى أشار إليها ، فأسلوبه مملوء بالأخطاء وبتكرار عدد الصفحات ، كما أن الإنتاج الأدبى يهبط تدريجيًا والاهتمام بالسرد ويتحول إلى من مجرد

تسجيلات جافة وملاحظات عن نفى المتوفين ، وقد سألت علماء الدين فى تمبكت : "لماذا لم يكتبوا مؤلفات أخرى ويتركوا هذه الملاحظات؟ "، وكان ردهم : "ليس لدينا رجال أذكياء بالقدر الذى يسمح للقيام بهذا العمل ، ولا نستطيع أن نكرس حياتنا كلها من أجل العلم ، إننا لا نستطيع شراء الكتب ولا السفر لاستكمال تعليمنا فى القاهرة أو فاس أو أى مكان آخر لأننا اليوم من أفقر شعوب الدولة" .

وفى السابق كان الناس يهتمون بالأشياء غير المسلية ، فهم يعدون عدد الأيام التى تسقط فيها الأمطار فى الشتاء ، ويذكرون أن فلانًا سوف يتزوج تلك البنت أو ذاك ، أما أحمد بابا فإنه تعلم أهمية البحث عن الحقائق والتواريخ .

وعندما كانت المدينة غنية ويسعى كل واحد لإرضاء العلماء كانوا يرتدون أفضل الثياب ويتناولون أحسن الأطعمة وكان لديهم الوقت للتأمل وقراءة الكتب والكتابة العلمية ، أما فى المائة سنة الأخيرة فلم تجد سوى الحروب والدمار ، ولم نعرف السلام إلا بعد وصول الفرنسيين .[٢٣]

ونحن المرابطين كنا نلهث شمالاً ويمينًا بحثًا عن لقمة العيش ، وكان تعليم الأطفال قليلاً جدًا ، وأحيانًا كان يطلب منا كتابة التعاويذ أو نسخ الكتب ، لكن كل هذا لا يكفى أن نتعيش منه ، ولقد كرس الكثيرون حياتهم للتجارة وذلك خوفًا من الموت جوعًا ، فكيف يجدون الوقت الكافى للكتابة؟

لقد شاهدت المدينة بالأمس ، تمبكت العظيمة تحت كل هذه الظروف ، دعنا نعود بخيالنا إلى تلك الأيام - أيام العز والفخامة والعظمة ، دعنا نصور القوافل القادمة من مراكش وتوات وطرابلس والتى تتجه لعدة أسابيع وشهور عبر تلك الصحراء الشاسعة التى تفقد الطيور نفسها فيها وتتوهج الشمس بشدة فى الصحراء الملتهبة ويتشقق جلد الإنسان وتتورم الشفايف ، وحتى الماء الموجود هناك غير نقى وساخن ولا يمكن الحصول عليه بكميات كافية ، وأحيانًا تعبر أفعى قرمزية الطريق ، وفى فترات متباعدة تشهد الظباء وهى تجرى بسرعة البرق ، ولمدة أيام وشهور لا تجد ما يسر العين عدا رؤية السراب الخادع حتى تصل إلى مدينة تودينى التى تعد أكبر مستقر كمدينة للملح .

وذات صباح شاهدنا ثلاث نقاط سوداء صغيرة على الأفق البعيد، وتوقفت الإبل عن الزمجرة لكنها كانت تزأر ، وعندما ظهرت المآذن الثلاث أبرزت تمبكت عظمتها ، انظر إلى حدائقها وأشجارها ونخيلها ومياهها البراقة ، فلقد توسعت المدينة ثلاثة أضعاف اليوم ، وظهرت شوارع جديدة وأشجار خضراء مورقة ، وحفلت حياتها بسكان وصلوا إلى خمسين ألف نسمة .

وبدلاً من الوحدة والعزلة والبؤس ظهرت المدينة للرحالة فى شكلها المريح بكل شىء ، المرغوب فيه ، ومع وفرة المياه بها ، والظل الظليل تعطينا المدينة العون المنفذ لكلمة الله ، وسحر كلمة الإنسان ، وثراء الذهب والعاج ، وحلاوة عسل النحل ، والابتسامات الواضحة .

لقد علمت أن النـــاس يصـــابون بالجنون عند رؤيتها لأول مـــرة ألا تستطيع أن تفهم كيف أن رجال طرابلس وتونس والجزائر وفاس بعد أن استمتعوا بملذاتها يومًا ما قد أخذوا يحتفلون بعظمة تمبكت حتى آخر لحظة ؟ وكيف أن رواياتهم بعد أن وصلت إلى أوروبا سجلت ميلاد المدينة الخيالية أو الأسطورية ؟

الفصل الخامس عشر

أوروبا وتمبكت

إن من يدرس العبقرية الفذة للرحالة كولبرت Colbert يرى أن أفكاره كانت سابقة لعصره كثيراً ، وعلى هذا فلم يكن عجيبًا أو مدهشًا أن نرى اسمه بين هؤلاء الأوائل الذين حاولوا فتح بوابات تمبكت لأوروبا.

لقد طلب الوزير العظيم شرحًا واضحًا جدًا لقيمة السودان من خلال تقرير أعده أندريه بروس Andre Bruce حاكم المستعمرات الأفريقية ، ودرس فكرة الوصول إلى تمبكت عن طريق السنغال ، ولقد لقيت هذه الخطة إعجاب وموافقة لويس الرابع عشر والتى نفذها فيدهرب بعد ذلك بأربعين عامًا ، وواصل الفكرة بورجنيس دسبوردس Borgnis Desbordes وأرشينارد Archinard وأخيراً اكتملت فى الأيام الأخيرة من عام ١٨٩٤ ، وسوف نشهد فيما بعد كيف استولى الكابتن بيوتو Boiteux على تمبكت باسم فرنسا وكيف رفع بحارته العلم بألوانه الثلاثة على المدينة لأول مرة . والآن يمكن أن نقول : إنه

كان مكتوباً إن أول أوروبى يرى تمبكت كان أيضًا فرنسيًا وبحارًا يدعى بول إمبرت Imbert الذى ولد على رمال أولون Olonne ، وأضيف وأقول إن رحلته هناك كانت إجبارية وليست حسب اختياره ، فلقد تحطمت سفينته على ساحل مراكش وقبض العرب عليه وباعوه كعبد لأحد البرتغاليين الخونة ، ليعمل فى خدمة السلطان ، وأرسله سيده مع حملة الحكومة المراكشية وذهب الرحالة العجوز معهم إلى تمبكت عام ١٦٧٠ وحاول بول إمبرت إرسال أخبار عن حظه السيىء إلى أوروبا لكنه مات فى الأسر قبل أن يُطلق سراحه.

أما الاسم الثالث الذى ارتبط بتمبكت فهو الرحالة منجو بارك Mungo Park الذى بدأ من جامبيا ونجح فى الوصول إلى النيجر عند مدينة سيجو ، وكان أول أوروبى يرى النهر العظيم فى أفريقيا الغربية فى عام ١٧٩٥ ، ونشر تقريراً جذاباً وشيقًا عن النيجر والذى ضاعف قيمته بتلك المعلومات القيمة ، ويعد كتابه نقطة تحول للعديد من الحملات الكشفية لهذا الجزء من أفريقيا فى أوائل القرن العشرين ولا يزال حتى الآن جديراً بالقراءة ، وظهر السودان فى تلك الفترة عادياً ، ويعد هذا عملاً متكاملاً وشيقًا(٢٤).

لقد جذب النهر العظيم اهتمام منجو بارك مثلما شد اهتمامى أنا أيضًا ، وحاولت تقديم وصف له ، وبسرعة عاد إليه بقصد التحرك مع النهر حتى مصبه فى عام ١٨٠٥ وكان بصحبته أربعون أوروبيًا منهم خمسة وثلاثون من الجنود البريطانيين وأربعة نجارين وفنان يدعى

سكوت Scott ، ولقد انخفض هذا العدد بسبب الحمى عندما وصل إلى النيجر عند مدينة باماكو ، ووجدت تذكاراً واضحاً لمنجو بارك أسفل هذه المدينة. ولقد زودوه بالكثير من السلع والبضائع ونال كرمهم وعطفهم ، وكان الناس أكثر تعاملاً معه وترك ذكريات جميلة عندهم ، ومن لم يتحدثوا عنه باسمه الحقيقى الذى لا يعنى شيئًا بالنسبة لهم – وكان من الصعب تذكره ، ولكنه مثل كل الأوروبيين الأوائل الذين غامروا فى هذه الأجزاء فقد أطلقوا عليه اسم بنسيبا تجوى أى الرجل صاحب اللحية الكبيرة .

ويتحدث الناس عنه كثيراً فى المدينة سامبا مار كالا Sam-ba Marcalla وهى مدينة صغيرة شيدت تحت أشجار كبيرة ولطيفة على الشاطئ الأيسر للنيجر مابين نيامينا وسيجو . ولقد قضى عدة أيام هناك ، وقد أغراه الاستقبال الحار والظل الظليل فى تلك الحياة الهادئة وسط أناس أحسنوا معاملته ، وقد أهدى بارك المسجد فازة صينية لكى يزين بها قمة المئذنة اعترافًا منه بكرم ضيافتهم ، وظل هذا الأثر وتلك التحفة حتى عام ١٨٨٨ .

وفى أحد الأيام وعندما هبط رجال القوارب المسلحة فى مدينة سامباماركالا Samba Marcalla بقيادة هورست Hours ودافوت Davout قاموا بإغراء الأهالى باستبدال الفازة بواحدة أخرى ، وتم إحضار فازة الرحالة إلى فرنسا حيث وضعت فى وزارة المستعمرات .

وعندما عرف الرحالة أن أحد رفاقهم وهو الرجل ذو اللحية الكثيفة قد مات فى سامباماركالا قاموا بتحديد مكان مقبرة الرجل البريطانى وصنعوا صليبًا من الحديد الصلب لتحديد مكان دفن هذا الرجل المجهول وقد حملت اللافتة الكلمات التالية:

تخليداً لذكرى

أحد رفاق الرحالة منجوبارك

الذى دفن فى هذا المكان

من أسطول النيجر - نوفمبر ١٨٨٨

وحسب الروايات التى نقلت إلى أهالى مدينة سامباماركالا انخفض عدد رفاق منجوبارك فى هذا الوقت إلى سبعة رجال ، ولما لم يسمح للرحالة بدخول سيجو - فإنه ذهب مباشرةً إلى ساساندنج حيث استضافه كونتا مامادى Kounta Mamadi أغنى تجار المدينة ، وقد وجد الرئيس الحالى، والذى أخبرنى أن بارك كان محبوباً من كل السكان ، وكان يبيع لهم السلع ويقدم الهدايا البسيطة للأطفال ، وأنه حصل على منشار من مضيفه لا تزال الأسرة تحتفظ به .

ولقد أبحر منجو بارك فى النيجر عند سانساندنج فى قارب كبير كان قد شيده بنفسه بعد أن أنهى رحلته براً إلى هناك ، ومن هذا المكان

ونظراً لجهله بالعديد من الطرق الممكنة والتى توصله إلى تمبكت لم أستطع تتبع طريقه ، وتحدث عنه أهالى كابارا – لكنه لم يتمكن من الوصول إلى هذا الميناء بسبب العداوة مع الطوارق الذين هاجموه فى كوريوما Koriouma :

وعلى هذا اضطر منجوبارك إلى أن يعود بعيداً عن تمبكت ، ولقد وجد هنرى بارث آثاراً له فى مدينة بامباو بوروم وجاو ، وصار وجود الرجل الأبيض ولحيته الكبيرة وقاربه الضخم أسطورة على شواطئ النيجر الشرقى ، كما أن نهاية الرحالة والمستكشف الجرىء معروفة ، حيث تحطم قاربه على الصخور عند شلالات بوصا التى تبعد مسافة قصيرة نسبياً من مصب النيجر ، وغرق الرحالة الإسكتلندى الشجاع ورفاقه الأربعة أو الخمسة الباقون .

وتدل المبالغ المعقولة وعدد الجنود الذين وضعوا تحت تصرف منجوبارك كم كانت النيجر تحظى باهتمام بريطانيا فى ذلك الوقت ، حيث بُذلت جهود متكررة لاختراق أفريقيا الغربية مابين أعوام ١٨١٠ و ١٨٢٥ ، وكانت أهمها تلك الرحلة التى قادها الميجور ليانج إيد كامب إلى حاكم سيراليون ، ونجح هذا فى الوصول إلى فالابا Falaba ، وكان هو الآخر إسكتلندياً وكان قوى البنية ولديه معلومات كافية مثل بقية رفاقه ، وكانت إنجلترا تنظر إليه باعتباره منجوبارك الثانى وقدمت إليه حكومته موارد ضخمة ، وحددت مهمته الوصول إلى تمبكت فى عام ١٨٢٥ .

وكانت رحلته الأولى قد جعلته على معرفة كاملة بالدول الزنجية ، ولذا فقد فضل أن يشق الطريق الشمالى فى رحلته الثانية وعبر البلدان البربرية والعربية وابتدأ الرحلة من طرابلس ومر عبر غدامس وتوات وولاتا ووهران Arawan حيث هاجمه الطوارق فى الصحراء ، وبعد أن حصل الطوارق على فدية منه تركوه دون أذى . ووصل إلى تمبكت فى أغسطس ١٨٢٨ . ولقد جمعت معلومات وتفاصيل جديدة عن إقامته هناك وعن وفاته . ورغم وجود روايات مختلفة عن التقارير الشائعة عمومًا ، فإننى لم أتردد فى البحث عنها لأنها وردت من مصدر ممتاز ، وقد نقلها لى أكثر رجال تمبكت علمًا وهو الإمام أو الرئيس الدينى للمدينة ، بل وهو الإمام للمسجد الكبير فى جنجاربور وهو رجل مسن جار عليه الزمن وصار كفيفًا لكنه قوى الذاكرة وعلى دراية كاملة بكل التفاصيل وأحداث المدينة ، وكان قد حصل على معلوماته من عمه ألفا سعيدو الذى شغل منصب القاضى الأعظم لتمبكت فى زمن إقامة الرحالة الإسكتلندى ، وصار فى وضع نثق فى معلوماته .

لقد عرف ليانج باسم الريس وهو اسم أعطى له بسبب رتبته العسكرية كصاغٍ ، وقدم نفسه على أنه مبعوث الحكومة البريطانية إلى رئيس المدينة عثمان القاضى ابن القاضى أبو بكر ، وحسب التقاليد المرعية قدم له الأخير أحد منازله ليسكن فيه ، ويرجع الفضل فى هذا إلى الإمام الذى كان عمه سعيدو يقطن فيه ، وشاهدته أنا بنفسى ، وصار البيت ملكًا حسب العرف لرئيس المدينة .

ويقع المنزل فى حى صغير بالقرب من السوق الكبير ومسجد جنجاربور وتحيط به منازل بسيطة وأكواخ من القش ، وعلى أحد جوانب الحى توجد مقبرة بعض رجال الدين أو الأولياء ، وكان المنزل من طابق واحد مرتفع .

وحجمه معقول لكنى وجدته فى حالة من الدمار التام حيث تدمرت الواجهة والدور الأول وبقيت الحوائط فقط والتى تحتاج إلى إعادة بناء وكان المبنى المربع محاطًا بقوالب من الطوب المجفف فى الشمس ، وصل ليانج مع بعض أمتعته ، واستطاع تقديم الهدايا العادية إلى رئيس المدينة ، وشرح له أن حكومته أرسلته لكى يشهد التجارة والحياة فى المدينة ، وأفاد أن الشعب الأبيض يرغب فى التعرف على الشعوب التى لا يعرفها ، وإقامة علاقات طيبة معها تعود بالنفع لكل من الجانبين ، وكانت هذه المهمة قد حددت له من قبل . وفى اليوم التالى بعد وصوله ، ارتاد المدينة ليسجل ملاحظاته ويرسم خططًا كبيرة على الورق وكان يسأل بعض الأسئلة .

ودخل رئيس المدينة فى حوار معه وزاره من حينٍ لآخر - لكن الأهالى ظلوا متحفظين فى علاقتهم معه ولم يقتربوا منه كثيرًا وقد أثارت أسئلته الكثير من الشك والريبة ، ويبدو أنه لم ينجح فى اكتساب ثقة الناس ، وشرح المهام التى سيقوم بها لهم ، وقد أخبرنى الإمام العجوز

إنه لم يستطع أن يكسب ثقة الناس ، ولم يحاول التحدث معهم ولو فعل ذلك ربما نال صداقة الكثيرين فى المدينة ، وكانوا قد حذروه من كل ما يدبر ضده من مؤامرات ، والآن يعرف كل واحد أنك لست جنديًا ولا تاجرًا ويعرف الكل أنك تريد أن تسمع وأن ترى كل شىء ، وأن تقرأ كتبنا ولا تقوم بتدميرها والعبث بها .

وإنك ستحكى للشعب الأبيض تاريخ السود ، وبالتالى يحضر كل شخص لك ، خاصةً أن منزلك بعيد عن القلعة وأنك تعيش وحيدًا مع خادمك .

وإذا تآمر أحد عليك ، فمن المؤكد أن أحد الذين يعرفونك سوف يحذرك . وكان الناس يخشون من ليانج ومذكراته وتساؤلاته ، وكان الاسم المستعار له – وهو الريس – يزيد من شكوكهم ومخاوفهم . ولم يقترف الرجل المسكين شيئًا يسىء إليهم أو يزعج السكان ، ولم يقدم أحد يومًا شكوى منه ، لكن اتفق الجميع على أنه جاسوس ، وهذا ما أثار كل السكان ، وكان هذا هو السبب الحقيقى لموته ، وليس لأنه رجل مسيحى .

وقبل رحيله بعدة أيام ، صمم ليانج على زيارة كابارا وأصر على الرحيل إلى هناك بعد منتصف الليل رغم تحذيرات مضيفه بوعورة وخطورة الطريق – لكن كان هذا هو قراره الأخير واعتقد السكان أنه دون شك جاسوس وتحمس الأهالى وخطط رجال المدينة البارزين لقتل

هذا الرجل الغريب ، واتهم مضيفه رئيس المدينة أنه هو الذى قبض عليه، وعندما طلب ليانج منه إرسال مرشد له أرسل عثمان القاضى إلى زعيم البرابيش Bira - bich وهى إحدى القبائل المقيمة فى المناطق حول هذا الغريب – طلب منه أن يتخلص من هذا الأوروبى ومن كل بضاعته وجسده .

واتفق كل الشهود على هذه الواقعة ، ولم يقتل البرابيش ليانج حسب هواهم لا لأنه مسيحى ولكن بناءً على الطلب الرسمى من رئيس مدينة تمبكت . هذه هى الأخبار الصحيحة عن مقتل هذا الرجل ، والناس مضطرون لإخفاء الحقيقة وهذا فقط من أجل صالح السكان ، حتى يضعوا مسئولية القتل على أكتاف قبيلة البرابيش ، وينفون تهمة القتل عن أنفسهم .

ولم يجد محمد هابيدا صعوبة فى قبول الدور الذى يؤيد قبيلته فى النهب والسلب ، وغادر ليانج تمبكت تحت إشرافه ، ولمدة يومين سافر الرجلان سويًا حتى القيروان ، وتم قتل الرجل المسكين فى اليوم الثالث عند طلوع الفجر .

ولا تزال الزيارة والظروف المحيطة برحلة ليانج ماثلة بوضوح فى أذهان السكان ، وأعتقد أن حادث الرجل الإنجليزى جعل سلطان مراكش يقوم بتحقيق فى تمبكت حول وفاته . وفى ذلك الوقت لم تهتم السلطات بمواصلة بحث المسئولية حول هذا الحدث ، وألقوا بالمسئولية

الكاملة على قبيلة البرابيش . وهكذا يمكن قبول الرأى بأن ليانج صار ضحية التعصب فى الصحراء .

لقد أعلنت إحدى رسائله الأخيرة أنه قد جمع العديد من المخطوطات حول تمبكت وبالطبع شغلت هذه المخطوطات وقت وفكر العلماء والمستكشفين إلى درجة كبيرة ، وقام رينيه كاليه **Rene Caillie** بدراسة مكثفة حولها وأشار إلى أنها موزعة بين سكان الصحراء[٢٥] ، وكان هنرى بارث قد أثار السؤال قبله بخمسة وعشرين عامًا ، وأخبروه أنه لا يوجد أى منها . وعلى العكس من ذلك يعتقد لنز **Lenz** أن الأوراق لا تزال محفوظة فى وهران **Arawan** .

ومنذ أن استقر الفرنسيون فى تمبكت بذلت السلطات العسكرية جهودًا مكثفة للكشف عن مصير هذه الخطابات من المبعوثين الذين أرسلهم رئيس البرابيش .

ويقال إن المترجم العربى جوس **Josse** يحتفظ بجزء منها ، ولكن دون جدوى ، بل وأصر البرابيش على أنه لم يبق شىء من هذه الوثائق فى حوزتهم ، ومن جانبى فقد قمت بالتعرف على أحد رجال قبائل الموسى الذى قدم لى بعض الخدمات البسيطة ، وذات مساء أرسلت إليه، وفى جو يحيطه السرية عرضت عليه مبلغًا كبيراً من المال إذا عثر على أوراق الريس وأحضرها لى ، وأكدت له أنه لن يعرف أحد فى المدينة سواء أكان أوروبيًا أم من الأهالى عن هذا الموضوع ، ورغم كل

دبلوماسيتى لم أستطع كالآخرين الحصول على أى شىء ، وبعد فترة أكد لى أن الأسرة لا تمتلك أى شىء بخصوص هذا الرحالة ومع ذلك فإننى نتيجة عدم الثقة الكاملة فى هذه الشعوب ، ولمعرفتى أيضًا بأهمية وقيمة المادة العلمية المكتوبة ، فلم أفقد الأمل فى الوصول إلى شىء منها .

وإذا كان الرحالة الأول الذى وصل تمبكت هو إنجليزى - فإن أول رحالة يعود منها سالمًا كان فرنسيًا هو رينيه كاليه وكانت الجمعية الجغرافية فى باريس قد رصدت جائزة كبرى قيمتها عشرة آلاف فرنك لأول زائر من تمبكت ، وبالتالى بدأ الاهتمام الأوروبى بالمدينة .

دع الأمور تسير حسب مشئية الله سبحانه وتعالى ، فلقد رحل منجو بارك وليانج بعد أن حصلا على مبالغ وفيرة ووسط دعوات وبركات بنى بلدتهما ومعهما بضاعتهما - ولكنهما فشلا فى تحقيق مهمتهما وأخيراً نجح رينيه كاليه الذى ولد فى عام ١٨٠٠ فى موزيه **Mauze** من أبوين فقيرين ، ومن سوء حظه كما يقول : إنهما توفيا فى طفولتى ، وزاولت حرفة التجارة فترة قصيرة ، ولقد استعرت الأعمال الجغرافية والخرائط عن أفريقيا حيث شاهدت صحارى وأماكن مجهولة كثيرة ، وهذا ما أثار اهتمامى ، وأخيراً صار الاهتمام عاطفة ضحيت من أجلها بكل شىء وتحرك رينيه كاليه إلى السنغال وهو فى سن السادسة عشرة ومعه فقط ستون فرنكًا فى جيبه ، واختار أحد القاربين المتجهين إلى هذا الميناء ، وكان سعيد الحظ فى اختيار القارب الذى

وصل سالمًا ، أما القارب الآخر ويسمى مورسا Medusa فقد تعرض للدمار .

ونزل كاليه فى سانت لويس فى عام ١٨١٦ ولم يكن هناك أى حديث سوى رحلات الإنجليز إلى الداخل ، وبذل محاولة للانضمام إلى إحداها ، لكن أحد الضباط الفرنسيين أضعف عزيمته وأرسله إلى جوديلوب Gaudelouepe – حيث حصل على وظيفة بسيطة فى بونت ابتر لمدة ستة أشهر وقد وقعت فى بداية قصص وروايات منجو بارك .

فعاد إلى السنغال فى نهاية هذه الفترة أكثر اهتمامًا وانشغالاً بالقارة الأفريقية من ذى قبل .

ويقودنا هذا إلى عام ١٨١٨ والإنجليز يبذلون جهوداً كبيرة للوصول إلى داخل القارة ، وكانت رحلات الميجور جرى Grey وبيدى ، وكامبل، وانضم رينيه إلى إحداها دون موعد أو وظيفة من أى نوع ، وكان سعيداً بهذه البداية . وكان كل الأوروبيين يمتطون الحيوانات فى رحلاتهم ، أما هو فكان يسير على الأقدام .

وحيث إنه لم ينعم بالراحة التى يتمتعون بها ، فقد واجه الآلام والمشاق والمرض ، وكان عليه عند عودته إلى فرنسا أن يُعيد حساباته ويسترد صحته .

ومع ذلك فإن هذه المشاق لم تثنيه عن عزمه ، وعاد إلى السنغال مرة ثانية فى قارب صغير فى عام ١٨٢٤ ، ودخل فى مجال التجارة عند

وصوله وربحت تجارته ، لكن لم يكن هذا هو هدفه الأساسى من القدوم، إنه لا يريد جمع المال أو تكوين ثروة كما يقول هو نفسه : "إن تمبكت أصبحت الهدف الوحيد لأفكارى بل وهدف كل جهودى ، ولقد عزمت النية على الوصول إليها أو أن أموت من أجلها" .

لم يهمل رينيه كاليه شيئًا لتحقيق هذا المشروع ، وعندما أدرك أن معرفة اللغة العربية والدين الإسلامى شىء ضرورى ، فقد بدأ محاولة مستميتة فى هذا المجال ، وترك عمله ولبس الزى المغربى وذهب إلى قبيلة الباراكنا المغربية وطلب أن يعيش معهم وأن يعتنق الدين الإسلامى، وواجه معاملة قاسية ومضايقات كثيرة – لكنه تعلم الحديث بالعربية ، وكتابتها أيضًا ، وبدأ يعرف أسرار وأسس القرآن الكريم والصلوات الإسلامية . وعاد مرة ثانية إلى سانت لويس ليبحث عن الوسائل التى تساعده على تنفيذ مخططه فى الوصول إلى تمبكت وسافر عبر القارة الأفريقية إلى مصر متخفيًا فى زى تاجر وأحد الحجاج إلى مكة .

وهنا بدأت المشاق الأساسية ، فبدلاً من أن يجد التشجيع لتحقيق هدفه وتهنئته على هذا العمل – لقى سخرية عنيفة فى مدينة سانت لويس، وبدلاً من إعطائه ستة آلاف فرنك كان قد طلبها لشراء السلع الضرورية – سمح له حاكم السنغال براتب الجندى الذى لا يكاد يسد رمقه ، وأوجد له وظيفة بمرتب شهرى خمسين فرنكًا فى الشهر ، وكان تعليقه الوحيد : "إن التعب والإرهاق عندما يتحمله الإنسان ربما يحقق له

شيئًا أفضل" وعندما وصل حاكم جديد ويدعى بارون روجر Baron Roger إلى السنغال - تجددت آمال رينيه كاليه ، وللمرة الثانية شرح له فترة إقامته مع المغاربة وشرح له كل خططه ، وهكذا حكى له قصته ، وقال له : "لقد رفض السيد روجر مشروعى ورفض إعطائى أية مساعدات مادية ، وكانت هذه مثل الصاعقة لأى واحد - لكن كان لها تأثيرها العميق فى التمسك بمشروعى ، وكانت عندى الشجاعة أن أعود إلى المسئول عن المهمة الذى وعد بإعطائى مبلغًا معقولاً عند عودتى من تمبكت ، وإذا مت فى الطريق وهذه الفكرة مخيفة لأى رجل مثلى يترك أخته المحبوبة دون أى مصادر مالية أو مساعدات- لكننى صممت على المضى ورفضت الخضوع لأى معوقات ، وقررت أنه إذا حدث ذلك فإننى على الأقل أترك صديق طفولتى وهى فضيلة أننى فعلت كل شىء بنفسى" .

وبينما كانت فرنسا تصرف ستة آلاف فرنك - كانت إنجلترا تنفق ثمانية عشر مليونا من الفرنكات فى محاولة اختراق الساحل الغربى من أفريقيا . وعاد كاليه إلى المستعمرة البريطانية فى سيراليون ، وأثار اهتمام الحاكم الإنجليزى الجنرال تشالرز تيرنر Turner وحصل على وظيفة مدير لمصنع النيلة بمرتب قدره ٣,٦٠٠ فرنك (ثلاثة آلاف وستمائة فرنك) وبالتالى يكون قد حصل على الستة آلاف فرنك اللازمة لرحلته - لكن الحاكم عارض من وجهة النظر البريطانية القيام بهذه الرحلة حالياً لأن الميجور ليانج كان فى طريقة إلى تمبكت ، وأنه لن يساعد فى حرمانه من شرف أن يكون أول من يصل إلى هناك .

ومع ذلك نجح فى توفير ألفى فرنك ولم يتأثر بهذا الرفض ، وبعد أن واصل ارتداء الزى المغربى حول مدخراته إلى سلع وبضاعة وبدأ رحلته فى عام ١٨٢٧ . وكانت حمولته من السلع الصغيرة التى لا توحى بأنه تاجر كما كان ينوى فى البداية ، واخترع حيلة جديدة ، وقال لكل من يقابله إنه ولد فى مصر وأنه تم أخذه وهو طفل ليعمل فى الجيش الفرنسى ، فإن سيده أخذه معه إلى السنغال لمساعدته فى أعماله التجارية وكان سعيداً من خدماته لدرجة أنه منحه ، كما ذكر – حريته ، وقال : لقد أصبحت حرًا فقررت الذهاب إلى مصر للبحث عن آبائى ، وأواصل الدخول فى الإسلام ، ويرجع الفضل فى معرفتى اللغة العربية والصلوات حسب الدين الإسلامى .

وأصبحت الرحلة سهلة وميسرة ، ودخل تمبكت فى العشرين من أبريل عام ١٨٢٨ بعد أن مر على فوتاجالون ووصل إلى النيجر عند مدينة كانكان وعبر مملكة البمبارا فى سيجو وتوقف عند جنى أثناء الرحلة .

وحيث إنه كان من الصعوبة بمكان أن أتابع طريقه وباءت كل المحالات لذلك فى جنى بالفشل ، وأعتقد أن الشىء نفسه يحدث فى تمبكت لأن الكثيرين من الرحالة العرب الفقراء يصلون إلى هناك على مدار العام وقد قضى فقط أربعة عشر يومًا فى المدينة ومع ذلك فإن اسم

مضيفه ويدعى سيدى عبد الله كبير وهو من أهم التجار فى زمانه مازال معروفًا هناك وقد توفيت إحدى زوجاته منذ فترة قليلة ، كما توفى ابنه قبل وصولى بقليل . وشاهدت المنزل الذى كان يسكنه جالينى ، وحكى لى الإمام العجوز بعض الذكريات التى تتعلق بهذا الرحالة .

ونجح الأخير فى سرد ما يدعيه عن تاريخ أصله المصرى وسوء حظه وفترة عبوديته فى فرنسا ، وكرر الإمام لى مع بعض الاختلافات القصة التى ذكرتها سالفًا بخصوص أحد الرحالة الذين سكنوا عند سيدى عبد الله . لقد انبهر التاجر الغنى وهو من أصل عربى بهذه القصة بكونه رجلاً متدينًا طيب القلب وكان عنده حماس الشاب المصرى ، ومن خلال كل هذا سرد سيدى عبد الله قصته وكان يسعد بروايتها لأصدقائه ، ومن خلالها يتحدث عن سماحة الدين الإسلامى ، وتكرر التاريخ نفسه فى تمبكت لدرجة أن القاضى الأكبر ألفا سعيدو سجلها على أنها من أكثر الأحداث الغريبة فى زمانه .

وقد سجل تاريخه تحت إشراف سيدى عبد الله وأضاف إليها أربع صفحات مكتوبة . ورغم أن الإمام المسن قد ورث جزءًا من كتب عمه وأوراقه لكن لم توجد هذه المخطوطة بينها كما أكد لى ، وطلبت منه أن يبحث وسط الأشياء الأخرى التى ورثها عن القاضى - لكنه أفاد أن كل الأوراق قد ضاعت فى حريق وقع أخيرًا - لكن هذه التفسيرات لا أساس لها من الصحة ، وسوف يأتى اليوم الذى يكون هناك شخص أسعد منى فى الوصول إليها ، فالتاريخ صار مؤثرًا على المسيحيين .

ويقع المنزل الذى أشاروا إليه بأنه كان مسكن المصرى بالقرب من السوق وفى الشارع نفسه الذى كان ليانج يقطن فيه . وكان مسكنه أفضل من مسكن ليانج ولا تزال بعض آثاره موجودة خاصةً الداخل ، فهو بيت واسع يشير ببساطة إلى الرجل الرحالة الفقير - لكنه اشتهر بهذا الكرم العظيم ، ولم يقطن سيدى عبد الله فى هذا المنزل لكن استخدمه كمخزن للبضاعة والآن يشغله أحد التجار البارزين فى تمبكت ، وقد حوله هو الآخر إلى متجر . وعلى هذا شاهدت المسكن بالمنظر نفسه الذى عاش فيه رينيه كاليه وسواء أكانت التضحية التى قدمتها الحكومة البريطانية من أجل ليانج أم بسبب الثقة العظيمة من الجمهور فى هذا الضابط البارع - فأنا لا أعرف شيئًا لكن الإنجليز عبروا عن احتقارهم الكبير لنجاح رينيه ، وكان هذا الاحتقار ظالمًا وقد شككوا فى رحلاته وكتبه وإقامته فى تمبكت وذكروا أنهم هم الذين قاموا بهذا العمل ، وبعد خمسة وعشرين عامًا ظهرت صحة عبارات وكتابات جالينى وأكد ذلك رحالة ألمانى .

لقد بذلت الحكومة البريطانية محاولة جديدة للوصول إلى السودان فى عام ١٨٥٠ حيث تزود ريتشارد Richardson فى طرابلس بالمعدات نفسها التى حصل عليها منجو بارك وليانج ، وكلف بمهمة الوصول إلى بحيرة تشاد وحسب طلب بروسيا انضم اثنان من الألمان إلى هذا الفريق وكان أحدهما هو الدكتور بارث Barth .

ولقد توفى كل أعضاء البعثة ، وظل بارث وحده على قيد الحياة ليكمل الرحلة ، وبعد أن استكشف حوض بحيرة تشاد واكتشف نهر

بنوى وواصل رحلته إلى بورنو وسوكوتو ومر على ساى Say وعبر وادى النيجر من الجنوب إلى الشمال ووصل إلى تمبكت فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٨٥٣[٢٦] .

وكانت رحلته سهلة بسبب وضعه كسفير لبريطانيا وبسبب الهدايا الثمينة التى استطاع من خلالها استكمال دوره . ومع ذلك كان موقفه فى تمبكت حرجًا للغاية ، فهناك أناس يعيشون فى المدينة ولا يزالون يتذكرون بارث أو نقول عبد الكريم خادم الله كما سمى نفسه ، ولقد جمعت معلومات كثيرة منهم .

لقد اعتمد الرحالة فى إقامته فى تمبكت على شيخ يُدعى البكائى الذى وصلته شهرته وكرمه والذى هو نفسه بالغ فيها فى أوروبا . وينتمى البكائى إلى قبيلة الكونتا وكانت هذه القبائل البربرية قد اندمجت مع الدم الزنجى منذ قرنين من الزمن ولا يزالون يقيمون فى جنوب تمبكت فى المناطق المجاورة للقيروان Kairwan ، ومن هناك رحلوا إلى الصحراء وانتشروا على طول الطريق من تونس إلى السودان ، واستقروا فى صحراء أدرار وهى منطقة هضبية صخرية فى الشمال الشرقى من تمبكت بالقرب من مدينة مبروك Mubrouk ومنذ ذلك التاريخ اقتربوا من النيجر والآن نجدهم فى الوادى شرق تمبكت وعلى جانبى النهر .

لقد كانت عائلة البكائى من رجال الدين والعلماء وليسوا من المحاربين ولم يصل أى واحد منهم إلى الحكم كما أكد بارث . وكانوا

راضين بمكانتهم كرجال دين وامتدت شهرتهم وعلمهم فى الصحراء لمدة مائة عام ، وأول من يذكره تاريخ تمبكت هو سيدى مختار الكبير ، وهو رجل متصوف طيب القلب وكان قد كتب كتابًا أسماه (التعريفات الكبرى) ، وهو لا يزال فى حوزة الكونتا ، ويعد كتابًا مهمًا لأنه يضم معلومات تاريخية قيمة ، وكان سبب قدومه إلى تمبكت تلك الشهرة التى اشتهرت بها وكانت له علاقات سيئة مع الطوارق ، ثم أنهى سيدى مختار كل هذه الخلافات وحدد الجزية التى تدفع للملثمين ، والشروط الواجب اتباعها مقابل ذلك وقام بدور الوسيط فى أمور أخرى وعمت شهرته الآفاق ، وعند وفاته عام ١٨١١ قال كل شخص لقد كان ورعًا وسخيًا وقد وضعت لافتة صغيرة على قبره ، ويقوم الناس بزيارة ضريحه الذى لا يزال وسط الآثار الموجودة شرق تمبكت .

وحافظ ابنه سيدى محمد على شهرة العائلة ومات فى عام ١٨٦٢ تاركًا عددًا كبيرًا من الأطفال أكبرهم حمل اسم "مختار" الذى لعب دورًا فى مباحثات السلام التى كان قد بدأها جده . وعندما استولى الفولانى على تمبكت طلب منه العامة التدخل والتوسط لدى أحمد شيخو ، ونجح فى إرضاء الطرفين لدرجة أن المدينة وفرت له سكنًا مريحًا ، ورحب به سلطان الفولبى وأغدق عليه الهدايا والعطايا – لكنه ترك " أدرار " نهائيا واستقر فى تمبكت ، وكان السلطان يأخذ رأيه فى القضايا والمشاكل بين المغاربة والطوارق ، بل وكل المشكلات فى المدينة والمناطق البدوية المجاورة تبحث فى مجلسه ، وصار المرجع النهائى فى كل قضايا

المناطق المجاورة ، ولم تكن له وظيفة عامة ، ولم يشغل منصبًا رسميًا ، بل كان مجرد رجل دين يتمتع بكل أوجه الاحترام والتقدير ، يستقبل الهدايا من طلابه المخلصين ، ويلقى المحاضرات الممتازة ويتبع منهجه الطلاب من السودان والصحراء . وكان أيضًا رجلاً واسع المعرفة ، حاضر البديهة ، موهوبًا فى الكتابة وألف تاريخ الطوارق الكونتا وغيرهم من القبائل وأسماه (التعريفة الصغرى) .

وبعد وفاته عام ١٨٤٧ خلفه ابنه أحمد – وهو ابن جارية – فى هذا المنصب العلمى لكن عمه طرده ، وقد أزعج هذا الخلاف بينهما ملك الفولبى ، وحرم هذه العائلة من هذا الشرف العلمى الكبير ، ولم يكن هذا العم الطموح سوى الشيخ أحمد البكائى الذى حاول الاستفادة من ابن عمه .

وقام العم باسترداد شهرة العائلة ، وأخذ ينتقل فى المناطق المجاورة حتى ازداد معرفة وشهرة ، واستقر فى (جوندام) عندما وصل الرحالة بارث إليها فى عام ١٨٥٣ .

لقد أصبح بارث تحت تأثير البكائى الذى شغل بعض المناصب القيادية فى تمبكت ، وكان هذا هو التفسير الوحيد الممكن للرأى الذى تبناه عند وصوله ، وحاجته إلى الحرص والبراعة التى أدت إلى الكثير من المضايقات ، وعلى عكس التقاليد المرعية لم يقم بزيارة رئيس المدينة ولكن اكتفى بالإقامة فى أحد منازل الشيخ وانتظر دوره هناك وغضبت

المدينة لعدم مراعاة أصول الاحترام ونمت العداوة بينه وبين السكان لدرجة أنهم نصحوه بعدم الخروج من منزله . واستمر على هذه الحالة لمدة شهر وكل ما شهده بارث من تمبكت هو منظر المدينة كما شاهده من سطح منزله ، وبدلاً من أن يتحسن الموقف ازداد تعقيداً مع عودة البكائى ، وفى عام ١٨٥٣ كانت تمبكت تشكل - كما عرفت - جزءاً من إمبراطورية الفولانى وأسرعت السلطات المحلية لإرسال رسالة إلى حمد الله مقر إقامة أحمدو تفيد وصول الرحالة .

وكان التحدى عظيمًا ، كيف أن سفيراً يذهب إلى تمبكت بدون تقديم الولاء أو تقديم الهدايا المعتادة ، ولا طلب السماح من الحاكم بدخول إحدى مدنه ولا حتى الإفصاح عن وجوده ؟ لذا أرسل الملك أمراً بإحضار هذا الزائر الغريب وقد توافق وصول هذا الأمر مع قوة عسكرية لتنفيذ عودة الشيخ ، وكان هذا مصدر سعادة بارث . وكان البكائى - الذى كان سعيداً باستقبال السفير بعد أن استعاد الكرامة المفقودة - قد قام بخداع الحكومة التى تجاهلت طموحاته وأخيراً أخذه بارث بشجاعة وتولى حمايته ، وقال : "إن الرجل الغريب فى يدى ويجب أن تقطعوها قبل أن تأخذوه " ، وكان هذا رده للمبعوثين ، وقد انزعجت تمبكت كلها بهذا الحادث وبذلت السلطات جهوداً مضنية ولكن دون جدوى لإثناء البكائى عن رأيه ، وأخيراً تقرر مهاجمة كلا الرجلين البكائى وبارث مع نقل الأخير بالقوة ، وترك الرجلان المدينة واتجها إلى معسكر فى المناطق المجاورة واضطر البكائى إلى طلب ألد أعدائه فى

المدينة لمساعدته ، ويرجع الفضل إلى الطوارق فى هروب بارث وعودته سالمًا إلى أوروبا .

ومنذ يوم وصوله إلى رحيله عاش الرحالة بارث فى تمبكت مثل الأسير حيث تم حجزه فى أحد المنازل مع خدم مضيفه الذين كانوا فى حراسته بصفة مستمرة ، ولم يستطع ارتياد المدينة أو حتى الفسحة لمدة ساعة فى شوارعها ، وكل ما شاهده هناك بعض المارة الذين كانوا يتجولون حول مقره حتى غادر المدينة إلى الصحراء خوفًا من عداوة الناس ، لقد شاهد تمبكت من خلال عيون خدمه والناس الآخرين من الطبقة نفسها ، وعلى هذا فإن هذا الجزء من كتابه يعد مضللاً ورغم طوله وغموضه وخلوه من المعلومات المهمة – فإنه يضم بعض التفاصيل عن قلقه وآماله ومخاوفه على حياته ، وكانت الصفحات القليلة الشيقة مملوءة بالتفاصيل المملة حسب طريقة العلماء الألمان ، وبدلاً من أن يقدم لنا بعض مظاهر المدينة العجيبة (الغامضة) فإنه اعتمد على خدمه ، وانتقل إلى الحديث عن إبله وصحتها .

أما جالينى فقد شاهد واستفسر ولاحظ قدرًا كبيرًا من المعلومات خلال إقامته فى تمبكت لمدة أربعة عشر يومًا ، كما أنه جمع حصيلة غنية جدًا عما جمعه بارث فى طول إقامته لمدة شهر كامل . وإذا ما أجرينا مقارنة بين تقارير الرجلين يلحظ المرء أن تقارير بارث كانت مجرد إسهاب وتضخيم للحقائق التى حصل عليها ممن سبقوه . وبعد كل هذا نندهش عندما نشهد بارث من وجهة نظره كطبيب يعامل رينيه كاليه

على أنه رجل عاجز كليًا .[٢٧] كما أنه يثير السخرية أكثر عندما يدعى أنه لا يوجد رجل مثله استطاع أن يظهر المدينة وسكانها فى أحسن صورة حقيقية ، وكما يقول المثل القديم إنه رجل يملك معرفة عظيمة لكن ذكاءه قليل . لقد أعطانا رينيه كاليه أكثر مما كنا نتوقع من رجل لم يعرف سوى القراءة والكتابة ، رجل مسكين فقير ، فضلاً عن إصابته بمرض الأسقربوط - بينما على العكس لم يستطع بارث أن ينفذ الوعد الذى أدى إلى شهرته العظيمة .

ومع ذلك فإن له عذره لأن الظروف حرمته من رؤية المدينة بشكل أفضل ، كما أنه حرم من الحصول على أى معلومات من سكانها .

لقد كان الرأى العام ضده ، وكان البكائى فى ثورة ضد السلطات وملك الفولبى وكان هو وضيفه يتحاشان لقاء الناس . لقد عاش بارث فى مجتمع يضم غريبا وأخوته ، ورؤساء الطوارق والفولبي والبرابيش وغيرهم من شعوب الصحراء الذين كانوا هم أيضًا غرباء عن المدينة ، وكل هذا يفسر عدم قدرة بارث على الحصول على أية معلومات أو أى أعمال أدبية فى المدينة ، وظل جهل المؤلف الحقيقى لكتاب (التاريخ) فى المدينة ، وقد اكتفى فقط ببعض الأوراق التى كان تم نسخها من نسخة فى جاندو Gando والتى ألف منها فصله التاريخى وهو الجزء الوحيد الجديد فى كتابه ، ولهذا فإنه أساء كثيراً إلى تاريخ سنغى ومعها تمبكت، وبهذا صار تاريخ السودان مشوشًا وناقصًا ومملاً .

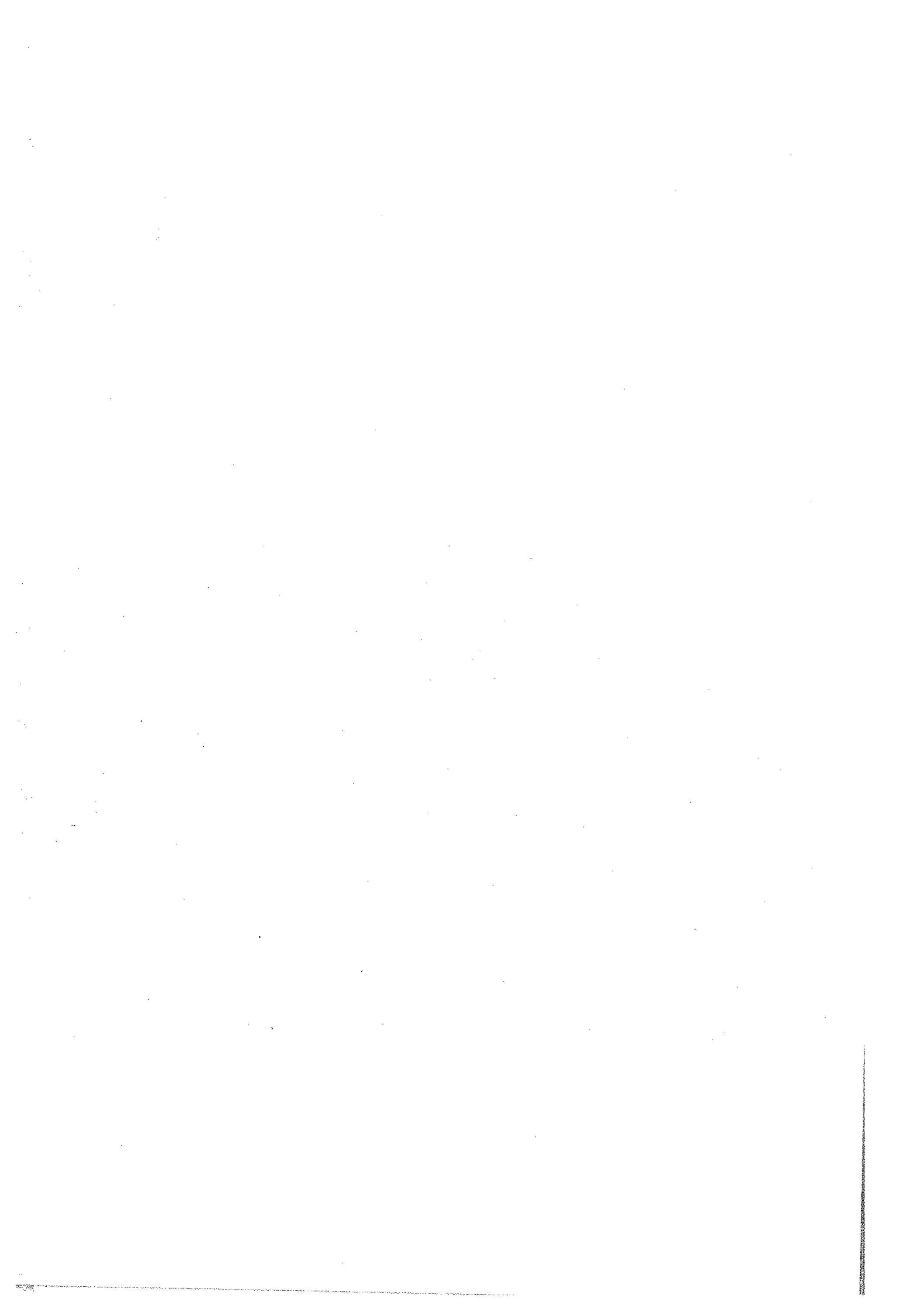
ومن حقنا أن نتوقع شيئا أفضل من هذا العالم الذى كان أفضل من رجل درس فقط فى المدرسة الابتدائية .

ولقد شاهدنا منزل البكائى وقد تحول إلى مجرد كومة من الخراب ، ولكن ليس هذا هو المهم فى الأمر ، إنه هو الذى قدم الكرم والحفاوة للرحالة بارث ، ومازال هذا المسكن كما وصفه الرحالة ونأمل فى أن نحافظ عليه كما رآه رينيه كاليه .

إن تمبكت لا تضم أثاراً كثيرة كما فهم الأوروبيون ، وليس هناك ما يدعو للبحث عن الآثار التى ذكرها بارث، وكان عدم دقته سبباً فى عدم قبول ما كتبه بشكل مناسب طوال حياته ولكن يتذكر الأوروبيون فى تمبكت فضله فى أنه أول رجل يتبع مجرى النيجر الشرقى إلى ساى Say ويكشف المناطق الجغرافية الواسعة فى المناطق المجاورة لبحيرة تشاد .

لقد كان سفيراً لإنجلترا . وعندما عاد إلى أوروبا وضع أمام الإنجليز مشروعاً للتوغل فى اتجاه تمبكت ، وهو مخطط قائم على أفكار مبالغ فيها عن سلطة البكائى . إن الطريق الأقصر ذلك الطريق عبر الجزائر والسنغال فى أيدى فرنسا ، ولذا فإنه ادعى الوصول إلى المدينة عن طريق النيجر والتى تبدأ من مصبه ، ووضع تأكيداً كبيراً لدعم البكائى للمشروع البريطانى ، وهو رأى قبلته الحكومة بسرعة لأن فرنسا كانت تتقدم من جنوب الجزائر ، وكان هذا مثار القلق الكبير لإنجلترا .

لقد مكنا الاستيلاء على تمبكت من الحصول على وثائق عربية .
إنها لم تنشر بعد ، ونحن نقدمها كاملة لأنها توضح خطط البريطانيين
وطريقهم دون الحاجة إلى أى تعليق .



الخطاب الأول

خطاب من اللورد كلارندون إلى الشيخ البكائى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين - من جانب كلارندون وزير مملكة وحكومة إنجلترا إلى الشيخ المحترم وعالم العلماء المثقف الذى يشع بنور علمه وذكائه سيدى أحمد البكائى بن السيد محمد سيدى مختار الكنتى الذى نكن له كل الاحترام والشكر ونعبر عن تقديرنا له بارك الله فيه .

التحية والسلام عليكم .

بارك الله فيكم وسدد خطاكم .

وأحيط سيادتكم علمًا بأن ملكة إنجلترا قد سمعت عن تقدير الدكتور بارث المدعو عبد الكريم بن العرب والذى زاركم بناءً على طلبها ليجدد الصداقة والعلاقات الموجودة بينك وبيننا . ولكى نقدم سيادتكم لها . لقد أفادنا بارث بالنية الطيبة التى قابلته بها والتى لا يمكن أن ننساها ، ولقد دافعت عنه وحميته من الكفرة الذين لم يستطيعوا أن يميزوا

بين الخير والشر . الله يكافئك على كل معروف قدمته ، لقد أحاطنا علماً بقوتك وشجاعتك ونحن نشعر بذلك ونقدره .

إن الخطابات التى أرسلتها وصلتنا ، وقرأنا وفهمنا ما فيها وإنه لسرور عظيم لنا . ولقد فهمت آمال ونيات حكومة بريطانيا نحوك . إن ما نريده هو أن تفتح عيون العرب فى الجنوب لإقامة تجارة بيننا ونحن نقدر ذلك تماماً ، ونقدر نظرتك لمهمتنا بكل سرور ونقبل هذه الصداقة بكل سرور .

لقد أقسمنا لك أن الصداقة التى تربطنا لن تزول مع القرون ، وأن كل ما يطلبه العرب سوف نلبيه دون زيادة أو نقصان . وسوف نساعدهم فى كل ما لا يقدرون القيام به ، ونظراً لأن حكومتنا قوية فسوف نحمى شعبك إذا استعانوا بنا ، فضلاً عن سلطاتك التى حباكم الله بها والتى سوف تزيد من صداقتنا .

لقد كانت الملكة مسرورة عندما علمت بالفوائد التى أرسلتها مع عبد الكريم الذى استطاع العودة بسلام بسبب استقبالك وإكرامك الذى شملته بهما ، وإنها ترسل إليك هدايا ومنتجات صُنعت فى إنجلترا .

ولقد جمعنا هذه الهدايا ووضعناها فى صناديق وأرسلناها إلى القنصل العام فى طرابلس والذى سيقوم بدوره بإرسالها إليكم ، وندعو الله أن تصل آمنة وفى أحسن حالة ، وأن تنال رضاك وسرورك .

ونحن نطلب منك أن تخبر رئيس الأوليدنز Aoule - midens ورئيس التادمكا أن الملكة (ملكة إنجلترا) تلقت الخطاب المرسل منكم عن طريق عبد الكريم ، ولقد سررنا بهذا كثيرًا . ونرجوك أن تبلغ هؤلاء الرؤساء تحياتها وأنها أرسلت سيفًا ودروعًا لكل واحد منهم وسوف تدرك قيمة هذه الأشياء . وأنهى هذا الخطاب ونقول لك إن فرحتنا كبيرة ونتمنى أن نشهد أحد أبناء شعبك ، وفوق كل شئ أحد أبنائك الذى يشرفنا زيارته ، ونريد أن نطلعه على قوتنا ومصانعنا وأشياء أخرى كثيرة .

أطال الله عمرك ، ويحفظكم الله مادمت حيًا

صديقك المخلص

كلارندون

وزير الحكومة البريطانية

لندن فى الخامس عشر من أبريل ١٨٥٩

الخطاب الثانى

خطاب من القنصل البريطانى فى طرابلس إلى الشيخ البكائى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

إلى صديقنا العزيز السيد المبجل المحترم العالم سيدى أحمد البكائى تحية وسلام إليكم .

إننا نجد فى هذه الرسالة رسالة أخرى رسمية من الوزير كلارندون مع ترجمة باللغة العربية ، لقد كتبت رداً على الخطاب الذى سلمته .

وعندما تقرأ هذا الخطاب سوف تعرف أن حكومة جلالة ملكة بريطانيا قد أرسلت سفينة إلى أعالى النهر ، وطلبت من كل الذين على متنها بذل كل الجهود فى الوصول إليك ونرجو أن ترعاهم ، إننا نود أن نرتبط معكم بصداقة قوية بين شعبينا وأن يعرفنا كل سكان تمبكت التى تقيم فيها ، وندعو الله أن يساعدنا فى هذه المهمة لأن هذا سوف يؤدى إلى المصلحة العامة لوطننا وبلادكم ، إن ابن أختك سيدى محمد

وحاشيته فى صحة وأحسن حال ، أنه معى فى هذه اللحظة ينتظر الهدايا التى ترسلها الحكومة إليكم والخطابات التى توضح الصداقة القائمة بيننا وبينكم .

لقد أعطيت حكومتنا لسيدى محمد حرية الاختيار بين عدة أمور . وسوف ترسل قاربًا ليقله إليكم ، أو سوف يبقونه هنا ويرسلونه إليك ، أو أن يبقى معى حتى نهاية الشتاء وبداية الربيع حيث تقله سفينة إلى إنجلترا . ولقد قرر سيدى محمد العودة من هنا ، وهذا هو ما فضلته حكومتى خوفًا على صحته من البرد القارس عندنا .

التوقيع

لم يصل هذا القارب إلى تمبكت ولم يزر البكائى إنجلترا ومصانعها وكانت فرصة اللورد كلارندون قصيرة الأجل ولم تصل آماله إلى شىء .

وبعد رحيل بارث لم يجد مضيفه فرصته لإعطاء خططه ماكان مرجوا منها من حيث الشكل والاهتمام بنفسه ، وكان الكرم الكبير الذى وجده فى أوروبا عقد وضعه فى تمبكت ، وتعقدت علاقاته مع الفولانى وبدأ الناس يشكون فيه ، وطلب منه الطوارق قدرًا كبيرًا من التحفظ .

ولقد اقتربت الآن أخطر فترة وأحرجها فى تاريخ السودان ، وبدأ غزو التوكولور يمتد من الجنوب نحو الشمال حيث تقدم الحاج عمر

من نصر إلى نصر حتى وصل إلى إمبراطورية الفولبى فى عام ١٨٦٠ ، وحاول أحمدو أن يتجنب الخطر بإبدال رجل دين بآخر حتى يبرر مذابحه وظهر أحمد البكائى من جديد على مسرح الأحداث ، واضطر إلى التدخل كوسيط بين الملكة والرسول الجديد ولكنه تذكر القسوة السابقة لملك الفولبى وأبى المساعدة فى البداية ، ولكنه رغم ذلك أرسل رسالة سلام إلى الحاج عمر وأرفق معها بعض الهدايا ، وعلى وجه السرعة دعا قائد التوكولور الشيخ البكائى إلى تقديم الولاء والطاعة - لكن كان رد البكائى السخرية من هذا الرجل القادم ، وفى الحال انهزم أحمدو ، ودخل التوكولور عاصمته حمد الله ، ودخلت إحدى فرقهم العسكرية تمبكت تحت قيادة الألفا ، ونهبوا المدينة ، ودمروا منزل البكائى ، وبعد برهة قرر الشيخ العودة من الصحراء التى كان قد لجأ إليها وبناءً على تحريضه . دخل الطوارق والكونتا فى نزاع وفاجأت قوات الألفا عمر التى غزت البلاد ودمرتها تمامًا ، وبدعم من الفولبى ثم حصار الحاج عمر فى حمد الله ، وانتهى خطر التوكولور ، وانتشرت الفرقة بين القوات وغادر البكائى تمبكت ليقيم الأمن والسلام ، وقبل أن يصل إلى حمد الله سقط مريضًا فى قرية صغيرة على الشاطئ الأيمن للنيجر تدعى (سرادينا) ومات هناك بعد ذلك بثمانية أيام (١٨٦٤) .

وحاول أفضل أبنائه ويدعى عابدين كما يقول بارث أن يوطد مركز والده فى تمبكت - ولكن دون جدوى لأن الطوارق والسكان لم يقدموا إليه أى دعم وحاول أن يقوم بدور سياسى فى دويلات الدلتا .

وأخيرًا انتكس وتحول إلى قاطع طريق ينهب ويسلب شواطئ النيجر الأبيض والأسود بحجة محاربة الطوارق الذين قتلوه ، بينما كان يقوم بزيارة قبر أبيه فى عام ١٨٩٠ . وهكذا كان تاريخ عائلة البكائى حتى لحظة وصولنا إلى تمبكت ، إنها قصة انهيار عائلة البكائى ، إنها قصة عائلة عظيمة مشهورة فى الصحراء وسوف أحكى بعض القصص المشابهة ، فلقد استيقظ بارث فى برلين ذات صباح تحت إيحاء أنه يجب أن يكتب للجنرال فيدهرب حاكم السنغال ، ويوصيه بأن يساعد عائلة البكائى إذا احتاج أحدهم مساعدة وأرسل الخطاب فى اللحظة الحاسمة إلى سانت لويس حيث كان قد قبض على أحد أولاد البكائى باعتباره جاسوسًا وكانوا على وشك إعدامه ، وطبيعى أن يطلق فيدهرب سراح السجين وهكذا رد بارث الجميل لهذه الأسرة .

ولا يزال يعيش اثنان من أبناء الشيخ وهما بابا أحمد وبيار Bai عندما دخلنا تمبكت ، وعادا إلى صحراء أدرار مهد هذه الأسرة واستقرا فى تشاد أيت Tached Ait على جبل من الصخر يبعد مسيرة عشرة أيام عن تمبكت واختفت كل آثار نفوذ أجدادهم على الطوارق ، وعاشوا وسط علاقات سيئة مع جيرانهم الطوارق فى واحة إير Air . أما أحمد الابن الأكبر للشيخ فيعيش فى مدينة جوربو Gourbo على النيجر ، ويبدو أنه كان يود استرداد عظمة أجداده وعائلته وكرامتها ، وأرسل خطابًا إلى السلطات الفرنسية يسأل عما إذا كانت ترغب فى إعادة

العلاقات الطيبة التى أسسها هنرى بارث ، وجاء الرد بالإيجاب - لكن كان موقفه حرجًا لدرجة أنه لم يعد مفيداً لنا حيث يشغل أحمد وألوتا وهو من البكائين المنعزلين وظيفة متواضعة فى تمبكت وعلى علاقة طيبة بالسلطات هناك .

الفصل السادس عشر

الغزو الفرنسي

لقد حاولت إنجلترا حتى آخر لحظة أن تضع يدها على تجارة تمبكت ولما فشلت في محاولاتها من طرابلس ومصب النيجر - حاولت أن تضمن لها موقع قدم عن طريق مراكش ، وفي عام ١٨٩٠ أقامت لها مركزًا في كيب جوبي Cape juby ، ولكن كان الوقت متأخرًا جدا حيث كانت قواتنا ومراكزنا تتقدم عن طريق السنغال بقيادة كولبرت ، وفي عام ١٨٩٣ استولى الكولونيل أرشينارد على جني وهي المحطة قبل الأخيرة هناك ، وفي العام التالي دخل الفرنسيون تمبكت وتم إجلاء القوات من كيب جوبي .

ومهما قيل في ذلك الوقت - فإن احتلال تمبكت لم يكن ضروريًا فقط بل كان سيتأثر بأي تأخير ، ولا يستطيع أحد أن يشكو الآن إننا لم نعرف تاريخ هذه الشعوب ولا أوطانها ، إن رخاء السودان مرتبط تمامًا بأسواقه الرئيسية ، وإذا استمرت الفوضى والدمار في تمبكت فترة أطول - فإن كل التضحيات البشرية والمادية التي قمنا بها على أعتاب

هذه المدينة كانت ستظل عديمة الجدوى ، وكلما كان وضع حد للسيطرة المدمرة للطوارق كان ذلك أفضل لها ، ولكن ماذا كان مصير المدينة إذا لم يتم احتلال فرنسا؟ إننا نستطيع أن نتخيل الصورة بسهولة .

إن الطوارق سيتحدون مع الكونتا والفولبى والمغاربة مثلما حدث منذ ثلاثين عاماً ضد التوكولور بناءً على تحريض من البكائى .

كما أن الطرق من مراكش وتوات وطرابلس سوف تترك السودان (هذا القطر الضخم الذى تم احتلاله بوسائل بسيطة) مفتوحاً للمؤامرات الأجنبية ، ولإدخال الأسلحة والذخائر إلى الرجال المتعصبين الذين يقودهم بعض المرابطين ويكون عرضة لظهور الشيخ عمر من جديد والعائد من الحج إلى مكة ، أو إلى بعض الحركات المهدية القادمة من توات ، كما أن نتيجة هذه السنوات الطويلة من النضال والجهد سوف تضيع فى شهور قليلة ، ولن يتحقق عملنا المستمر من التهدئة وفرض السلام ، وسوف تظهر الثورات من جديد فى تمبكت وربما تمتد بسرعة إلى الجزائر ، إننا يجب أن نضع فى أيدينا كل أماكن الخطر والمفتاح إلى طرق الصحراء والسودان بأسرع ما يمكن . [(٢٨)]

إن يقظتنا والسير نحو تمبكت قد قضى على كل هذه المخاطر ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الكولونيل أرشينارد الذى عرف هذه الأقطار تماماً وعرف كيف يتعامل مع شعوبها ونتيجة حرصه وحكمته تجنبت المستعمرة اضطرابات جديدة وأمكن إنقاذ العاصمة .

وبمجرد أن استولى على جنى – تابع خططه الحكيمة للحملة التالية، وكان مضطراً إلى السير نحو تمبكت ليمنع أى تجمع للبدو حيث عبرت إحدى الفرق تلك المناطق من الجانب الأيسر لنهر النيجر ، كما تقدمت فرقة أخرى عن طريق النهر عبر قوارب حربية ، وطهرت المجرى تماماً ، لقد كانت هذه هى العمليات والخطط الحربية التى انتهت فى عام ١٨٩٤ ، وقاد الكولونيل بونير **Bannier** إحدى هذه الفرق ، وقاد الكولونيل جوفرى **Jouffre** مجموعة أخرى ، وقاد الليفاننت بوتيه **Baiteux** الأسطول الصغير ، ومن سوء الحظ لم يكن الكولونيل أرشينارد موجوداً ليقود هذه الحملة .

وسوف أشرح كيف تم الاستيلاء على تمبكت من منظور جديد حسب ما ظهر للسكان ، لقد قصوا الحكاية لى مثل الروايات السودانية القديمة والتى ضاعت أصولها .

فمنذ بداية نوفمبر ١٨٩٤ انتشرت شائعات غامضة فى تمبكت تفيد تجمع عدد من القوات فى سيجو ، وكانت المدينة هادئة ، وظن السكان أنها ربما تكون حملة تستعد للتوجه شمالاً ـ ومرت ثلاثة أسابيع دون أية أخبار ، وبعد ذلك اتخذت الأحداث شكلاً جديداً عندما أعلن تاجر وصل من الجنوب أن القوارب المسلحة قد وصلت إلى سارافارا وأنها تستعد للتحرك نحو كابارا **Kabara** ، وقد أخذوا اثنين من أشهر تجار تمبكت كمرشدين وكانا منفيين فى سارافارا بعد أن دمر الطوارق تجارتهم .

وفى اليوم التالى وصلت أخبار وصول أسطول صغير إلى كوروويوما Koroiuma .

وكانت مجموعة من طوارق تنجويوراجيف فى تمبكت قد اجتمعت مع حماريا رئيس المدينة ، وطلبوا منه أن يدق طبول الحرب ، وأن يدعو الشعب لحمل السلاح ، وكانت الإثارة شديدة حيث انقسم الناس ما بين الخوف من الفرنسيين والرعب من الطوارق .

واختلف بعض مشاهير المدينة مع حماريا ، وأظهر الكونتا فقط قدراً من الشجاعة ، ومع ذلك فكل الذين لم يختفوا فى ذلك الوقت انضموا إلى الرجال الملثمين وكان هذا الجيش الصغير يشكل قوة الطوارق من رجال الفرسان وهم يحملون الحراب والدروع وقليلاً من المسدسات التى تخص الكونتا أساساً .

وفى الوقت الذى كان هذا الجيش الصغير يتحرك نحو كابارا فى صباح الخامس من ديسمبر - كان الأسطول الصغير قد غادر إلى كويومونا ويتجه من بول إلى وديا Pool to Dai وهناك ركب القائد بيوتو Boiteux ، مع بعض التجار السود قارباً لكى يتعرف على الطريق إلى كابارا ، ولكى يجمع معلومات ولكى يتعرف على الموقف ، لكن حدثت واقعة أفسدت خططهم وأسرعت بالاستيلاء على تمبكت بطريقة غير متوقعة .

فبعد أن وصل خبر وصول القارب الصغير إلى كابارا تجمع الطوارق وأهل تمبكت على الشاطئ صامتين ودون حراك ، وعندما

اقترب الصندل حياهم بسحابة من الدروع والرماح ، وأطلق الكونتا نيران بنادقهم وعمت الفوضى والذعر العام ، وأصابت طلقة واحدة أحد الجنود واختفى الباقون أسفل القارب ، وبسرعة أطلقوا صواريخ أصابت الكثيرين وقتلت البعض ، وهرب الجميع ، حيث هرب الطوارق إلى الصحراء وأهل تمبكت إلى مدينتهم .

وبعد بضع ساعات رست القوارب الحربية والصندل الصغير فى ميناء كابارا .

وفى تمبكت عقدت السلطات مجلسًا أثناء الليل وتساءل حماريا رئيس المدينة : "ماذا يجب أن تعمل ؟ "، وأجاب القاضى : " ألتفت إلى كلماتى وأفكارى ويجب أن نكتب خطابًا إلى القائد ونقول له : "لسنا المسئولين عما حدث فى كابارا ، لكنهم الطوارق الذين نخشاهم . إننا شعب تمبكت لن نعارض وصولكم هنا لأنكم تحكمون فى الدول التى نجلب منها تجارتنا وقوتنا . إننا نضع أنفسنا تحت تصرفكم " هذه هى نصحيتى " .

وأجاب حماريا "إننى لست خائفًا من فعل ذلك ، وإن الطوارق أهانونى هذا الصباح لعدم الكتابة إلى الرجال البيض ، نطلب حضورهم ، إنهم يعرفون أن بعض شعبنا يقف إلى جانبهم" .

وأجاب القاضى : "إن الطوارق لا يفعلون إلا كل ما يؤذينا ، ولماذا ننصت إليهم ؟ من الأفضل أن نرسل خطابًا إلى كابارا ، لكن الطريق تحت الحراسة وربما يتم القبض على رسلنا وقتلهم " .

ونستطيع الوصول إلى كابارا من طرق أخرى غير الطريق الرئيسى" ، وأخيرًا رد قائلاً : "وهو كذلك ، دعنا نفعل كما تقول" ، وسحب القاضى خطابًا وكتب إلى القائد كالتالى: "يجب أن تعلم أن ما حدث اليوم قد تم دون موافقتنا . لقد شاركنا فقط تحت ضغط الطوارق ، وكان رأينا الموحد هو أننا عندما علمنا منذ شهر بوصول قواتكم إلى سيجو- نصحنا بعض التجار العرب بأن نكتب إلى رئيسنا السابق سلطان مراكش وإخباره عما سنقوم به عندما يأتى الرجال البيض ، ورحل الرسل إلى فاس مع إحدى القوافل ، وكان الطريق طويلاً ولم يعودوا حتى الآن ، إننا لم نحارب" .

وفى الحال تم إرسال رسولين إلى كابارا بعد إعطائها رشوة قيمتها مائة ياردة من الصوف الأبيض وعادا قبل شروق الشمس ، وقد ترجم أحد رجال تمبكت الذى اصطحب القوارب المسلحة خطاب القاضى إلى المترجم ثم كتب الخطاب التالى باسم القائد:

"إننى أعرف أن كل الرجال المسلحين والذين يحملون الرماح كانوا من الطوارق ، أما الذين يحملون البنادق فقد كانوا من أهالى تمبكت ، لماذا تهاجموننا قبل أن تعرفوا ما نريد ؟ إننا ورجالنا نعمل من أجلكم – لكن الماضى انتهى وغدا ، ارسلوا بعض رجالكم لإجراء مناقشة وحوار" .

وفى صباح اليوم التالى عاد الطوارق إلى تمبكت ، ولقد استجوبهم أحد النبلاء ويدعى الفاسيدو رئيس حى جنجارابار .

"إننا ندفع الضرائب إليكم وعلى هذا يجب أن تدافعوا عنا ضد هؤلاء الرجال البيض ، ماذا تنوون القيام به؟"

أجابوا : "افعلوا ما تريدون إن التنجور ليسوا الأسياد الوحيدين هنا . إن قبائل أخرى تشاركنا فى الضريبة معكم ، ويجب ألا يكون شعبنا هم الذين يذبحون وحدهم ، وعلاوة على ذلك فلقد علمنا حالاً أن فرقة قادمة من الغرب من حى جوندام حيث توجد قطعاننا وزوجاتنا ، إننا نريد أن نحميهم ونحن ذاهبون " .

وبعد أن ترك الطوارق المدينة اجتمع الرؤساء والأعيان فى مسجد سيدى يحيى بعد صلاة المغرب حيث قرروا الموافقة على رغبة القائد ، وتم اختيار وفدين ، وكان الخطاب المعتمد لديهم قد أكد إنهم تجار وليسوا محاربين ، وإنه إذا انتظر القائد رد السلطان فإن كل شىء سيكون على ما يرام ، وإذا لم ينتظر فله الحرية فى اتخاذ ما يراه مناسبًا ولن يعارضه الشعب .

وعادت الوفود ورغم ذلك لم يفعل ذلك أحد رجال طرابلس الذين اختارهم التجار العرب ، حيث لن يتعامل القائد مع غرباء بل يتعامل مع الوطنيين ، وقد حل محله مرابط قوى يدعى محمد كوتى وكان الموفد الثانى يدعى ألفا سعيدو ، ومنذ ذلك التاريخ فتح بابًا للمفاوضات .

وبكل ود ومحبة مع كابارا شرح الموفدون بصراحة الموقف وأعلنوا خروج الطوارق ، واستقبلهم القائد بكل حفاوة وأخبرهم أن جيشًا سوف يلحق بهم ، وطلب توقيع اتفاقية سلام بين الرئيس وسلطان المدينة تضع الدولة بموجبها تحت حماية فرنسا ، لكن لم يجرؤ أحد من سكان تمبكت على التوقيع ، ودخل الرعب فى قلب سكان المدينة وخشى كل واحد من عودة الطوارق وهم يعلمون فى هذه الحالة أن التوقيع سيكلفه حياته .

وطبقًا لأسطورة محلية إن نهر النيجر قد زاد فيضانه بشكل غير عادى عندما تحدث بعض الأحداث الملحوظة مثل الحرب أو المجاعة أو الوباء ، ولمدة ثلاثين عامًا لم يتذكر أحد أنه قد شاهد مثل هذه المياه التى تندفع من كابارا إلى تمبكت ، وكان السيد بواتيه قد قرر الإسراع فى المفاوضات ، ووصل إلى تمبكت عن طريق مستودع كابارا ومعه مركبان مسلحان بالبنادق كان قد استعارهما .

وهكذا استولى التجار على تمبكت وهى مدينة تبعد ثمانيمائة مائة ميل عن البحر وهى مدينة صحراوية .

وفى الخامس عشر من ديسمبر وفى المساء ، وأمام وفدين أرسلهما إلى تمبكت للاستعداد للأحداث التالية ، وأثناء الليل عبرت القوارب مدعومة بثمانية عشر رجلاً تلك المناطق دون أية عرقلة ، وفى الصباح كانت على أعتاب تمبكت .

وعندما سمع الكونتا والفولبى هنا وعددهم أربعون رجلاً تلك الأخبار، قاموا برفع أسلحتهم - لكن السلطات أجبرتهم على وضعها جانبًا ، وهددوا بإثارة عامة الشعب ضدهم إذا لم يستجيبوا .

وتقدم الرؤساء نحو شواطئ البحيرة حاملين الهدايا للترحيب وتساءل القائد بيوتيه : "وهل أحضرتم لى المعاهدة التى كتبتها من أجل السلام ؟ "، وأجاب الرئيس : " لا ، لأننا سمعنا عن وصولك الليلة الماضية فقط"

إذن لن أقبل هديتكم ، ولن أقول لكم شيئًا آخر ، أنتم تعرفون رغبتى ، وأريد أن يعرف موفدكم هذا ، وعندما عاد الوفد وضعت إحدى البندقيتين وزرعت فى الأرض المجاورة والتى تحولت بسرعة إلى موقع حصين ، بينما بقيت الأخرى على المركب لتغطى أى تراجع مفاجئ .

وكان وجود هذه القوة البسيطة - وفوق كل ذلك المدفعين اللذين يعرف الجميع صوتهما المدوى - قد أكدت للسلطات عودة الطوارق مما أعطاهم الشجاعة لاتخاذ قرار نهائى ، وتجمع رؤساؤهم وكبار القوم والمرابطون فى المسجد وبعد أداء صلاة الساعة الثالثة وقف أشهر المرابطين نفوذًا ويدعى كوتى وقال : "ماذا عليكم جميعا أن تقولوا؟"، وأجاب الجمع : "وماذا يجب أن نقول؟ فقال : " أنا ليست لدى السلطة للتصرف" .

"بالتاكيد ، ولكنك رجل دين وأنت تحمل كلمة الله - تكلم" ، وعندئذ قال كوتى ، "هذا هو رأيى ، إن كل من لا يسعى من أجل السلام سوف

يتحمل يوم القيامة أرواح الذين تسبب فى قتلهم "، فردوا : "إننا سنفعل ما تشير علينا به" .

وعارض كوتى قائلاً : "لست أنا المرابط الوحيد فى تمبكت خذوا رأى زملائى"، وقال الإخوان: "ما يقوله محمد كوتى صحيح" .

وأنهى كوتى حديثه ، "حسناً سوف أعقد معاهدة سلام مع الفرنسيين"، وعندئذ اتجه إلى القارب مع ألفا سعيدو الذى اصطحبه إلى كابارا وقال للقائد : "إننا نطلب السلام ، وسوف نقبله ونعمل كل ما ترغبونه ، ومن ثم فنحن معكم" .

وقال السيد بويتيه لهم : " إن قراركم يسرنى كثيراً ، إننا لا نحب شن الحرب ، إن التوكولور هم أول من أطلق النار فى جنى ولولا هذا ما أطلقنا طلقة واحدة وفى المستقبل لا تخشوا شيئاً ، وقعوا المعاهدة التى تعترفون فيها بالفرنسيين كحكام للمدينة ، وأنا من جانبى سوف أوقع على وثيقة تضعكم تحت حمايتنا" .

وفى صباح اليوم التالى تم تبادل المعاهدتين فى حضور الرؤساء ورجال الدين ، وطلبوا من القائد الدخول واحتلال المدينة خوفاً من الاشتباكات مع الطوارق ، وأكدوا له أنه يمكنه الاعتماد عليهم فى كل شىء وأخبروه بإخلاص أن المحاصرين فى المدينة قد ألقوا السلاح ، وتعهدوا بوضعهم تحت الملاحظة ، وأنهم سوف يخبرونه بكل ما يدور داخل وخارج المدينة .

وطلب السيد بويتيه منهم أن يرشدوه إلى أعلى نقطة فى المدينة ، وهناك اختار منزلاً واسعًا ، وتم نصب ورفع بندقية على مدخله ، وتم تأمين وحراسة الأسوار المجاورة ، وكانت هذه النقطة فى شمال المدينة وأصبحت قلعة حقيقية تحتلها قوة من المدفعية ، وفى جنوب المدينة تحول منزل آخر بالطريقة نفسها إلى قلعة .

وتم نصب بندقية أخرى هناك ، بينما استقر بعض من الأوروبيين بين المنطقتين ، واستقر هناك أيضًا نحو خمسين رجلاً .

وفى الوقت نفسه اتفق الطوارق مع الكونتا ، وفى الحادى والعشرين من ديسمبر هاجموا الأسطول الصغير المتمركز فى كابارا ، وكانت هذه هى الفرصة التى حلت فيها الفترة الحزينة والتى كلفت مدشيمان أوب **Midshipmen Aube** حياته ، وفى اللحظة التى كان يفارق فيها الحياة استعدت المدافع فى تمبكت ، وتم إحضار الحصانين الوحيدين فى المدينة وامتطى القائد بويتيه إحداهما ، وامتطى أوروبى آخر الحصان الآخر وبرفقتهما حامية صغيرة مع خمسين من الأهالى وأسرع الجميع إلى كابارا ، وهزموا الطوارق الذين لاذوا بالفرار تاركين خمسة عشر قتيلاً على أرض المعركة .

وتجمع العدو مرة ثانية بالليل ومع ظهور الفجر تحركوا مارين على المدينة ، ولما أطلقت عليهم النيران تفرقوا ، وبعضهم أغلق الطريق إلى كابارا فى الجنوب ، بينما استقر البعض الآخر فى شمال المدينة ،

وفى الليلة التالية أرسلوا خطاباً إلى القاضى صاغوه بالشروط التالية : "إن شعب تمبكت يقول : هل أنت منا أم من الرجال البيض ؟"، وعاد الرسول دون أن يحمل رداً سوى تمزيق الخطاب والبصق عليه ، وفى الوقت نفسه وصل أحد سكان المدينة حيث كان الطوارق قد أسروه ولكنه هرب فى الظلام الدامس ، وأخبر أهالى تمبكت أن مجلساً من الطوارق فى نجوننا ورئيس التنجوراجيف قرروا السير والهجوم على تمبكت - لكن رئيس الكونتا عارض ذلك .

وفى الحال أحيطت القيادة علماً وحذروا الأهالى خوفاً من هجوم فى الظلام حسب عادة الملثمين ، وحمل كل واحد سلاحه حتى الغرباء فى موسى الذين كان الطوارق يستغلونهم ، وحمل الجميع الأسهم والرماح وانتشروا شرق وغرب المدينة ، بينما دافع أهل القلعة عن الشمال والجنوب .

ومع طلوع النهار شاهدوا مجموعات تمر من الشرق إلى الغرب لكنها لم تجرؤ على الاقتراب عندما شاهدوا الحشد العسكرى ، وزادت أعداد الطوارق وعاد الكونتا إلى بيوتهم لأنهم لم يرغبوا فى الهجوم على تمبكت ، وبقى التنجوراجيف فقط والذين استولوا على الطريق إلى كابارا بقصد حرمان المدينة من المؤن وموت أهلها جوعاً .

وكانت حساباتهم صحيحة ففى السادس من يناير وجدت الحامية أن المؤن تقل ، ومهما يحدث فإنهم يجب أن يرحلوا من كابارا ، وقرر

القائد استخدام الممر الذى كان قد جاء منه ، وأثناء الليل جهز القاربين من جديد بالبنادق وبعض الرجال وتحرك دون أن يراه أحد ومع ذلك فإنهم لم يعودوا قبل طلوع النهار ، وبعد أن اكتشفهم الطوارق تجمعوا على شواطئ البحيرة حيث يضيق المستنقع ، بينما كانوا يستعدون لإطلاق صواريخهم .

وبدأ تبادل النيران بين الطرفين ولم يلحظ الطوارق تحرك القاربين واعتقدوا أن إمدادات سوف تصل ، ولذا فإنهم هربوا إلى الداخل ناحية غرب المدينة ، وأصبح الطريق إلى تمبكت خالياً .

وبعد أربعة أيام وفى العاشر من يناير دخل الفيلق الأول بقيادة الكولونيل بونير المدينة ، وهكذا انتهت المغامرة الغريبة لقوات البحرية فى تمبكت .

لقد شرحت بالتفصيل التقرير البسيط الذى قدمه لى الرجال السود أو ذات اللون البرونزى والذين كانوا الممثلين الحقيقيين أو المتفرجين الأصليين فى هذا العمل وكان جل اهتمامى هو تبسيط سردهم وتجنب أى زخرفة أو زيادة ، ومع ذلكم فإننى أشك إذا حدثت مثل هذه الأمور فى الوقت الحاضر .

لقد كان شيئًا مدهشًا أن تسعة عشر رجلاً منهم سبعة من الأوروبيين ، والباقون من الزنوج السنغاليين يتفرقون مع مدينة تعدادها ثمانية آلاف نسمة ، وأن يطلب منهم السيطرة عليها ، وليست هذه أى

مدينة ، بل تمبكت العظيمة المعروفة باسم الغامضة أو العجيبة والتى لا يمكن السيطرة عليها .

لقد توالت الأحداث حيث انضم السكان إلى جانب أسياد اليوم وضد أسياد الأمس ، وكانوا فى يوم ما نساء واليوم التالى صاروا أبطالاً يستعدون للموت دفاعًا عن الغزاة ، بل والأكثر من ذلك أنهم أثبتوا ذلك .

أما هؤلاء الطوارق الذين كانوا فى السابق لا يجرأون على النظر فى الوجه أصبحوا الآن يحاربون فى الأرض المكشوفة والأكثر دهشة أنهم هزموهم .

إن هذه الملحمة غير المرتبة ، وهذا الاختلاط بين الفرسان والمدفعية مع قطع الأسطول وصور الحصار ، كل هذا لم يستمر أكثر من يوم أو عدة أيام وربما امتد إلى شهر ، وحقًا فإن هذه ليست ملحمة بل إنها عاشت فى عقول رجال القرن التاسع عشر .

لقد كان الممثلون هم الفرق الأولى والطوارق الذين تركناهم إلى الغرب من تمبكت . لقد كتب القصة السيد رييلى **Raille** أحد رجال الحصن فى تمبكت والذى جمع الحقائق من الباقين على قيد الحياة .

وفى صباح اليوم التالى الذى دخل فيه الكولونيل بونير **Bonnier** تمبكت وبدون أى تأخير أمر الفرقة الخامسة وفصيلة من الفرقة الحادية عشرة بالقيام بمهمة الاستطلاع وتخليص المنطقة المجاورة من البدو المنتشرين بها، وللانتقام إذا أمكن من مذبحة مد شيمان أوبى **Midshipman Aube** .

وفى الساعة الخامسة صباحًا بدأ الكولونيل بهذه الفرقة الصغيرة تاركًا القيادة للكابتن فيليب ، وكان يرافقه القائد هاجونى والكابتن ريجاد ورفليلى وتاسارد وسنسيرى ونيجوت والكابتن جارنر وبوفيرت والملازم ساردا والدكتور الكولونيل جالاس والطبيب البيطرى لفوار والمترجم أكالوك .

وكان ذلك فى الرابع عشر من يناير عام ١٨٩٤ ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر علم الكابتن بونير أن الطوارق على بعد مسافة ميل واحد فقط أو ميلين من الفرقة واستمروا فى السير حتى الساعة الثامنة مساءً ، وبعدئذ وجدوا بعض الجماعات وقليلاً من الرجال المسلحين ، وبعد أن طاردوا هذه المجموعة المنتشرة عسكروا فى مكان يدعى تاكونيو والذى كان الطوارق قد أخلوه حالاً ، وكان كل شخص مرحًا ومسرورًا .

وعسكروا بجانب بعضهم البعض قدر الإمكان على شكل مربع ، واحتل رجال الفرقة الخامسة الشمال واحتل رجال الفرقة الحادية عشرة الجانب الجنوبى .

ونام كل واحد منهم وهو ملفوف فى بطانيته وذراعاه متقاربتان ، كما تم وضع المسجونين وسط المعسكر بينما شكل الإداريون مجموعة فى وسط المربع ناحية الجانب الشرقى حيث توجد مقار الكولونيل .

وظل أعضاء الإدارة والضباط يقظين حتى منتصف الليل وهم يتسامرون ويضحكون بعد أن قضوا المساء وهم فى غاية السرور ،

وأخيراً نام كل واحد منهم ، وكانت ليلة عظيمة ، وكان نور القمر يسطع فى كل مكان حتى اختفى فى الرابعة صباحًا ، وفى نحو الرابعة والنصف استيقظ ستة فقط وأصدر الكولونيل أمراً بأن يكونوا على بعد مسافة قصيرة من معسكره ، وفجأة ووسط الظلام والسكون دوى صوت البنادق ، وصارت صرخة "احمل السلاح" وفى الحال استعد كل واحد وبسرعة يحمل سلاحه يا للحسرة لقد كان الوقت متأخراً جداً .

وكانوا قد شاهدوا بعض الطوارق وهم يتجولون حول المعسكر فى الليلة الماضية ، وكان فرسانهم بصحبة رجال المشاة قد انقضوا وسط الظلام على المعسكر الفرنسى فى هجومٍ عنيفٍ وقاسٍ ، وفى لمح البصر جمعوا أسلحة من المعسكر قبل أن يجد أى شخص الوقت للدفاع عن نفسه .

لقد كان الوقت ليلاً ولا يمكن وصف المنظر الذى حدث وكانت مذبحة مخيفة لا يمكن وصفها حيث كان العدو يضرب ويقتل فى كل جانب بالرماح والحراب وغيرها وحدث اشتباك مخيف لكن هدأ كل شىء وفى لحظات قليلة انتهى كل شىء .

وقد نجح ثلاثة أوربيين وضابط واثنان من ضباط الاحتياط - (الكابتن نيجوت والميجور باريتى والميجور لابير Labire) مع حفنة من الرجال فى شق طريق ، ووصلوا إلى بعض الأخشاب بالقرب من المعسكر ، وجمع الكابتن نيجوت Nigote اللاجئين وسط هذه المخاطر غير المسبوقة ، وقادهم إلى الفرقة التى كان قد تركها .

لقد فقدنا اثنين وثمانين من رجالنا ، فضلاً عن اثنين من المرشدين، كما سقط تسعة ضباط بمن فيهم الكولونيل وثلاثة من ضباط الاحتياط وثمانية من صف الضباط وستون من الأهالى أمام العدو ، حسب تقدير الباقين على قيد الحياة وسط الظلام والفوضى حيث هاجمهم نحو مائتين من الفرسان وما بين مائتين وثلاثمائة من جنود المشاة .

وبعد خمسة وعشرين يومًا وصل الفريق الثانى بقيادة الكولونيل جيوفرى Jouffre إلى تاكونبا Taconba لجمع هياكل العظام للثلاثة عشر أوروبيًا ، وعادوا بهم إلى تمبكت وتم دفنهم فى حوش الموتى بالقرب من القلعة التى بنيت جنوب المدينة ، وتم تخليد ذكراهم بوضع الصلبان من الطين الجاف وبعض الطوب المجفف فى الشمس على مقابر هؤلاء الأبطال التعساء ، وبعد ذلك فكر الكولونيل جيفرى فى الانتقام ، وأدرك حالاً أن الطوارق قد تمركزوا بين بحيرة فاجوبابين وبحيرة فانى التى لا تبعد عن جوندام ، وهناك هاجمهم على غرة ليلاً داخل معسكرهم وذبحت قواتنا عدداً كبيراً منهم ، وحسب المثل السائد فى بلادهم لقد دفعوا الضريبة من الدم .

وحيث إننا انتقمنا لقتلانا حسب عادة الصحراء وحيث إننا سيطرنا على الدولة والسوق التى كان الطوارق يحصلون منها على حاجتهم – اضطرت قبائلهم المختلفة إلى الاستسلام ، ولا أستطيع أن أؤكد أن هذا الاستسلام والرضوخ كان نهائيًا أم لا ، وكان من الضرورى من حين لآخر أن نؤكد أن سلطانهم قد انتهى وأنهم قد وجدوا سيداً جديداً .

وظلت تمبكت مخلصة وملتزمة بالكلمة التى أعلنتها فى أول يوم "إننا نعمل من أجلكم وإن ولاءنا لن يتوقف" .

وبعد عام من هذا الوعد تلقت المدينة رد السلطان وكتب سلطان فاس يقول: "الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، تحية إلى رئيس المدينة والنبلاء بها ، بارك الله فيكم وتحياته وبركاته .

لقد أوليت عناية كبيرة للمساعدة والحماية التى تطلبها ، لقد حزنت كثيراً ، وكان من الواجب أن أرد على التماسك وأقدم لك كل الدعم لكن المسافة البعيدة بيننا أجبرتنا على أن نكون حذرين ، وربما جاء جيرانك لنصرتك .

سوف أهاجم الفرنسيين وأطردهم بعيداً عنك ، لكن يجب أن ترسل لى أولاً برهاناً على اعتمادك على حكومتى ومملكتى ، وإذا كانت لديك رسائل صادرة من أسلافك ، أو أية وثائق أخرى ومخطوطات أرسلها إلىَّ ، وبمساعدتها سوف أخلصك من كل شىء بفضل الله العلى القدير الذى يعين المحتاج وينصف المظلوم إنه العلى القدير .

مع تحياتى

مولاى الحسن

وهكذا انتهت آخر محاولاتهم ، وبمجرد أن وصل خطاب سيادته تم وضعه فى أيدى قائد تمبكت الذى وضعه برفق فى الأرشيف ، وتم بناء قلعتين كبيرتين محل القلاع القديمة ووضعت البنادق فى كل جانب من المدينة ، وعاش الناس فى سلام فى كل هذه القلاع ، وانتهى كابوس الطوارق الطويل وبدأ الناس فى إعادة بناء وإصلاح المنازل وتركوا الأبواب مفتوحة ، وواصلوا ارتداء الأرواب الجميلة المطرزة .

وبدأت علامات الاحتلال الأوروبى تظهر على المدينة ، ولعب الزنجى دور رجل البوليس وهو يقف فى الشارع حاملاً سيفًا فى جانبه .

وحديثًا شيَّد أحد التجار الأغنياء ويدعى جاستون ميرى دار صرافة ، وقام بأداء عمله الممتاز فى المنزل الذى بناه لهذا الغرض ، ووصل أحد رجال الإرساليات ويدعى الكاردنيال لافيجرى **Lavigerie** بصحبة الأب هاجارد **Hacequard** وهو رجل مشهور فى الجزائر ، وإليهما يرجع الفضل فى إنشاء كنيسة فى المدينة ومدرسة .

إننى أرى تمبكت وقد خلصت من أثمالها البالية وأنهت فترة المآسى الماضية ، وتطلعت إلى المستقبل ، أما مستنقع كابارى الرملى فقد تم تطهيره وتعميقه ، ووصلت مياه النيجر الوفيرة إلى بوابات المدينة ، وصار من السهل أن تحمل سلاحًا إلى شمال وشرق المدينة ، وبدأت المدينة تمارس مهنة الزراعة ، وعادت إليها حدائقها وثرواتها وأشجار نخيلها ، وصارت مدينة حضارية ، وصارت نقطة التقاء بين عالم السود وعالم البيض .

وسوف نغزو الصحراء ونضع سلسلة حديدية على رمالها وسوف تكون السكك الحديدية نقطة الاتصال بينها ، وسوف تنتشر وسائل النقل بين الجزائر وتمبكت بسرعة البرق ، وسوف ترتبط أساطيل البحر المتوسط مع أساطيل النيجر ، وسوف يتجه الطوارق والكونتا وكل البدو الذين يعملون إلى الصحراء وطنهم الأول ، سوف يشكلون قوة بوليس فعالة سوف تحمى طرق الصحراء .

إننى أشهد المدينة وقد تحولت إلى مركز للحضارة الأوروبية والعلوم مثلما كانت مركزًا للثقافة الإسلامية ، وسوف تقوم شهرة علمائها مرة ثانية من بحيرة تشاد إلى جبال كونج وشواطئ الأطلنطى ، وستُصبح تمبكت مرة ثانية ملكة الثقافة والثروة للسودان حيث إن ماضيها التليد ينبئ بذلك . تلك كانت الأيام الأولى من العهد الجديد الذى دخلت فيه تمبكت ، والتى ستزداد شهرة أكثر مما كانت عليه ، ذلك لأنها تمتلك شيئًا واحداً لا يمكن تدميره والذى يؤكد عظمتها – ألا وهو موقعها الجغرافى الفريد على أعتاب السودان ما بين النيجر الشرقى والغربى ، وهما الذراعان اللتان تحتضنان كل أفريقيا الغربية .

انتهى الكتاب

الهوامش

(١) يعتبر ساموري توري من الزعماء الأفارقة القلائل الذين لعبوا دوراً مهماً في مقاومة التوسع الفرنسي في غرب أفريقيا ، وظل يقاوم الفرنسيين نحو سبعة عشر عاماً ابتداء من عام ١٨٨١ حتى قبض عليه عام ١٨٩٨ واستطاع أن يؤسس دولة إسلامية في منطقة أعالي النيجر ، وتصادف قيام جهاد هذا الرجل مع ظهور البحرية الفرنسية التي دخل معها في صراعات وحروب ، وكان هدفه الحفاظ على دولته - لكن فرنسا أصرت على القضاء عليه حتى تتمكن من التوسع من الغرب إلى الشرق ، وظل ساموري يناضل ضد التوسع الفرنسي للحفاظ على دولته ، وقد أطلق عليه القائد الفرنسي فيدهرب بأنه نابليون السودان ، ولمزيد من الدراسة عن هذا المجاهد انظر :

عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا - عالم المعرفة عدد ١٣٩ .

(٢) قال ديبواه إن الشيخ أحمدو أحدث الدمار في هذه المناطق ، لكن الحقيقة أن هذا المجاهد الإسلامي الكبير وهو نجل الحاج عمر الفوتي التكروري كان يناضل ضد التوسع الفرنسي في هذه المناطق ، ووقف سداً منيعاً أمام محاولات الفرنسيين فرض السيطرة وبسط النفوذ ومحو الثقافة الإسلامية - لكن الشيخ أحمدو قاوم كل هذا رغم هزيمته ، وبالتالي فإن الدمار الذي حل كان من التوسع الفرنسي وليس من الشيخ أحمدو (المترجم) .

(٣) انظر عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا ، عالم المعرفة العدد ١٣٩ الكويت الفصل الرابع .

(٤) لقد تم تنظيم إدارة السودان على النحو التالي : ينقسم السودان إلى مناطق ، والمناطق تنقسم إلى دوائر وهذه بدورها تنقسم إلى مراكز ، وإدارة الحكومة عموماً في المنطقة الأولى أي في كايس Kayes. رغم أن مركز المستعمرة المنطقي هو في (باماكو) والدوائر التابعة لها هي نيورو Nioro وكيتا Kita وبافولابا Bafoulaba ومراكزها في

سيليبابا وجومبو ، والثانى هو المنطقة الجنوبية حيث مراكز بيساندوجو Bissandugu (العاصمة القديمة لساموری) ودوائر سيجورى Siguir وفاراتاه Farannah وأيراماكونو Erimakono وكيسيدوجو Kisidugu ، وهناك مراكز كان كان Kankan وبيلا Beyla وكيروانا Kerwana وكوسا Kououssa ، والمنطقة الثالثة هى المنطقة الشرقية على الشاطئ الأيسر للنهر وإلى الضفة اليمنى عبر وادى النيجر ، وأيضًا مراكز باماكو وبوجونى، وهناك مراكز كوكيكورو وتوليماندو ، والمنطقة الرابعة جنى وسوكولو وبانديا جرا وهناك مراكز موبتى وجورو على بحيرة ديبو (Debo) والمنطقة الخامسة هى الشمالية وتضم البحيرات شمال الوادى ، ومراكزها تمبكت ودوائرها جوندام Gun-dam وسارافارا Sanafara ومركز الكول هادج ، ويرأس كل منطقة قائد أعلى ، أما المراكز فيحكمها ضباط صغار ، فضلاً عن ضباط أقل لحكم المراكز الأصغر .

(٥) يعتبر الحاج عمر الفوتى التكرورى من زعماء المسلمين الذين ساهموا بشكل فعال فى مقاومة التوسع الأوروبى ، ووقف سدًا منيعا أمام المحاولات الأوروبية لغزو مناطق غرب القارة الأفريقية ، ولقد استطاع على مدى نصف قرن من الزمان أن يؤسس دولة إسلامية ، ويواجه التوسع الفرنسى ، وكان يهادن الفرنسيين تارة حتى يسترد أنفاسه ، وتارة يدخل فى صراع معهم حتى استشهاده فى عام ١٨٦٤ .

انظر عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبى ، مرجع سابق ، الفصل الثانى ص ٧٩ وما بعدها .

(٦) يتضح من هذا الحوار رغبة الرحالة "ديبواه" أن يوضح فضل الرجل الأبيض فى تمدين الأفارقة وأنه هو الذى نشر الأمان والاستقرار، وأن الذى أثار الرعب والدمار هو الحاج عمر ورجاله من التوكولور وهذا كلام غير حقيقى ، لأن الحاج عمر وهو يبنى دولته واجه التوسع الفرنسى من الغرب إلى الشرق ، واضطر أمام هذا التوسع أن ينتقل شرقًا ، ويدخل فى صراعات مع القوى المحلية وليس تدمير هذه القوى لأن الحاج عمر وساموری توری من المجاهدين المسلمين ضد هذه الهجمة الاستعمارية ، التى سعت إلى فرض السيطرة الأوروبية والقضاء على النظم الوطنية الأفريقية ، وبالتالى فإن الزعامات الإسلامية لم تكن تهدف إلى هدم الحضارة الوطنية بل بناء دولة إسلامية تنشر الإسلام الصحيح فى هذه الربوع .

(٧) ربما من الضرورى لكى نحدد موقع كوكيا مع مدينة فى وادى النيل أن نجد واحدة قد بنيت على جزيرة مثل أهم مدينتين فى سنغى وجنى وجاو ، ويذكر تاريخ الفتاش مدينة

بالاسم نفسه موجودة فى القرن السادس عشر جنوب جاو لكن ليس لها صلة بمدينة كوكيا فى ذلك الوقت . وربما أطلق أهل سنغى هذا الاسم عليها تخليداً لموطنهم الأصلى .

(٨) انتشر الإسلام فى القارة الأفريقية بالحسنى وليس بحد السيف ، وكان أسرى الحروب يخيرون بين اعتناق الدين الإسلامى أو البقاء فى الأسر – فاعتنقوا الإسلام دون إجبار .

(٩) لمزيد من الدراسات المطولة عن هؤلاء الزعماء الإسلاميين أمثال الحاج عمر وساموري توري ورابح فضل الله والشيخ محمد الأمين يمكن الرجوع إلى كتاب :

عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبى فى أفريقيا ، سلسلة – عالم المعرفة ، العدد ١٣٩ ، لعام ١٩٨٩ .

(١٠) تشير الكثير من المصادر إلى أن الحاج عمر مات واستشهد إثر برميل البارود فى عام ١٨٦٤ وليس فى عام ١٨٦٣ . (المترجم)

(١١) من الواضح أن المؤلف يعزى كل هذا الاستقرار والتقدم إلى الوجود الفرنسى فى المنطقة ونسى أن هذه المناطق كانت تنعم بالاستقرار والأمان ، وانتشر فيها الإسلام الصحيح ، وأقام العدل بين الناس ، وقد ساعد ازدهار هذه الدول الإسلامية على تبادل التجارة فى هذه الربوع قبل قدوم الفرنسيين إلى هذه الأنحاء وكان لغزوهم وتوسعهم أثره المدمر لتلك الحضارة الإسلامية . (المترجم) .

(١٢) يدعى المؤلف أن الخراب والدمار قد حل بسبب وجود الحاج عمر وأنه كان لصاً وقاطع طريق وأن الفرنسيين هم الذين أنقذوا المدينة ، ونسى هذا الرجل أن الحاج عمر كان رجل دين ورجل مبادئ يسعى لتأسيس دولة إسلامية فى غرب القارة بعد أن انتهج المبادئ التى سار عليها الشيخ عثمان بن فودى ، وأن الفرنسيين هم الذين هاجموه وأجبروه على التحرك شرقًا حتى منحنى النيجر وأنهم هم الذين دمروا هذه الدولة الإسلامية الناشئة .

انظر للمزيد من المعلومات: المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقيا مرجع سابق (المترجم) .

(١٣) البكرى هو أبو عبيد البكرى – جغرافى عربى (١٠٦٧ م) صاحب كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب – صدرت طبعة عام ١٩١٣ . (المترجم والمراجع) .

(١٤) يقصد نظام الأروقة فى الأزهر الشريف . (المترجم والمراجع)

(١٥) ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦: هو عبد الرحمن بن خلدون التونسى ، أعظم مؤرخى وفلاسفة العرب فى العصور الوسطى ، زودنا فى كتابه العبر وديوان المبتدإ والخبر

بأخبار كثيرة عن سنغى ، وقد انتقل إلى مصر وقضى فيها سنوات طويلة . (المترجم والمراجع) .

(١٦) سميت جاناتا أو غانا كما وردت فى النصوص العربية القديمة أو كما سماها أهل سنغى باسم بيرو Birou .

(١٧) ليو الأفريقي – هو الحسن بن الوزان – رحالة مغربى صاحب كتاب وصف أفريقيا ، ألفه للبابا كيو العاشر وقد ترجم للعديد من اللغات ، وترجم أخيراً للعربية .

(١٨) ابن بطوطة ، هو أبو عبد الله محمد (٧٧٩ هـ) رحالة عربى مشهور – صاحب كتاب تحفة النظار فى غرائب الأبصار وعجائب الأسفار طبع فى القاهرة عام ١٩٣٤ – (المترجم والمراجع) .

(١٩) لم يكن العرب أبداً غزاة كما أن الإسلام واللغة العربية انتشرا فى هذه المناطق سلماً (المترجم) .

(٢٠) الشيخ محمد بن عبد القادر المغيلى من تلمسان ، وهو من علماء السودان الغربى أثناء القرن الخامس عشر، وكان له أثر كبير فى تفكير الزعيم عثمان دان فودى – كانت له منزلة كبيرة عند أسكيا محمد الكبير – له رسالة مهمة كتبها لحاكم كانو بعنوان (التزامات الأمير) وتوفى المغيلى عام ١٥٠٤ (المترجم والمراجع)

(٢١) توجد نسخة من هذا المخطوط فى المكتبة الوطنية فى فون أورسيلا تحت رقم ٤٦٢٨ – وجده فى الجزائر السيد شيربو الذى نشر بعضاً منه .

(٢٢) عبد الرحمن السعدى : مؤلف كتاب تاريخ السودان وقد نشره وعلق عليه هوداس فى مارس ١٨٩٨ (المترجم والمراجع) .

(٢٣) يحاول المؤلف أن يبين أن الاستقرار والسلام لم يحدثا إلا بعد وصول الفرنسيين وهذه نظرة استعمارية لا تتفق مع واقع الأحداث حيث إن صراع المسلمين ضد الاستعمار وتوسعه يدحض هذا الكلام ، فمقاومة ساموري تورى والحاج عمر والحاج الأمين ورابح فضل الله الزبير وغيرهم من رجال المقاومة توضح عكس هذا الكلام ، لأن الفرنسيين لم يحققوا بل كانت سياستهم الاستعمارية سبباً فى ازدياد المقاومة وحركات النضال والجهاد ، انظر عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقيا – مرجع سبق ذكره .

(٢٤) قام منجوبارك برحلتين لكشف نهر النيجر وقد نشرت نتائج رحلتيه – للمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

شوقى الجمل ، وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر (المترجم والمراجع)

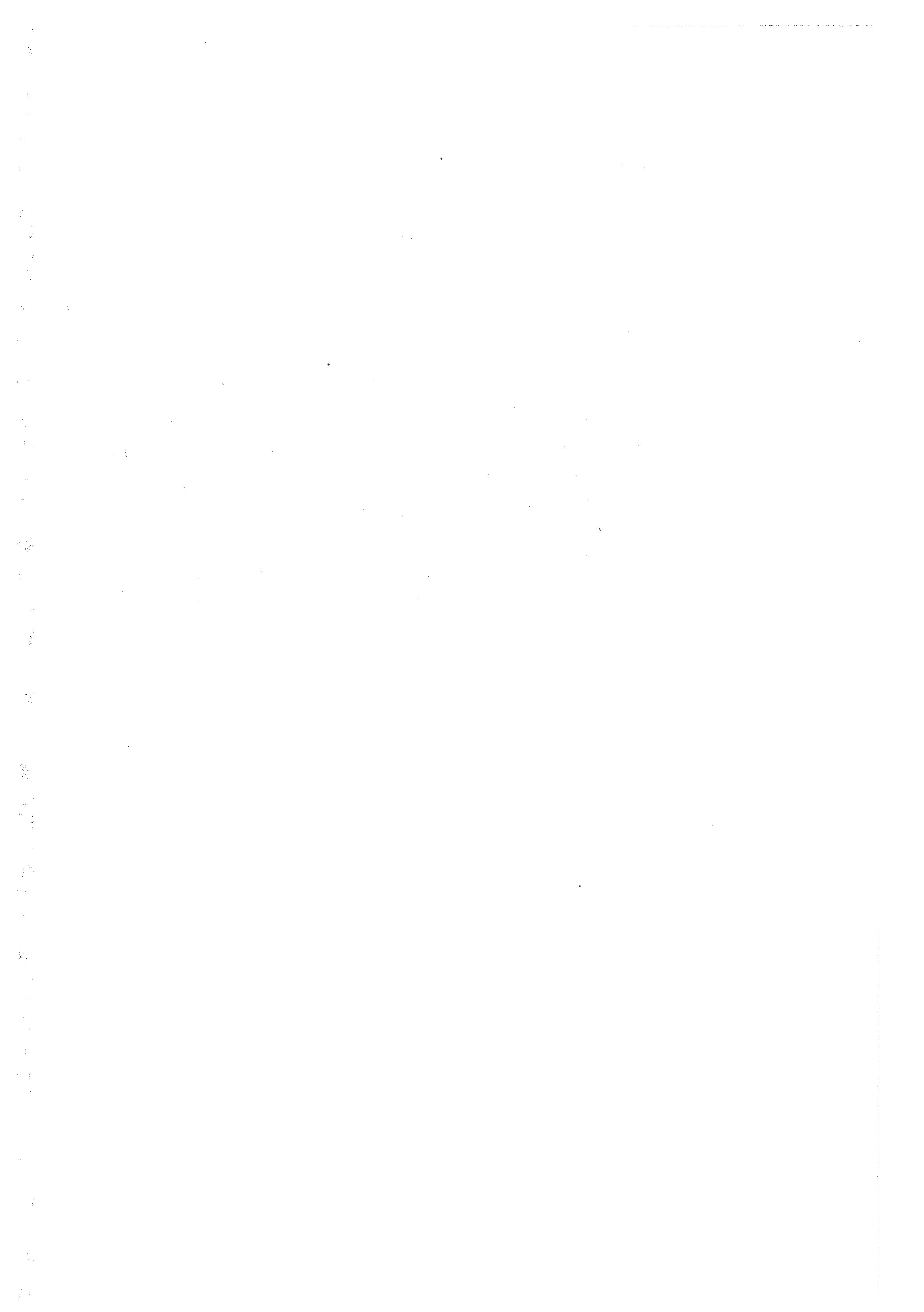
(٢٥) انظر: Caillie Rene: Travels Through Central Africa to Timbuctoo - vols. (المترجم والمراجع)

(٢٦) سجل سس وأخبار رحلته فى كتابه :

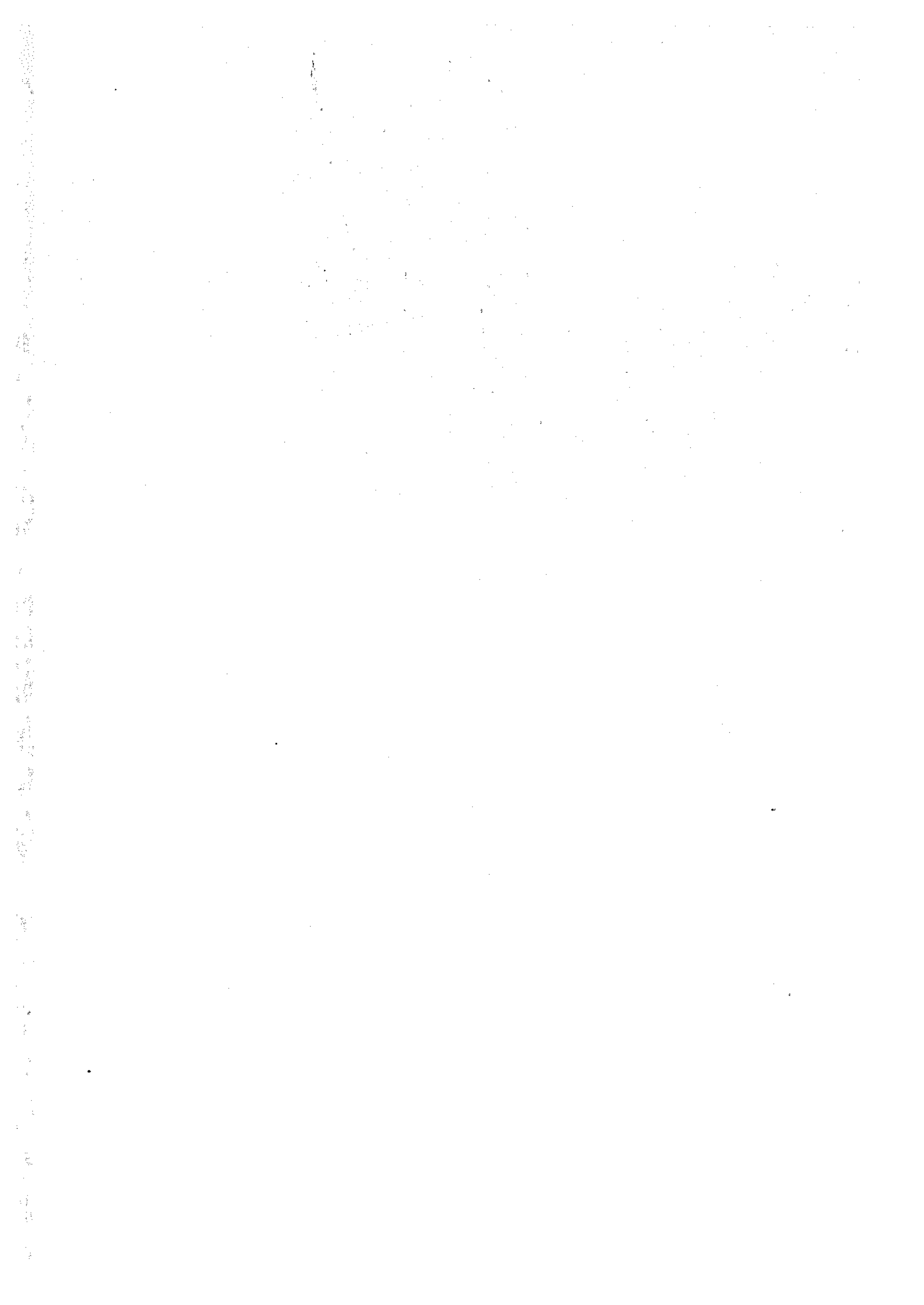
Barth, H.; Travels in North and central Africa 5 vols . (المترجم والمراجع)

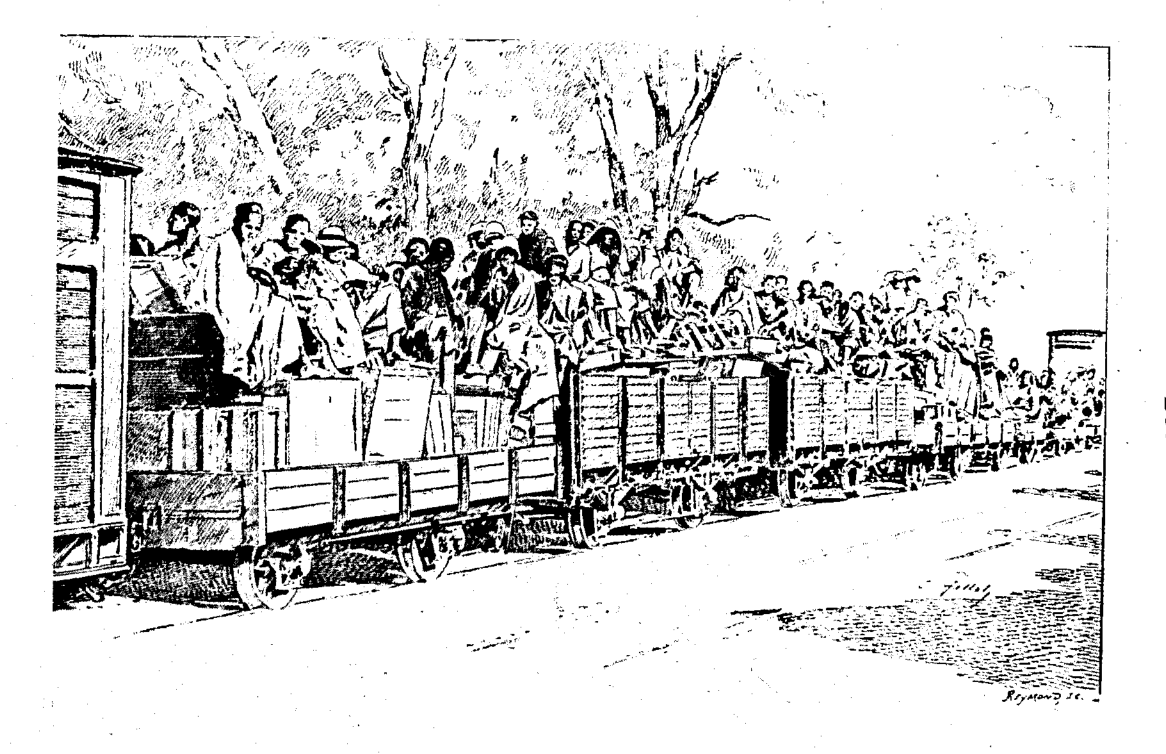
(٢٧) انظر بارث المجلد الرابع – الطبعة الفرنسية صفحة ٣٨ .

(٢٨) يحاول المؤلف فى هذه السطور أن يحث حكومته على الإسراع فى احتلال السودان خوفًا من حركات الجهاد والمقاومة التى تجسدت فى الحاج عمر وساموري ومحمد الأمين ورابح فضل الله ، وكلهم كانوا يسعون إلى بسط لواء الشريعة الإسلامية فى مواجهة هذه الهجمة الاستعمارية التى تحاول السيطرة على بلاد السودان تمهيدًا لتوسع استعمارى من الغرب إلى الشرق ، ولكن رغم إخضاع السودان للسيطرة الفرنسية فى القرن التاسع عشر فقد شهد القرن العشرون سلسلة من حركات التحرر الوطنى فى هذه المناطق التى نالت استقلالها فى عام ١٩٦٠ (المترجم والمراجع) .

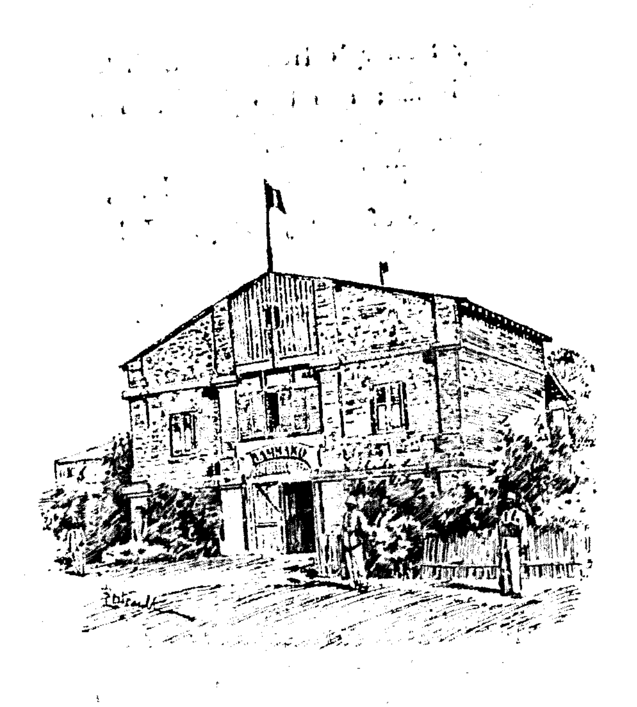


ملحق الصـــور

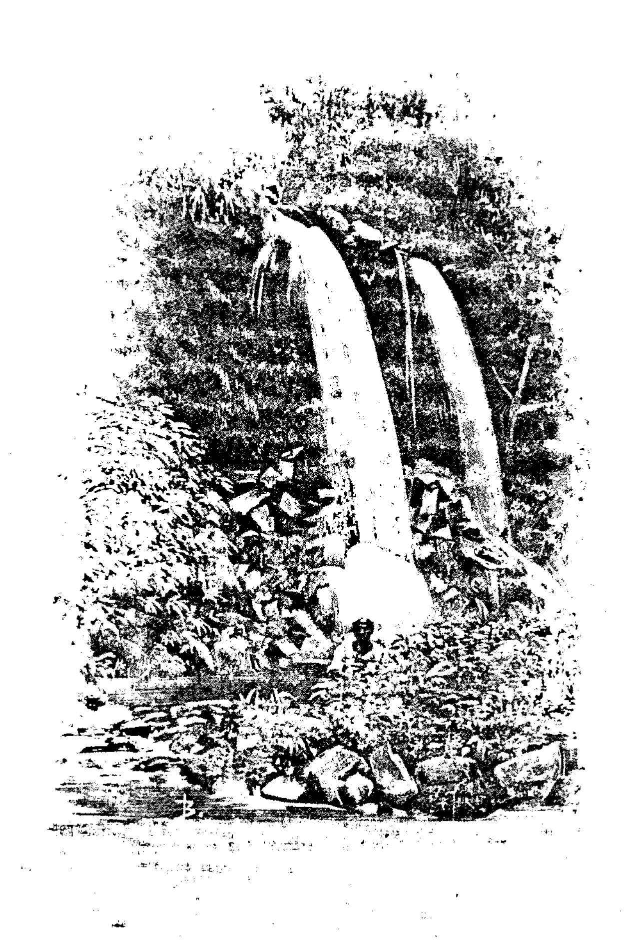




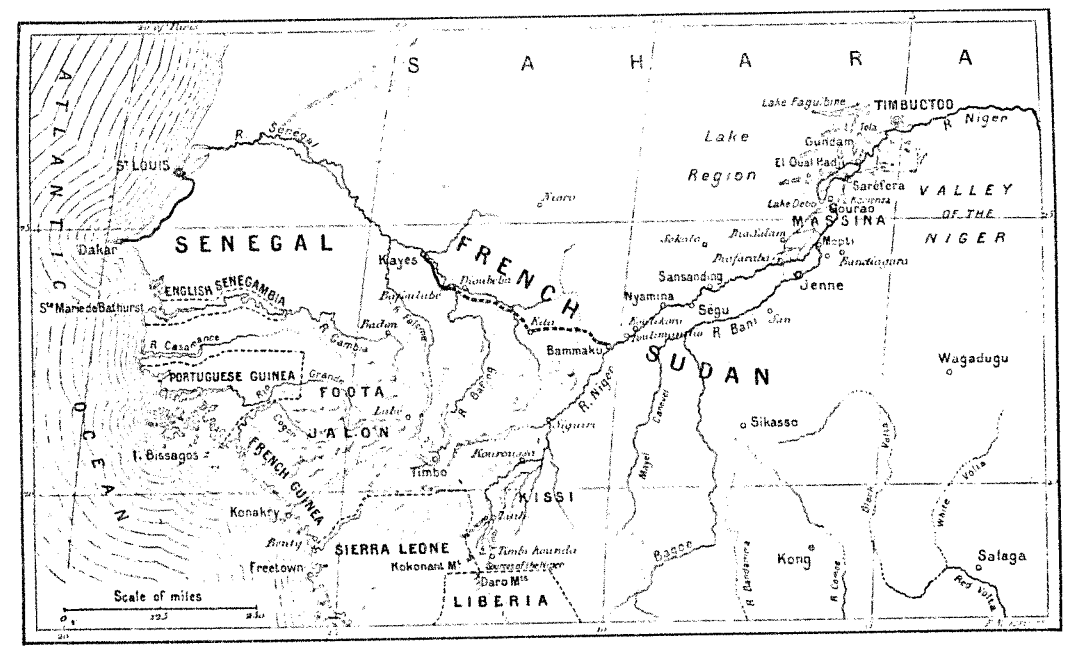
شكل رقم (١) قطار فى السودان



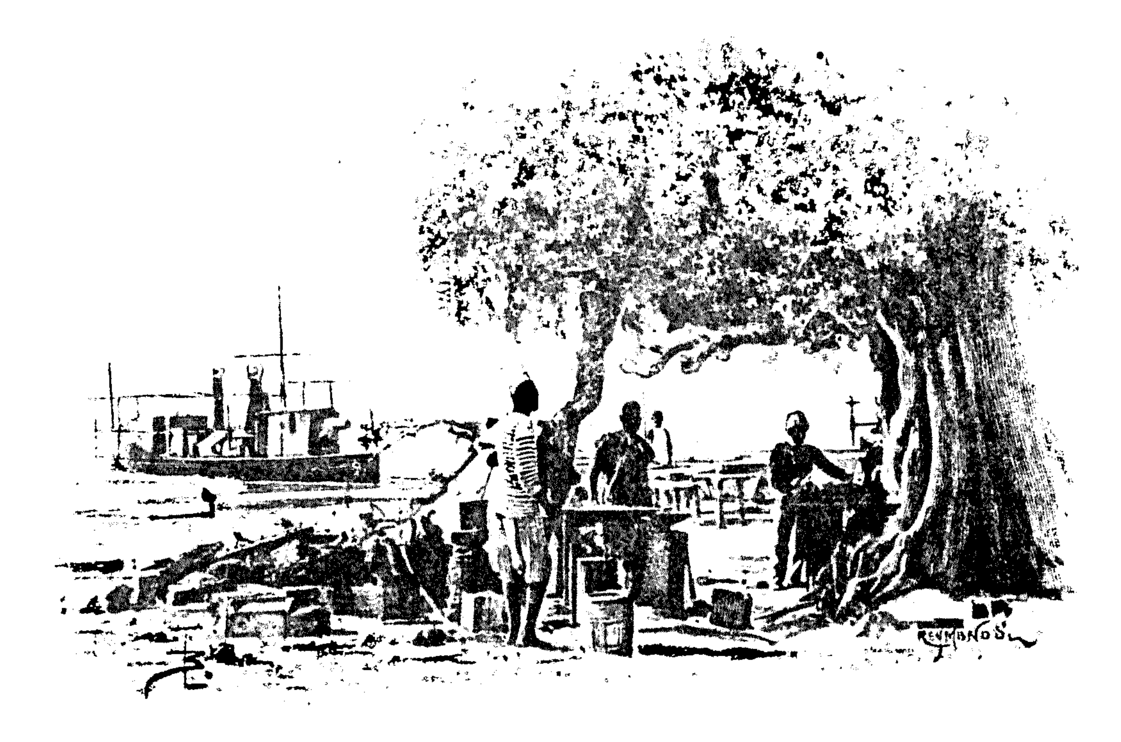
شكل رقم (٢) تمبكت



شكل رقم (٣) شلال فى وادى النيجر



شكل رقم (٤) الأقاليم النيجرية

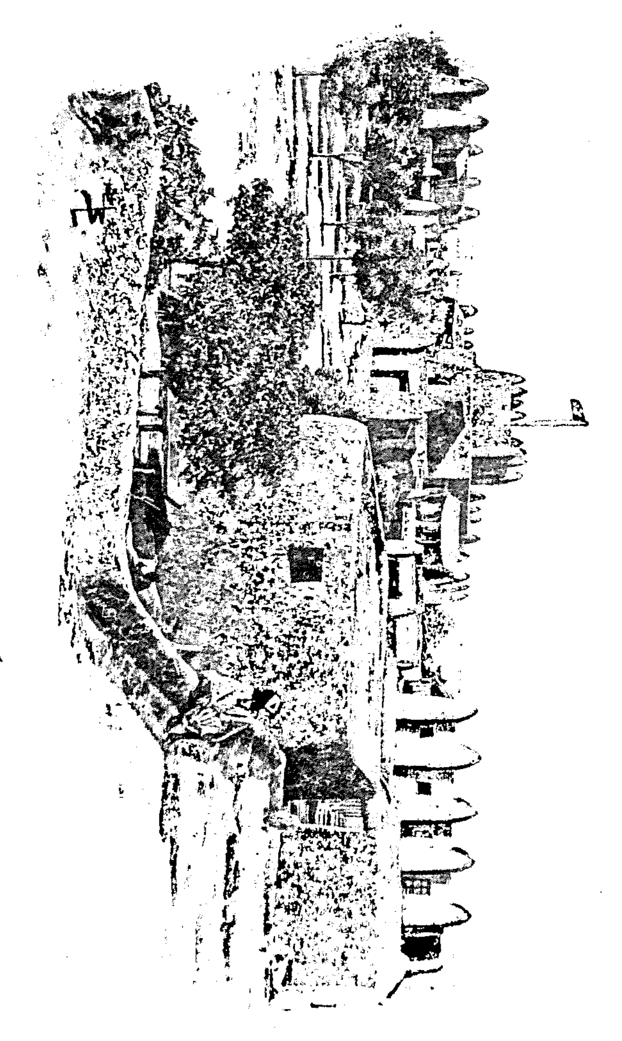


شكل رقم (٥) ورشة على شاطئ النيجر



شكل رقم (٦) القطن فى أسواق السودان

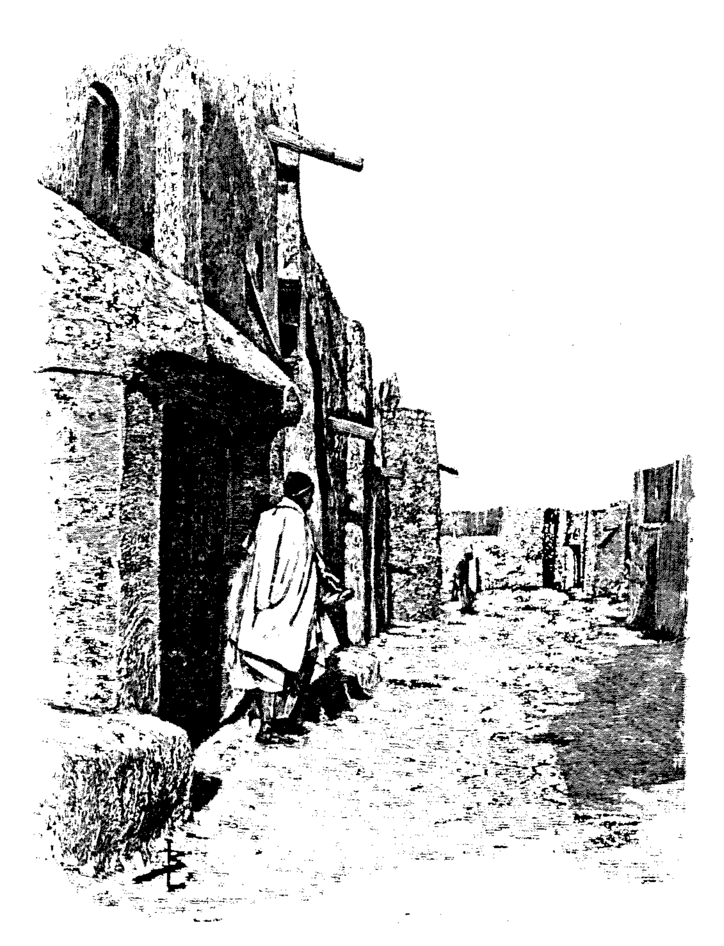
شكل رقم (٧) السوق الكبير فى تمبكت



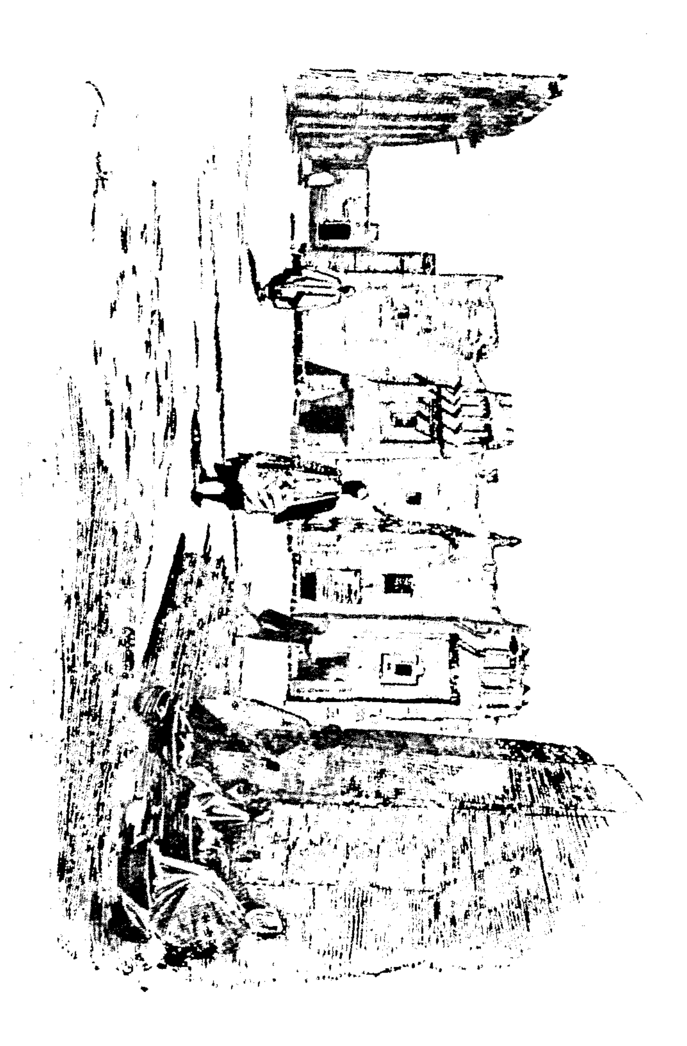
شكل رقم (٨) قلعة سيجو



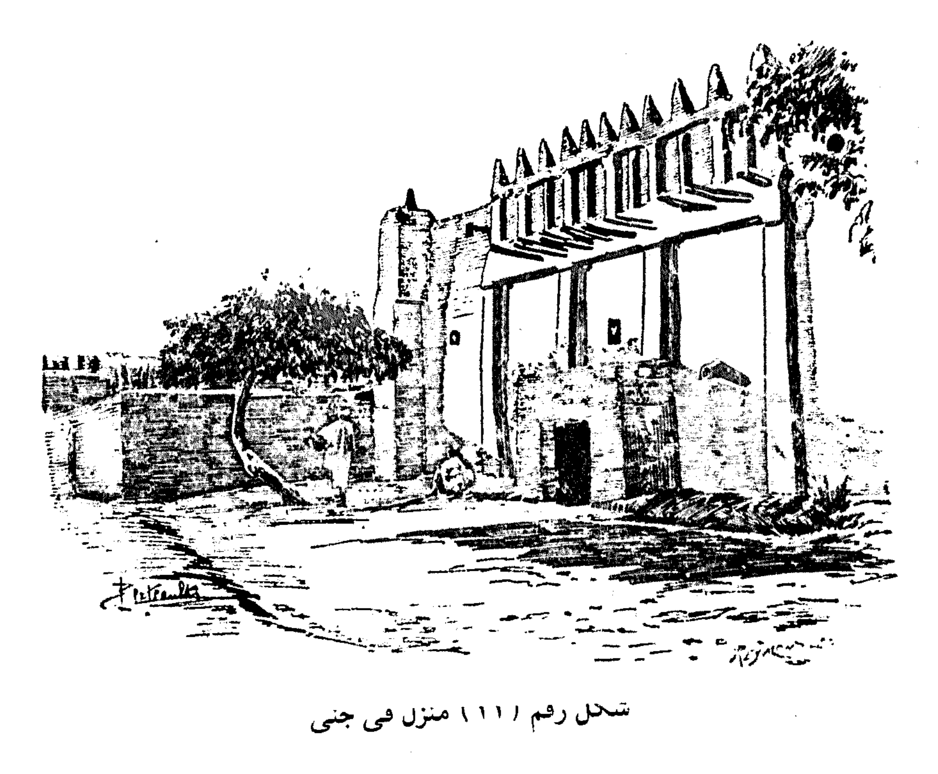
شكل رقم (٩) شارع في جني



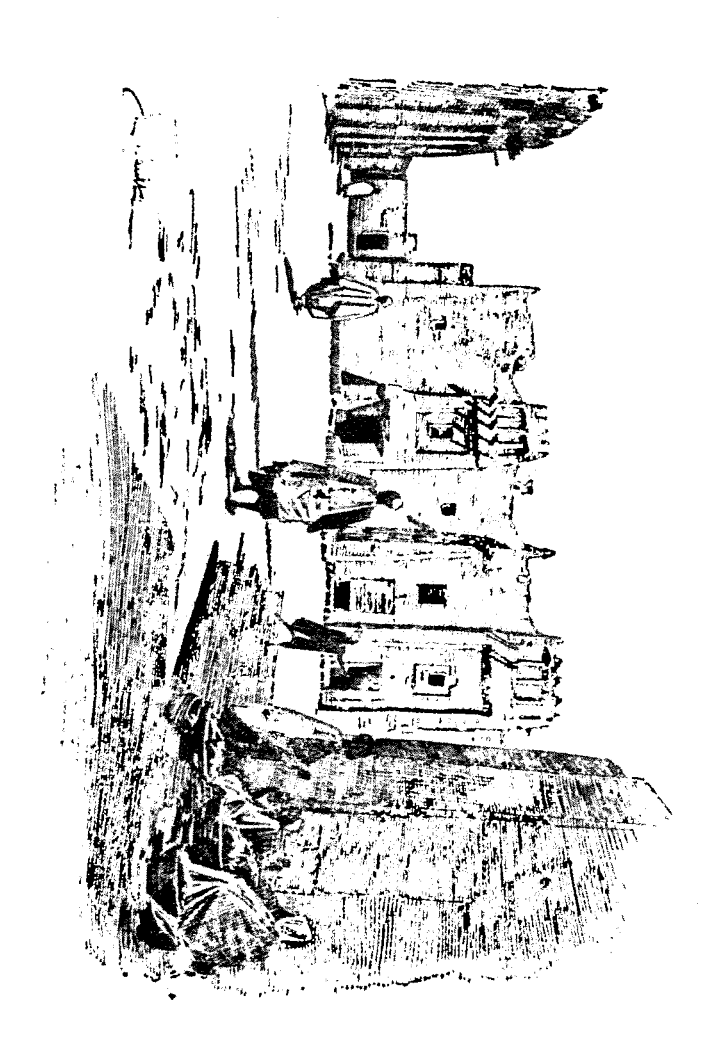
شكل رقم (١٠) شارع فى جنى الحى العربى



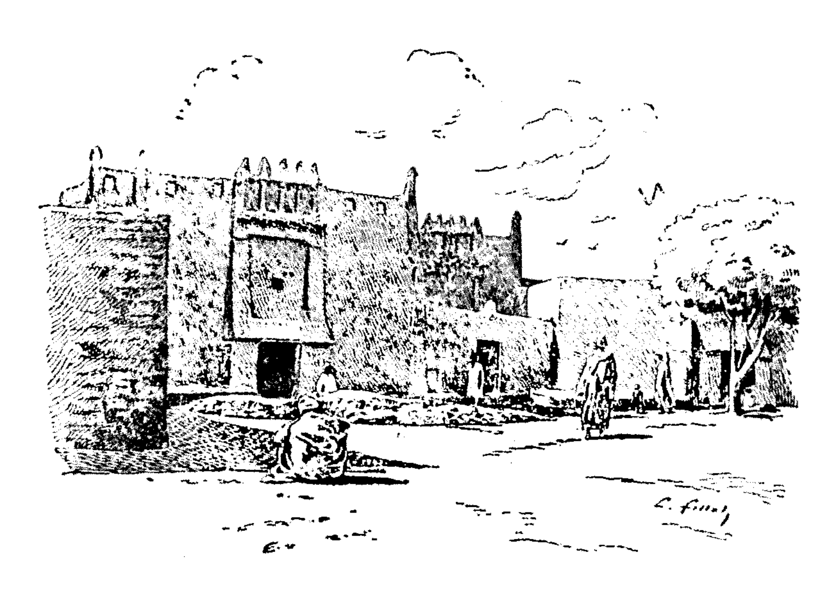
شكل رقم (١١) شارع في الحي العربي



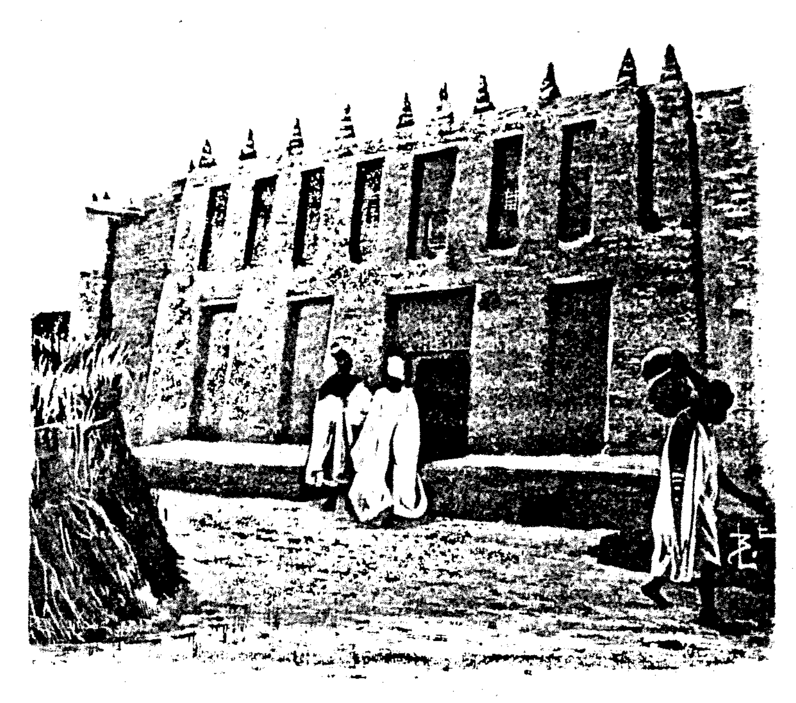
شكل رقم (١١) منزل في جني



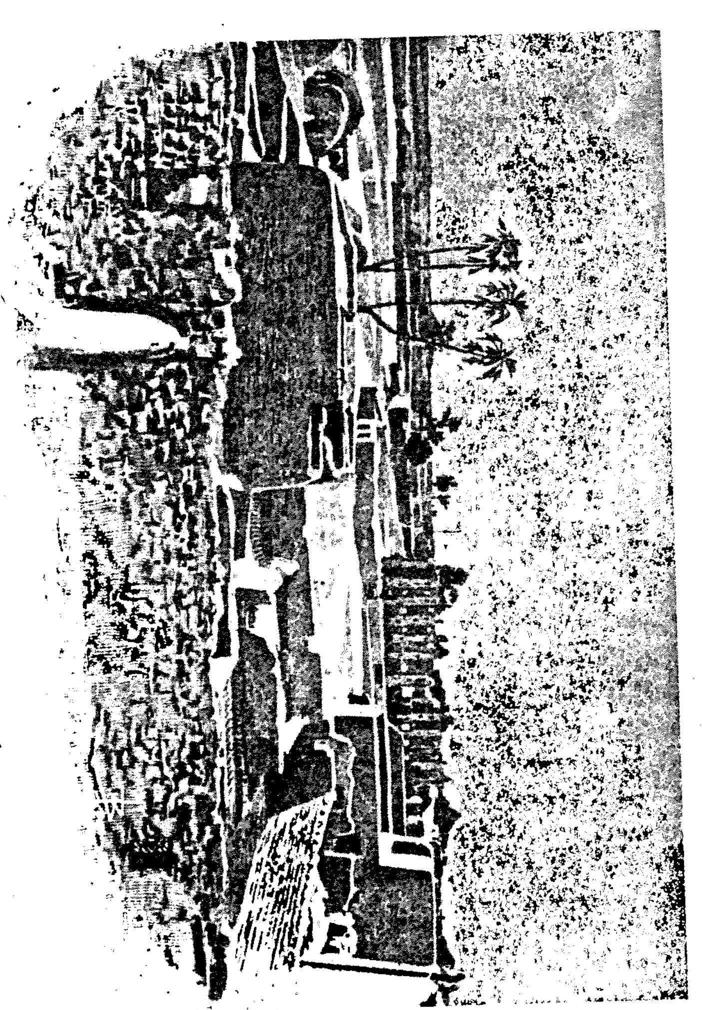
شكل رقم (١٣) منزل في جني



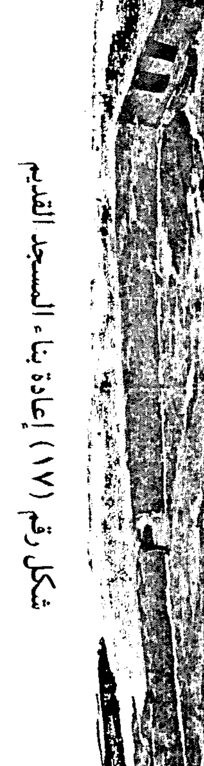
شكل رقم (١٤) منزل في جني



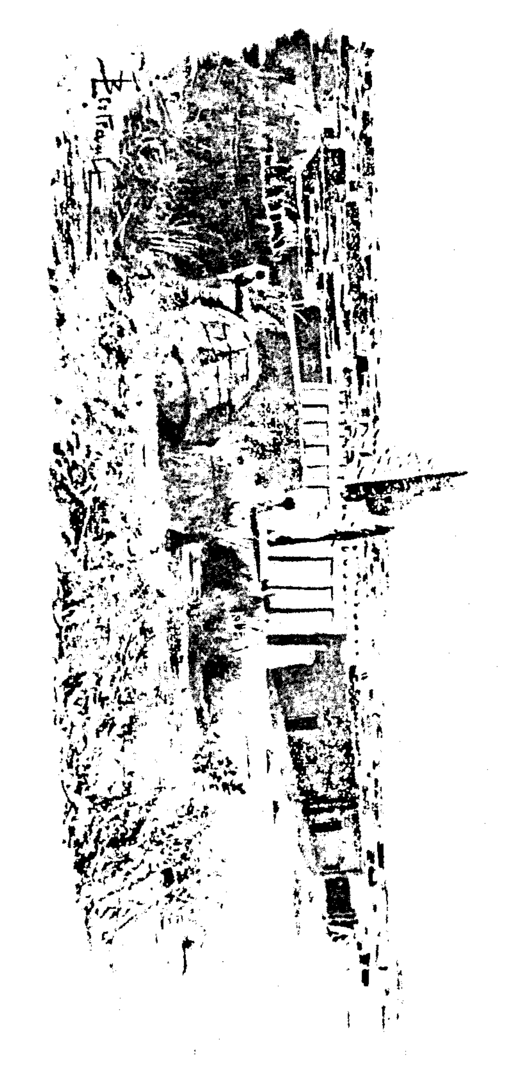
شكل رقم (١٥) منزل فى تمبكت بعد إعادة البناء



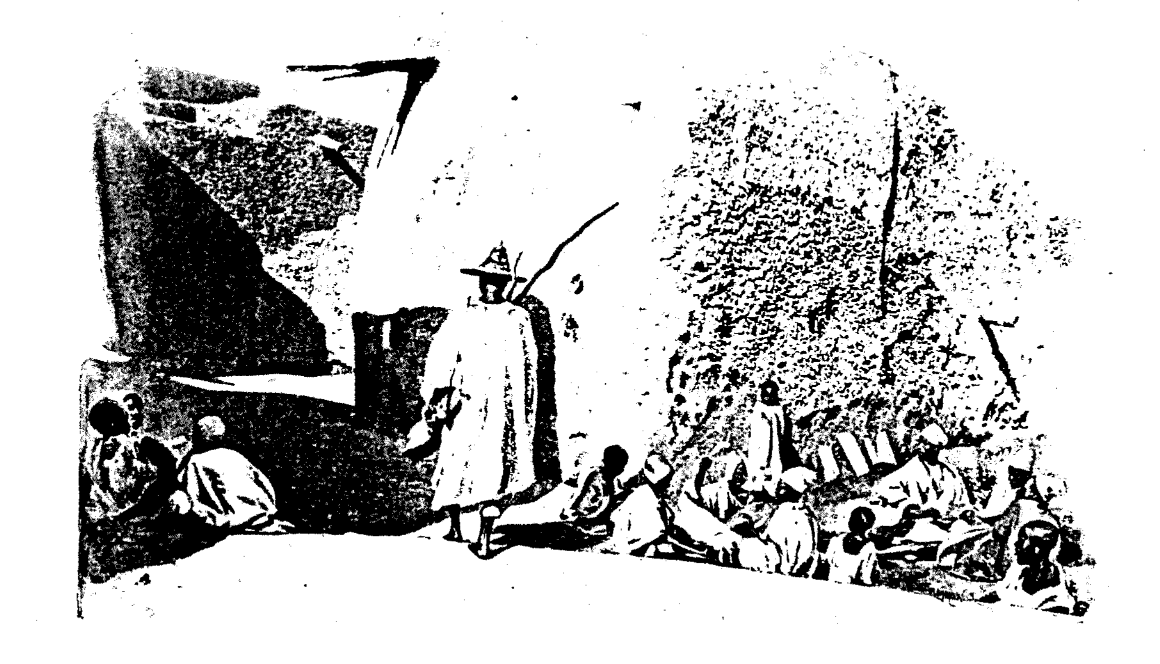
شكل رقم (١٦) بقايا المسجد القديم



شكل رقم (١٧) إعادة بناء المسجد القديم



شكل رقم (١٨) مسجد سنكري



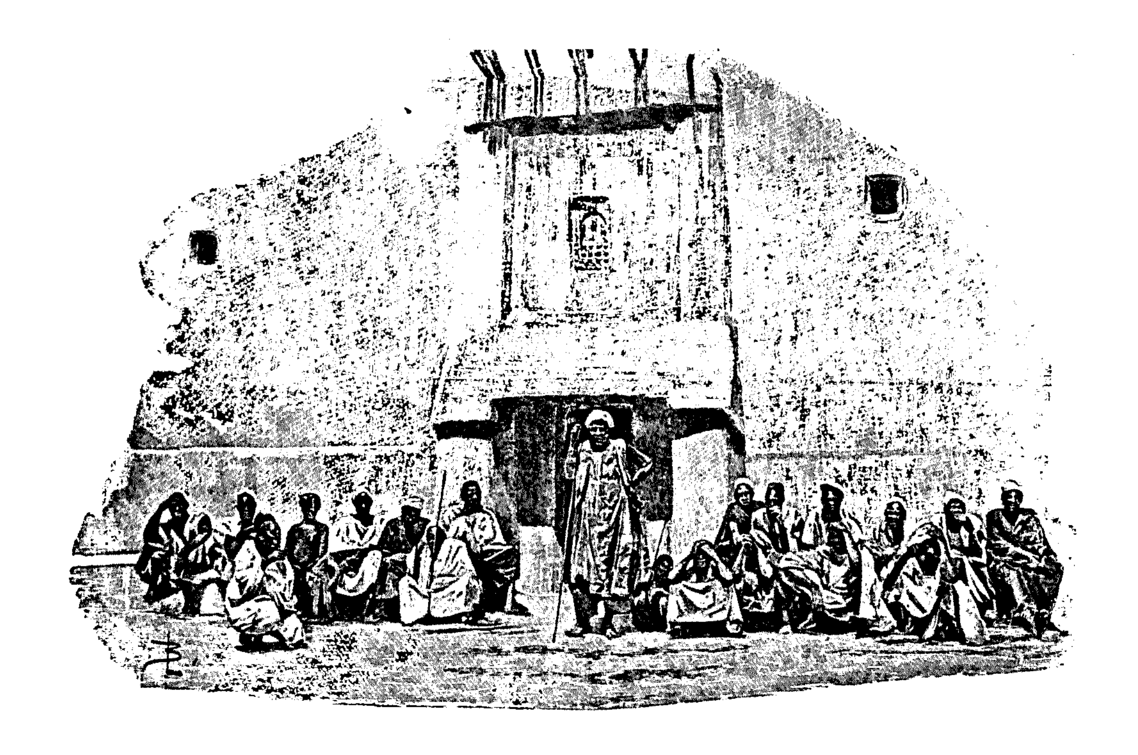
شكل رقم (١٩) مدرسة فى الشارع



شكل رقم (٢٠) مدرسة خياطة فى السودان



شكل رقم (٢١) تجار من دولة الموصل



شكل رقم (٢٢) منازل كبار التجار



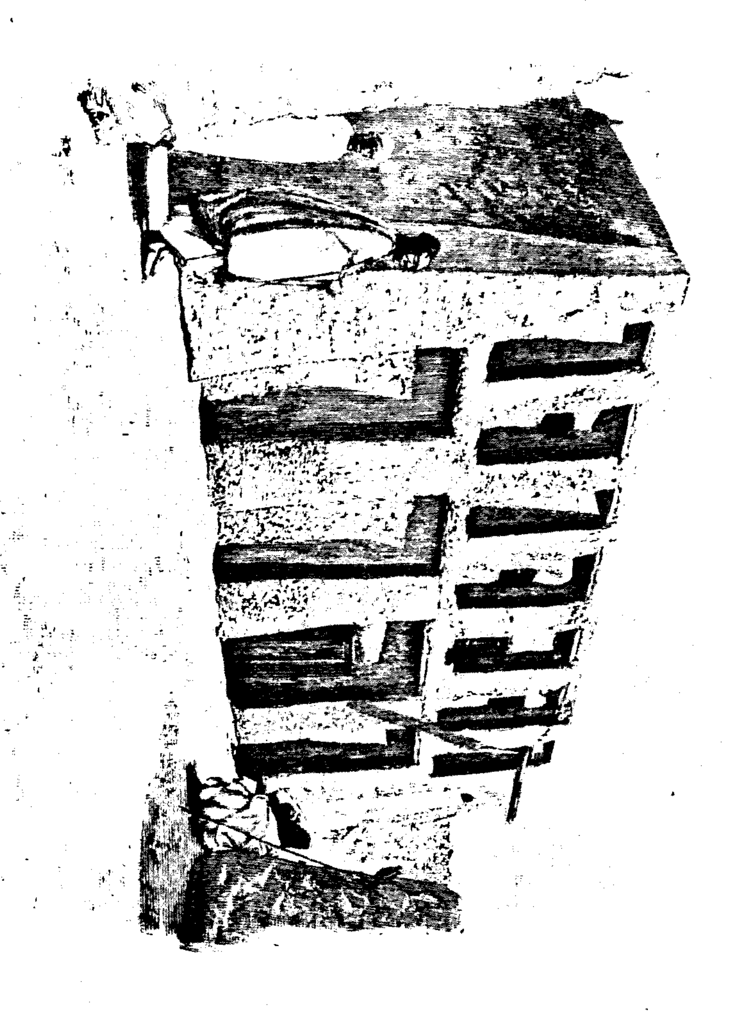
شكل رقم (٢٣) سيدة من تمبكت



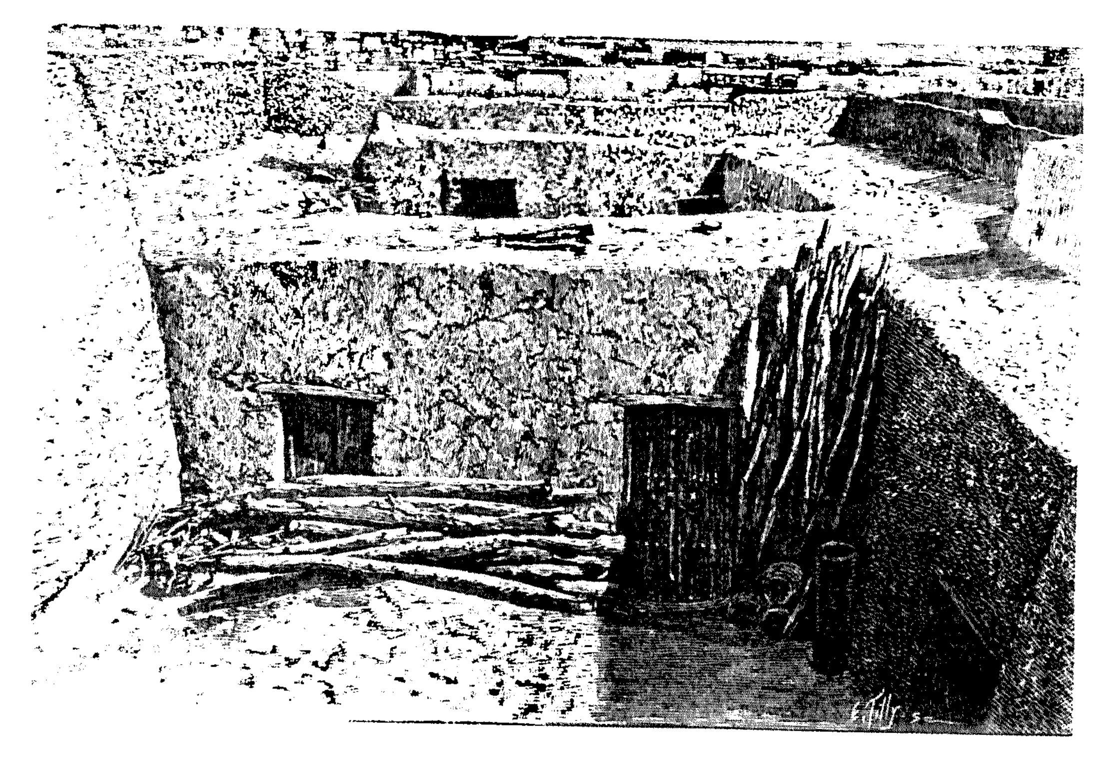
شكل رقم (٢٤) النساء المغاربة



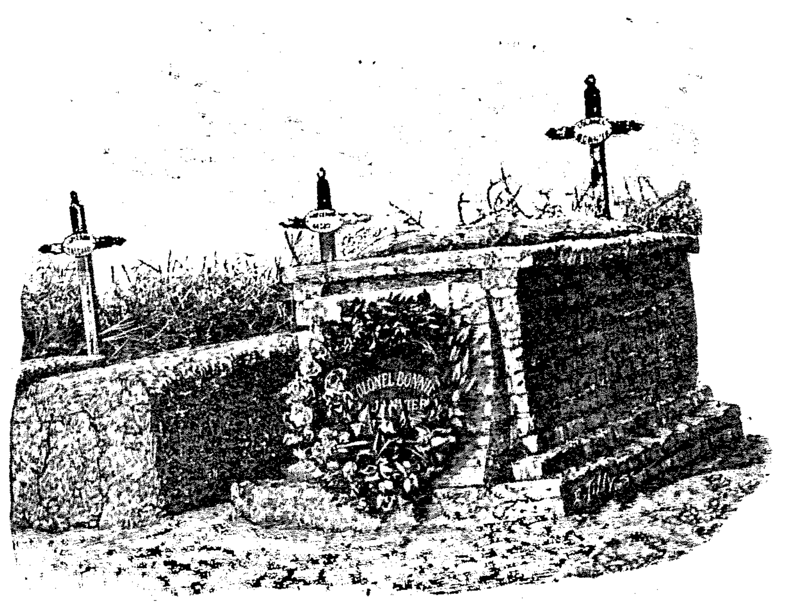
شكل رقم (٢٥) رجل الشرطة فى تمبكت



شكل رقم (٢٦) منزل الرحالة هنري بارت



شكل رقم (٢٧) منظر من شرفة منزل بارث



شكل رقم (٢٨) مقبرة الكولونيل يونية

المؤلف فى سطور :

هو الرحالة والمكتشف الفرنسى فيليكس دبيوا ، الذى قدم إلى غرب القارة الأفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر لدراسة هذه المنطقة ، خاصةً مدينة تمبكت التى قرأ عنها كثيراً قبل أن يصل إليها ، وعندما زارها كانت قد افتقدت الكثير من عظمتها ، واندثر الكثير من معالمها .

وقد نشرت وقائع الرحلة بعدة لغات ونشرت الطبعة الإنجليزية فى نيويورك عام ١٨٩٠ .

المترجم فى سطور :

عبد الله عبد الرازق إبراهيم سيد أحمد

حصل على ليسانس الأداب من قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٢ وليسانس التاريخ عام ١٩٧٩ وماجستير الدراسات الأفريقية عام ١٩٦٧، ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢ .

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية السابق ، وتدرج فى الوظائف الجامعية حتى صار أستاذ التاريخ الحديث عام ١٩٩٢ وألف أكثر من عشرين كتابًا ، وخمسين بحثًا فى مؤتمرات علمية فى الداخل والخارج ، وله أكثر من ثلاثين مقالا فى الدوريات والحوليات العلمية ، وشارك فى عدد من المؤتمرات العلمية داخل مصر وخارجها ، ويشرف على عدد كبير من طلاب الدراسات العليا فى الماجستير والدكتوراه .

يشارك بصفة دائمة فى التقارير الإذاعية والبرامج التليفزيونية التى تعالج مشكلات القارة الأفريقية ، كما يساهم فى كتابة بعض المقالات والتقارير الصحفية فى جريدة الأهرام .

ويقوم حاليًا بترجمة بعض الكتب التاريخية التى تدور حول رحلات اكتشاف أفريقيا وغيرها من القضايا التاريخية .

المراجع فى سطور :

شوقى عطاالله الجمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية الأسبق . قام بالإشراف على أكثر من مائة رسالة علمية ، وله أكثر من سبعين بحثًا علميا منشورًا فى مؤتمرات وندوات علمية ، كما أنه شارك فى العديد من المؤتمرات الخارجية والمحلية . وقد ساهم فى تحرير المادة العلمية لكثير من الموسوعات التاريخية ، ويشارك بصفة دائمة فى التعليق على بعض الأخبار والتقارير السياسية بالإذاعة والتليفزيون والصحف المحلية والعربية .

رائد الدراسات التاريخية فى المجال الأفريقى ، ويعد بحق المؤرخ الأفريقى الذى كرس حياته للتأليف والبحث والتنقيب فى وثائق وتاريخ القارة الأفريقية وتاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ووثائق مصر وسياستها فى البحر الأحمر ، تتسم كتاباته بالجيدة والموضوعية والتحليل العميق .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للتـرجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .





"تمبكت" موضوع هذا الكتاب مدينة تقع على مسافة اثنى عشر ميلا من نهر النيجر - ويرجح أن تأسيسها يرجع إلى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) من قبل الطوارق - وقد اختلف نطق اسمها، ففى بعض المراجع تكتب (طونبوكتو) وفى بعضها (تنبكت)، وهو الاسم الذى أطلقه عليها المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن عبد الله السعدى فى كتابه تاريخ السودان، ويذكر أنه يعنى المدينة العريقة فى القدم والحضارة. وذكر أنها كانت ملتقى العلماء والزعماء والصالحين، ومحط التجار والمثقفين، كما ذكرها محمود كعت فى تاريخ الفتاش بهذا الاسم، وقد كثر ذكرها فى كتاب وصف أفريقيا للحسن بن الوزان.

تصميم الغلاف : رائدة عبد الكريم
لوحة الفنانة : مارى هوايت